

الدكتور
عبد الحليم محمود

قضية التصوف المنقذ من الضلال



ويقول :

﴿ رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين ﴾^(٣)

وإذا ما حقق الإنسان العبودية لله ، فإن الله يتولاه بالإمداد بالمعرفة . . إنه سبحانه يقول عن موسى وفتاه :

﴿ فوجدنا عبداً من عبادنا ، آتيناه رحمة من عندنا ، وعلمناه من لدنا علماً ﴾^(٤)

إنه حقق العبودية ؛ فكان ثمرة ذلك أن يغمره الله بالرحمة ؛ وأن يفيض عليه العلم . .

وليست المعرفة وحدها هي ثمرة التحقق بالعبودية ، بل إن للتحقق بالعبودية ثماراً كثيرة سامية .

فأيوب عليه السلام ، يقول الله عنه :

﴿ واذكر عبدنا أيوب ، إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب . اركض برجلك هذا مقتسل بارد وشراب . ووهبنا له أهله ، ومثلهم معهم ، رحمة منا وذكري لأولى الأبواب . وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحث إنا وجدناه صابراً ، نعم العبد إنه أواب ﴾^(٥)

ولقد حقق سيدنا رسول الله ﷺ العبودية كاملة تامة .

لقد حققها في ذروتها ، فكانت صلاته ، وكانت نسكه ، وكانت حياته بأكملها ، وكان موته لله رب العالمين . . لا شريك له :

(٣) الحجر : ٣٩ ، ٤٠

(٥) ص : آية ٤١ - ٤٤

(٤) الكهف : ٦٥

﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين ﴾^(٦)

لقد حققها موفورة تامة ، فاتاه الله عز الدنيا والآخرة . .

وبتأية الرسول ﷺ ، والافتداء به ، سار الصوفية على الدرب . . يقول صاحب « عوارف المعارف » :

(الصوفي : هو الذى يكون دائم التصفية ، لا يزال يصنى الأوقات عن شوب الأقدار ، بتصفية القلب عن شوائب النفس . . ويعينه على هذه التصفية دوام افتقاره إلى مولاه . . فبدوام الافتقار ينقى من الكدر . . وكلما تحركت النفس ، وظهرت بصفة من صفاتها . أدركها ببصيرته النافذة وفر منها إلى ربه . فبدوام تصفية جمعيته ، وبحركة نفسه تفرقة وكدره . . فهو قائم بربه على قلبه ، وقائم بقلبه على نفسه . . قال الله تعالى :

﴿ كونوا قوامين لله ، شهداء بالقسط ﴾^(٧)

وهذه القوامية لله على النفس ، هي التحقيق بالتصوف^(٨) ويقول في موضع آخر :

(والصوفي يضع الأشياء مواضعها ، ويدبر الأوقات والأحوال كلها بالعلم ، يقيم الخلق مقامهم ، ويقيم أمر الحق مقامه . . ويستر ما ينبغي أن يستر ، ويظهر ما ينبغي أن يظهر . . ويأتى بالأمور في مواضعها ، بحضور عقل ، وصحة توحيد ، وكمال معرفة ، ورعاية صدق وإخلاص)^(٩)

(٦) الأنعام : ١٦٢ : ١٦٣

(٧) المائدة : ٨

(٨) عوارف المعارف ج ١ ص ٢٠٨ بتحقيقنا .

(٩) عوارف المعارف ج ١ ص ٢٣٢ بتحقيقنا .

لقد أخذ الصوفية أنفسهم بالتأسي بالرسول ﷺ فيما دق من الأمور ، وما
وضح منها . . وفي اليسير من أعمالهم ، والعظيم منها . . ومن أمثلة ذلك :

في الجهاد :

لا أتذكر طبعاً ، بل أنا الصديقة الجدة ، ولكننا نكون هنا

موضوع

الله ،

منی،

لمحة

توری

أنتك

اللغة

۴۰

کان

يدخل المعارك . ويخوضها في غير خوف ولا فزع ، وما كانت نفسه تطير شعاعاً من الأبطال . . وما كان يقول لها : لن تراعى . لقد كان كيانه كله في ثقة مطلقة بالله - وهذه الثقة تتمثل أجمل ما يكون المثل ، حينما أخذوه أسيراً وطرحوه أرضاً ، وجثم العدو على صدره ليذبحه .

إنه يصف شعوره وهو في هذه الحالة فيقول :

لم يشتغل به قلبي . بل كنت أنظر ماذا يحكم الله تعالى في . . فبينما هو يطلب السكين التي يذبح بها ، أصابه سهم فقتله . . وقت سليماً معافى . . .
قام سليماً معافى . ليعاود المعركة من جديد .

وإذا قفزنا في ساحة الزمن ، قفزة واسعة ، فوصلنا إلى معركة المنصورة ،
فإننا نجد كبار المؤمنين . وصفوة الصوفية في قلب المعركة .

لقد تركوا بيوتهم وأسرهم ، وهبوا مندفعين إلى المنصورة ؛ ليساهموا في النصر والاستشهاد في سبيل الله ، ولتكون الجنة تحت ظلال سيوفهم . ولقد كان - وهذا له أهميته الخاصة - « أبو الحسن الشاذلي » وهو من صفوة الصفوة الصوفية قد تجاوز الستين ، وكان قد كف بصره ، ومع ذلك فإنه ترك بيته ، وذهب إلى المنصورة . مساهماً في المعركة بقدر استطاعته .

لقد كانت المعركة شغله بالنهار ، وشغله بالليل ، لقد كانت تشغله مستيقظاً ، فيمر بسمته الوقور ، وبهيته المستمدة من تقواه ، وبالنور يشرق من وجهه ، بين الجنود .. مشجعاً ، حاثاً ، مبشراً بالنصر وبالجنة ، فإذا ما جئته الليل ، أخذ ينهل إلى الله سبحانه وتعالى ، متضرعاً ، خاشعاً ، راجياً التوفيق والنصر ، للأمة الإسلامية .

وفي ليلة من ليالي . رأى رسول الله ﷺ - في رؤيا طويلة وأصبح رضى

الله عنه يبشر بالنصر.

ولم تكن هذه هي الموقعة الأولى ، التي أسهم فيها « أبو الحسن الشاذلي »
رضي الله عنه - ولم تكن الأخيرة .

وإذا ما قفزنا مرة أخرى - في ساحة الزمن - قفزة واسعة ، فإننا نلتقي
بالصوفي الشهير : « عبد القادر الجزائري » .

كان من كبار الصوفية ، ومن كبار القادة في الحرب . ولقد حارب الاستعمار
في الجزائر ، وفعل بإيمانه القوي ، وصوفيته العميقة الأعاجيب ، في الشجاعة
والإقدام .

ولقد بدأ الحرب بأفراد قلائل . سرى إيمانه وإقدامه فيهم ، فتمثلت فيهم
الشجاعة في أسمى مظاهرها ، وأخذ عددهم يزداد ، شيئاً فشيئاً ، على مر
الأيام .

أما أسلحتهم : فقد كانت ما يحصلون عليه من أسلحة العدو .
ولقد وجه الأمير « عبد القادر » النداء تلو النداء ، للأمة الإسلامية ، من
أجل العون المالي ، والإنساني ، ومن أجل العون في العتاد . . فكانت
المساعدات التي قدمت إليه مخجلة ، يندى لها الجبين .

ولم تشعر الأمة الإسلامية ، بأنها أمة واحدة . . وكأنها لم تسمع ولم تقرأ قول
الله سبحانه وتعالى :

﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون ﴾ (١٠)

وقوله تعالى :

﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاتقون ﴾ (١١)

(١٠) الأنبياء : ٩٢ .

(١١) المؤمنون : ٥٢ .

إن الأمة الإسلامية لم تتجاوب معه تجاوب الإخوة ، وكأنها لا تشعر بقوله
تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ (١٢) .

ولا تحس بالإحساس الإسلامي .

(المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه ولا يجذله) (١٣)

(المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) (١٤)

تري المؤمنين في توادهم ، وتراحمهم كالجسد الواحد ، إذا اشتكى عضو ،
تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

ولم يثن كل ذلك الأمير « عبد القادر » ، عن متابعة الحرب ، والكفاح ضد
المستعمر ، وحينئذ أسر ، كرمه الأعداء أنفسهم ، لشجاعته وشهامته ومروءته ؛
ولما حالت الظروف القاهرة بينه وبين الجهاد والتضحية الحربية - وذلك بعد
الأسر - مكث في « دمشق » يدرس التصوف ، متخذاً « الفتوحات المكية »
كتابه المفضل في الشرح والتفسير . .

ولقد طبع هذه الفتوحات . . وفي أثناء إقامته بدمشق ألف كتاب
« المواقف » . . وهو كتاب في التصوف عريق ، بين فيه وجهة النظر الصوفية ،
في مختلف الموضوعات .

في التزام الشريعة :

أما فيما يتعلق بالتزام الشريعة ، فإننا نبتدئ بذكر كلمة « للإمام ، الكامل
الفقيه ، الأصولي ، المفسر ، الإسفرائيني » . صاحب كتاب : « التبصير في

(١١) البخاري .

(١٢) الحجرات : ١٥ .

(١٣) مسلم .

الدين .. وهو من أئمة أهل السنة ، المعنيين أشد عناية بالرد على كل من يخالف مذهب أهل السنة .

إنه يذكر ما يمتاز به أهل السنة ، عن غيرهم من الخوارج ، والروافض ، والقدورية . فيذكر أن سادس ما امتاز به أهل السنة هو .

علم التصوف والإشارات ، وما لهم فيها من الدقائق والحقائق ، لم يكن قط لأحد من « أهل البدعة » فيه حظ .. بل كانوا محرومين مما فيه : من الراحة والحلاوة ، والسكينة والطمأنينة .

وقد ذكر « أبو عبد الرحمن السُّلَمي » من مشايخهم ما يقرب من ألف ، وجمع إشاراتهم وأحاديثهم . ولم يوجد في جملتهم قط من ينسب إلى شيء من بدع « القدورية » ، والروافض ، والخوارج .

وكيف يتصور فيهم من هؤلاء ، وكلامهم يدور على التسليم والتفويض ، والتبرُّى من النفس ، والتوحيد بالخلق والمشيئة .

وأهل البدع ينسبون الفعل ، والمشيئة ، والخلق والتقدير ، إلى أنفسهم ، وذلك بمعزل عما عليه أهل الحقائق من التسليم والتوحيد .

بعد هذا نبداً في النظر إلى طريق التصوف ، وصلته بالشرعية :

يقول الإمام « الغزالي » :

إن الطريق إلى ذلك إنما هو : « تقديم المجاهدة ، وأموحى الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنهه الهمة على الله تعالى . . ومهما حصل ذلك ، كان الله هو المتولى لقلب عبده ، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم .

وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور في القلب ، وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب

الغرة ، بلطف الرحمة ، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية ، فليس على العبد إلا الاستعداد ، بالتصفية المجردة ، وإحضار الهمة ، مع الإرادة الصادقة ،

والتعطش التام ، والترصد بدوام الانتظار ، لما يفتحه الله تعالى من الرحمة .

وعن هذا الطريق ، يقول « ابن خلدون » .

« وقد كان الصحابة رضي الله عنهم على مثل هذه المجاهدة ، وكان حظهم

من هذه الكرامات أوفر الحظوظ ، لكنهم لم يقع لهم بها عناية .

وفي فضائل « أبي بكر » . « وعمر » ، « عثمان » ، وعلى ، رضي عنهم كثير منها ، وتبعهم في ذلك أهل الطريقة ، ممن اشتملت رسالة « القشيري »

« على ذكرهم ، ومن تبع طريقتهم من بعدهم » .

هذا فيما يتعلق بالطريق . .

أما فيما يتعلق بالموضوع ، والشعور ، والأحوال فإن الصوفية - على وجه العموم - نبهوا في صور حاسمة إلى وجوب التزام الشريعة ، يقول الإمام « أبو الحسن الشاذلي » رضي الله عنه :

(من دعا إلى الله تعالى . بغير ما دعا به رسول الله ﷺ ، فهو يدعى) .

ويقول :

(إذا لم يواظب الفقير على حضور الصلوات الخمس في الجماعة ، فلا تعباً

به) .

ومن أجمل كلماته في هذا ، قوله :

(ما ثم كرامة أعظم من كرامة الإيمان ، ومتابعة السنة . . فمن أعطيهما ،

وجعل يشاق إلى غيرهما ، فهو عبد مفتر كذاب ، أو ذو خطأ في العلم والعمل

بالصواب . كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضا ، فجعل يشاق إلى سياسة

صوب ، وخلع الرضا .

وكل الصوفية ينهجون هذا النهج . ومن هؤلاء مثلاً : « أبو يزيد البسطامي »

عسى يقول ل قوة حاسمة ، وفي نطق صادق .

(لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات ، حتى يرتقى في الهواء ، فلا تغفروا

، حتى تغفروا كيف تجددونه عند الأمر والنهي ، وحفظ الحدود ، وأداء

الشرعية) .

ولقد تحدث الإمام « الجنيد » أكثر من مرة ، فيما يتعلق بالصلة بين التصوف

والشرعية . وما قاله في ذلك :

(الطرق كلها مسدودة على الخلق ، إلا على من اقتنى أثر الرسول ﷺ ،

واتبع سنته ، ولزم طريقته) .

وقال أيضاً :

(من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث ، لا يقتدى به في هذا الأمر ؛

لأن علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة) :

ولقد كان الإمام « الغزالي » ، في سلوكه ، وفي قوله ، وفي حياته الخاصة

والعامة يلتزم الشرعية ، ويقول : إن المحققين قالوا :

(لو رأيت إنساناً يطير في الهواء ، ويمشي على الماء ، وهو يتعاطى أمراً يخالف

الشرع ، فاعلم أنه شيطان) .

والواقع : أن المثل الأعلى للصوفية على بكرة أبيهم ، إنما هو رسول الله

ﷺ ، وهم يحاولون - باستمرار - أن ينهجوا نهجه ، وأن يسبوا على منواله ؛

فهو إمامهم الأسمى في كل ما يأتون ، وما يدعون وهم يتابعونه مهتدين في ذلك

يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ، لمن كان يرجو الله واليوم

الآخر ، وذكر الله كثيراً ﴾ .

وبعد : فقد تبيننا مما سبق أن الطريق إلى الله هو التحقيق بالعبودية ، وقد

سار الصوفية في هذا الطريق ، فأثمر لهم ثماراً سامية كثيرة :

منها الجهاد .

ومنها التزام الشريعة .

وماذا بعد ذلك ؟

أما عن الصوفية والعلم : فإن الصوفية يمثلون العلم الإسلامي في قته ، في

جميع فروعه : في الفقه ، وفي التفسير ، وفي الحديث ، وفي الأخلاق ...

وإذا أردنا أن نتحدث عن القمة العلمية الشاخنة ، التي لا تضارع فيها

اجتمع لديها من علوم مدروسة ، مرواة محكمة ، فيها الإتيان ، والاستتاج

المتبصر ، والتبصر المتابع ، والاتباع الواعي ، أعنى شخصية الشيخ الأكبر

« محيي الدين » فإن الحديث عنها يستغرق مجلدات .

وإن مقارنات مؤرخي الفكر ، بين الشيخ الأكبر وغيره من الغربيين

والشرقيين ، تصعد به إلى القمة .

والشيخ الأكبر يذكر دائماً بحجة الإسلام « الغزالي » الذي جمع في

إحيائه ، أربعين كتاباً ، كل منها له استقلاله ، وله ذاتيته ، وألف منها - في

إحكام محكم - كتابه « إحياء علوم الدين » .

ولقد انهار تحت قلمه في سهولة ويسر ، عباقرة الفكر الفلسفي ، فتهاقوا ،

وانهاروا ، وأتى عليهم كتابه النفيس « تهافت الفلاسفة » .

وأحمد حجة الإسلام بدعة الفلسفة ؛ وعيث الفلسفة في الشرق
«لامى» .

ولالإمام «الغزالي» أكثر من ثمانين كتاباً ورسالة ، في الأصول ، والفقه ،
لتوحيد ، والفلسفة ، والتصوف .

ولا تزال كتبه تقرأ أو تتداول عليها دائماً طابع النضرة : طابع الخلود .
والصورة الجميلة في الصوفية - في الأغلب الأعم - هي صورة
«الجنيذ» .

لقد كان الكتاب (اللغويون والأدباء) يحضرون مجلسه ؛ لألفاظه .
والفقهاء ؛ لتقريره .

والفلاسفة ، لدقة نظره ومعانيه .
والمتكلمون ، لتحقيقه .

والصوفية ، لإشاراته وحقائقه .

يقول صاحب «الرسالة القشيرية» عنه :

وكان فقيهاً على مذهب «أبي ثور» وكان يفتي في حلقاته بحضرته ، وهو ابن
عشرين سنة .

ويروى صاحب «الرسالة القشيرية» عن «أبي الحسين علي بن إبراهيم
الحداد» ، يقول : حضرت مجلس القاضي «أبي العباس بن شريح» ، فتكلم
في الفروع ، والأصول ، بكلام حسن ، عجبت منه ، فلما رأى إعجابي ،
قال : أتدرى من أين هذا ؟

قلت : يقول به القاضي .

فقال : هذا ببركة مجالسة «أبي القاسم الجنيذ» .

وإذا ذكر «الجنيذ» ذكر أستاذه : «الحارث المحاسبي» . وقد كان
«الحارث» مثقفاً في الدين والعربية ، كأحسن ما يكون المثقف ، لقد كان
فقيهاً ، وكان محدثاً ، وكان متكلماً ، وكان عالماً في الأخلاق ، وكان صوفياً ،
ولقد دخل - في قوة - كل المشاكل التي وجدت في عصره ، باحثاً ، مرشداً ،
مجادلاً هادياً إلى الحق ، والحق في نظره هو ما كان عليه الرسول ﷺ
وأصحابه .

وألف «المحاسبي» الكثير من الكتب ، في شتى مجالات العلوم .

وليأخذ الإنسان أى صوفى من هؤلاء الذين ذكرهم «السلمى» في
«طبقاته» ، أو الذين ذكرهم «القشيري» في «رسالته» ، أو الذين تحدث
عنهم صاحب «الحلية» فسيجد أنهم قوم اتخذوا من العلم عبادة وعكفوا على
دراسته تقريباً إلى الله سبحانه .

وما كان علم الكتب هو غايتهم الأخيرة ، وإنما مع علم الكتب ، كان
طموحهم إلى العلم الوهبي : العلم الذى يمنحه الله لبعض عباده ، العلم الذى
سافر «موسى» عليه السلام سفرة شاقة بمجهد ، ليلتقى في نهايتها مع عبد من
عباد الله تعالى ، علمه الله من لدنه علماً . يقول سبحانه عن «موسى» وفتاه :
﴿ فوجدنا عبداً من عبادنا ، آتيناها رحمة من عندنا ، وعلمناه من لدنا
علماً ﴾ .

وهو علم يمنحه الله لمن حقق له العبودية .

ولأن هذا العلم - وهو مطمئهم الأخير - لا يتأتى إلا بإخلاص العبودية
لله ، لأن إخلاص العبودية لله لا يتأتى إلا بأن يكون الاستغراق في العمل :
صلاة وذكر وصياماً . . . من الأسس الجوهرية في حياة الإنسان ؛ فإنهم

انجهوا في صورة موفقة إلى العمل ، لقد أخذوا الكتاب بقوة ، وكانوا أتقياء .
فأفاض الله عليهم من إلهاماته ، واتسم ما دُونوه بطابع الروحانية ، واتسم
بأن كان طابعه أن يذكر على من الزمن

دين « لحجة

لعصور .

واكتساب

الزجاجي ،

نهم العازف

ون فيها حق

اده :

فوة الصفوة

يخين عنه ،

ومن دعائه المشهور :

« اللهم وسع على رزقي في دنياي ، ولا تحجيني بها عن أخرى » .

ومن دعائه بشأن الدنيا :

« اللهم اجعلها في أيدينا ، ولا تجعلها في قلوبنا » .

والفرق بين الصوفية وغيرهم في هذا : هو أن الدنيا لا تستعبدهم : وإنما

تستعبد غيرهم .

إنهم لا يلقون بقيادهم إلا الله سبحانه وتعالى ، فلا يلقون بقيادهم إلى مال

أو جاه ، أو منصب أو رياسة ، أو غير ذلك مما بذل له أهل الدنيا ، وأهل

الآهواء ، الذين يتخذون دنياهم ، وآهواءهم آلهة يعبدونها من دون الله . .

إنهم أغنياء أو فقراء تحققوا بقوله تعالى :

﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ .

و « ابن عطاء الله السكندري » يقص في كتابه الجميل : « لطائف المنن » .

قصة ثرى صوفى تحقق بالآية القرآنية الكريمة ، فلم يمنعه ثراؤه الضخم

العريض أن يكون صوفيًا .

يقول « ابن عطاء الله » :

« قال بعض المشايخ : كان رجل بالمغرب من الزاهدين في الدنيا ، ومن

أهل الجهد والاجتهاد ، وكان عيشه مما يصيده من البحر ، وكان الذى يصيده

يتصدق ببعضه ، ويتقوت ببعضه ، فأراد بعض أصحاب هذا الشيخ أن يسافر

إلى بلد من بلاد المغرب ، فقال له هذا الشيخ :

إذا دخلت إلى بلد كذا ، فاذهب إلى أخى فلان ، فأقرئه منى السلام ،

وتطلب الدعاء منه لى ، فإنه ولى من أولياء الله تعالى :

قال : فسافرت ، حتى قدمت تلك البلدة ، فسألت عن ذلك الرجل ،
فدللت على دار لا تصلح إلا للملوك ، فتعجبت من ذلك ، وطلبتة فقيل لى :
هو عند السلطان ، فازداد تعجبي ، وبعد ساعة ، وإذا هو آت فى أفخر ملبس
ومركب ، وكأنما هو ملك فى موكبه .

قال : فازداد تعجبي أكثر من الأول .

قال : فهممت بالرجوع وعدم الاجتماع به ، ثم قلت : لا يمكننى مخالفة
الشيخ .

فاستأذنت ، فأذن لى ، فلما دخلت رأيت ما هالنى من العبيد ، والخدم ،
والشارة الحسنة ، فقلت له :

أخوك فلان يسلم عليك .

قال : جئت من عنده .

قلت : نعم .

قال : إذا رجعت إليه قل له :

إلى كم اشتغالك بالدنيا ؟ وإلى كم إقبالك عليها ؟ وإلى متى لا تنقطع
رغبتك فيها ؟

فقلت : هذا والله أعجب من الأول ، فلما رجعت إلى الشيخ ، قال :
اجتمع بأخى فلان ؟

قلت : نعم .

قال : فما الذى قال لك ؟

قلت : لا شىء .

قال : لابد أن تقول لى ؟

فأعدت عليه ما قال ، فبكى طويلا وقال :

صدق أخى فلان ، هو غسل الله قلبه من الدنيا وجعلها فى يده ، وعلى
ظاهرة ، وأنا أخذها من يدى ، وعندى إليها بقايا التطلع « ا هـ .

وفى نهاية هذه الكلمة نورد صورة لشخصية صوفية متكاملة ، وإن كانت
مشهورة ، نوردها عن « الطبقات الكبرى » « للشعرانى » فى اختصار :

يقول الإمام « الشعرانى » - عن هذه الشخصية الصوفية - رضى الله عنه :
« ومنهم شيخنا وقدوتنا إلى الله تعالى : الإمام الصالح الورع الزاهد
« شمس الدين الديروطى » ، ثم « الدمياطى » الواعظ .

كان فى الجامع الأزهر أيام السلطان « قانصوه الغورى » ، وكان رضى الله
عنه مهاباً عند الملوك ، والأمراء ، ومن دونهم ، زاهداً ورعاً ، مجاهداً ، صائماً
قائماً ، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر . وقد حضرت مجلس وعظه فى الجامع
الأزهر مرات ، فرأيت مجلساً تفيض فيه العيون ، وكان إذا تكلم أنصتوا
بأجمعهم ، وكان يحضرها أكابر الدولة ، وأمراء الألوف فكان كل واحد يقوم
من مجلسه ، متخشعاً ، صغيراً ، ذليلاً . رضى الله عنه . . وكان إذا مر فى
شوارع مصر ، يتزاحم الناس على رؤيته ، وكان من لم يحصل ثوبه ، رمى
بردائه من بغيد على ثيابه ، ثم يأخذ رداءه فيمسح به على وجهه ؛ رضى الله
عنه .

حط مرة على السلطان « الغورى » فى ترك الجهاد ، فأرسل السلطان خلفه ،
فلما وصل إلى مجلسه ، قال للسلطان : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته - فلم
يرد عليه - فقال : إن لم ترد السلام فسقت وعزلت . فقلت : وعليكم السلام
ورحمة الله وبركاته ، ثم قال :

الفصل الأول

التصوف

- لفظاً
- وتعريفاً
- وطريقاً
- ومصادر
- ونشأة
- ونحلة عامة عنه

حول كلمة : « تصوف »

١- يروى عن أحد الصالحين : أنه كان يمتنع عن التحدث فيما يتعلق بشخصه ، ولو أمكنه أن يلغى سيرته الشخصية من أذهان الناس ، ولو أمكنه أن يلغى اسمه لفعل راضياً مغتبطاً ، ذلك أن التسمية والجانب الشخصي الفردى فى الإنسان لا قيمة لها ، إذا نظرنا إلى الآفاق العليا من الروحانية .

ومما يتلاءم مع هذا الاتجاه قول بعض الصوفية ما معناه :

إن طائفة الصوفية : لو تنزهت عن الفردية والشخصية لترهمهم الله عن التسمية تترهاً مطلقاً ، ولكن لما شابت الفردية أعمال بعضهم وضع لهم اسم واندرجوا تحت عنوان : « الصوفية » .

وسئل « الشبلى » رضى الله عنه : لم سميت « الصوفية » بهذا الاسم ؟ فقال :

هذا الاسم الذى أطلق عليهم ، اختلف فى أصله وفى مصدر اشتقاقه : ولم يتنه الرأى فيه إلى نتيجة حاسمة بعد .

ومن أقدم الآراء التى قيلت ، وأطرفها : ما ذكره « البيرونى » : من أن هذا اللفظ إنما هو تحريف لكلمة : « سوف » اليونانية التى تعنى الحكمة يقول « البيرونى » .

إن من اليونانيين من كان يرى الوجود الحقيقى لليلة الأولى فقط لاستغنائها بذاتها فيه ، وحاجة غيرها إليها ، وأن ما هو مفقود فى الوجود إلى غيره فوجوده

كالخيال غير حق ، والحق هو الواحد الأول فقط ، وهذا رأى السوفية ، وهم الحكماء ؛ فإن « سوف » باليونانية الحكمة ، وبها سمي « الفيلسوف » بيلا سوبا أى محب الحكمة .

ولما ذهب فى الإسلام قوم إلى قريب من رأيهم ، سمو باسمهم . ويرى « البيرونى » أن التصحيف دخل هذا الاسم بعد ذلك ، فقال : مفسراً ومعللاً . ولم يعرف القلب بعضهم ، فنسبهم - للتوكل إلى الصُّفَّة ، وأنهم أصحابها فى عصر النبي ﷺ .

ثم صحف بعد ذلك فصير : من صوف التيوس . . . ورأى « البيرونى » هذا على طرافته لا يستقيم لسبب بسيط ، وهو أن التسمية « بالصوفى » كانت موجودة قبل ترجمة الحكمة اليونانية إلى اللغة العربية . « فالبيرونى » يقول فى صراحة :

« ولما ذهب فى الإسلام قوم إلى قريب من رأيهم سمو باسمهم » . ورأى « البيرونى » إذن لا يستقيم ، إلا على أن هذا اللفظ : نشأ فى الإسلام بعد أن عرفت الكلمة اليونانية ، وعرف معناها وتداولتها الألسنة ولاكتها الأفواه ، وألفت معناها العقول ، أى حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى ، على أقل تقدير مع أن الكلمة عرفت قبل ذلك بكثير ، بل لقد عرفت فى العهد الجاهلى على ما يرى صاحب « اللمع » .

ولكن إذا كان رأى « البيرونى » لا يستقيم ، فإلام نتجه فى اشتقاق هذه الكلمة .

إن الآراء أصبحت معروفة ، بل لقد كانت معروفة من قديم الزمان وصاحب الرسالة القشيرية يستعرضها رأياً ، رأياً ، وينقضها جميعاً .

١ - فأما قول من قال : إنه من الصوف ، وتصوف إذا لبس الصوف كما يقال : تقمص إذا لبس القميص ، فذلك وجه .

ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف .

٢ - ومن قال : إنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله ﷺ : فالنسبة إلى الصفة لا تجيء على نحو الصوفى .

٣ - ومن قال : إنه من الصفاء .

فاشتقاق « الصوفى » من الصفاء بعيد فى مقتضى اللغة .

٤ - وقول من قال : إنه مشتق من الصف فكأنهم فى الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة من الله تعالى : المعنى صحيح .

ولكن اللغة لا تقتضى هذه النسبة إلى الصف .

وإذا كان صاحب الرسالة القشيرية : يتقد كل هذه الآراء ، فإنه إذن لا يرى الاشتقاق ويقول : هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة ، فيقال : رجل صوفى . وللجاعة صوفية ، ومن يتوصل إلى ذلك يقال له : متصوف وللجاعة : المتصوفة .

وليس يشهد للاسم - من حيث العربية - قياس ولا اشتقاق ، والأظهر فيه أنه كالقلب :

لقد استعرضنا الآراء التى قبلت فى هذا الموضوع قديماً ، فهل يا ترى هناك من جديد ؟

٢- ما رأى الباحثين الحديثين في أصل كلمة (تصوف) .

يقول الشيخ «عبد الواحد يحجي» :

أما أصل هذه الكلمة : «صوفى» فقد اختلف فيه اختلافاً كبيراً ، ووضعت فروض متعددة ، وليس بعضها أولى من بعض ، وكلها غير مقبولة . إنها في الحقيقة تسمية رمزية ، وإذا أردنا تفسيرها ينبغى لنا أن نرجع إلى القيمة العددية لحروفها ، وإنه لمن الرائع أن نلاحظ : أن القيمة العددية لحروف «صوفى» تماثل القيمة العددية لحروف «الحكيم الإلهى» فيكون الصوفى الحقيقى إذن ، هو الرجل الذى وصل إلى الحكمة الإلهية . إنه (العارف بالله) إذ أن الله لا يعرف إلا به .

وتلك هى الدرجة العظمى (الكلية) فيما يتعلق بمعرفة الحقيقة .

وقد انفرد الشيخ «عبد الواحد يحجي» ، فيما نعلم بهذا رأى ، وهو رأى لا يمكن أن ينقض بالأدلة المنطقية ، ولكنه لا يمكن أيضاً أن يؤيد بالأدلة المنطقية يستسيغه قوم دون برهان ، وينفر منه آخرون من غير ما حجة . وإذا تركنا الشيخ «عبد الواحد» لتنظر إلى الباحثين فى هذه اللفظة ، فإننا نجدهم ينقسمون إلى فريقين لا ثالث لهما .

يجارى فريق منهم «أبا الريحان البيرونى» فى أنها مأخوذة عن أصل يونانى هو كلمة «سوفيا» اليونانية .

وقد قال بهذا رأى (فون هامر) من المستشرقين .

واعتقه كثير من الأساتذة الباحثين .

وأيده فى حرارة «محمد لطفى جمعه» .

أما السبب الذى جعلهم ينصرفون عن نسبة الكلمة إلى الصوف ، فهو : إنهم يعتقدون أن نسبتها إلى الصوف : يبعد الصوفية عن الحكمة الإلهية ، وينسبها إلى الظاهر والشكل ، وعلى حد تعبير «محمد لطفى جمعه» : «يجرد هذه الفرقة المنتمة إلى الإسلام ، من صفة الحكمة والفضيلة» .

وقد بينا رأينا فى هذا الموضوع فيما مضى ، ونقول الآن :

إن أصحاب هذا رأى يعطون قوة وتأيداً ، لمن يزعم أن التصوف الإسلامى وليد الفلسفة «الأفلاطونية» وهو رأى باطل .

ولقد هاجم الدكتور «زكى مبارك» هذا رأى فى قوة وفى منطق سليم . لقد كان العرب - حسماً يرى - مولعين بحفظ ما يدخل لغتهم من الألفاظ الأجنبية ، ولو كان (التصوف) من (سوفيا) لنصروا عليه ، فى كثير من المؤلفات .

ثم إن كلمة (سوفيا) اليونانية ، معناها الحكمة . وكانت (الفلسفة) عند اليونان القدماء تهتم بالعلوم الطبيعية ، وكان كثير من فلاسفتهم أطباء ، وقد ترجمتها العرب : فسموا الطب : «الحكمة» وكلمة «حكيم» لاتزال تؤدى معنى كلمة : «طبيب» والفلسفة نفسها سماها العرب «الحكمة» وقالوا : تاريخ الحكماء .

فهم عرفوا من سوفيا : «الفلسفة والطب» . أما الحكمة الروحانية ، فمن البعيد أن يكونوا لمحوها لأنهم كانوا يرون اليونان من عبدة الأوثان .

ثم يقول الدكتور «زكى مبارك» : فى ظرف ظريف ، وفى صورة من الجد هى تعبر ، أبلغ التعبير ، عن التهكم والسخرية : على أنه ما الذى يمنع أن تكون «سوفيا» بمعنى الحكمة الروحانية ، جاءت من كلمة : «صوف» وهى قديمة فى العربية ؟

قضية التصوف المتنازع عليها

التصوف ، قديم جداً عند العرب ، وهو أساس المسيحية ، ولبس
الصوف : كان علامة التقشف ، فليس من المستبعد أن ترحل
كلمة « صوف » إلى معابد اليونان .

وهو يتبع بعد ذلك إلا أن يكون هذا الرأي ، على حد تعبير الدكتور « زكي
مبارك » : « ليس إلا ضرباً من الإغراب » .

أما الفريق الثاني من الباحثين الحديثين - وهم أكثرية - فإنه يرى أن كلمة
« تصوف » مأخوذة من « الصوف » .

٢- إنني أرى - كما ترى الغالبية العظمى من الباحثين الحديثين -

أن لفظة « التصوف » تنسب إلى الصوف ، وكما أنه يقال : تقمص إذا
القميص - كذلك يقال : تصوف إذا لبس الصوف ، ومن أبرز القائلين
« الرأي : المرحوم الأستاذ الأكبر الشيخ « مصطفى عبد الرازق » ، والمرحوم
«كتور « زكي مبارك » والمستشرق « مرجليوث » .

وإذا كانت الكلمة تنسب إلى الملابس - وهو مظهر وشكل ورسم - فليس
من ذلك أن التصوف مظاهر وأشكال .

وليس من المحتم دائماً أن يكون المعنى الأصلي للاسم هو المراد مما وضع الاسم
د المعنى الأصلي : قد يتطور ويتغير ويختلف ، وقد يقصد عكسه ، ومن أجل
أنه فإنه لا مجال لتخوف هؤلاء الذين لا يريدون أن ينسبوا التصوف إلى
صوف ، بحجة أن انتسابه إلى المظاهر يحط من شأنه .

حقيقة أن الباحثين كثيراً ما يجدون صلة وثيقة بين المعنى الأصلي للاسم ، وما
الاسم له ، أو بين الاسم والمسمى ، ولكن ذلك ليس مطرداً .

والواقع أن التصوف معنى معروف ، لا شأن له بالمظاهر والأشكال .
وإذا كان بعض الأشخاص لا يزالون يمارون في قيمته أو فائدته ، فإنهم
لا يتخذون التسمية تكأة لهذه الممارسة ، ولو فرضنا أنهم اتخذوها تكأة لخرجوا عن
سمت الباحثين ، ولأصبحوا سخرية للساخرين .

على أنني أرى - كما يرى كثير غيري وكما يثبت التاريخ - : أن هذه الكلمة
« تصوف » لم توضع في الأصل للتصوف بمعناه العادي ، الذي نفهمه الآن ،
وإنما وضعت في المبدأ لتدل على نمط من العزوف عن الدنيا ، إنها كانت علامة
الزاهدين والمتنسكين ، فسمى بها هؤلاء الذين انصرفوا عن الدنيا .

إن العزوف عن الدنيا : عادة قديمة جداً ، يتمسك بها بعض الناس ،
تمشياً مع فكرة دينية وإرضاء لشعور تنسكي .

وقد حدثنا القرآن عن هؤلاء الذين يترهبون ابتغاء رضوان الله .
ويتمذهب بها بعض الناس إرضاء لفكرة منطقية ، واتباعاً لمذهب عقلي ،
يرى أن السعادة في الهدوء ، والهدوء لا يتأتى إلا بتحديد الرغبات ، والبعد عن
الشهوات وذلك هو الزهد .

وسواء أكان العزوف عن الدنيا ديناً أم كان منطقاً فإنه موجود منذ أقدم
العصور .

فالدين صاحب الدنيا منذ نشأة الإنسان فيها .

والمنطق صاحب الإنسان منذ وجوده .

ولقد رأى هؤلاء الزهاد - من ناحية الملابس - في الصوف : ما يحقق
أهدافهم التي تتصل بالتقشف ، والشظف والخشونة ، فهو متين رخيص خشن
لا يحتاج ، الإنسان معه في الشتاء إلى غيره ولا يحتاج إلى تغييره كثيراً ، ذلك أنه

لا يبل بسرعة فتصوفوا . أى لبسوا الصوف .

وكان لابد من اسم يطلق على هؤلاء ، وكان من السهولة بمكان أن يطلق عليهم : صوفية ، وأطلق الاسم مصادفة أو تعمداً فذاع وشاع ! وأصبح الزهاد يعرفون - فى البيئات العربية - باسم ! « الصوفية » .

هؤلاء الزهاد ! كانوا موجودين فى العصر الجاهلى تديناً أو منطقياً ، وكانوا موجودين فى صدر الإسلام تديناً أو منطقياً ! حتى إذا كانت « رابعة » ، وكان « الجنيد » وكان « ذو النون » . حتى إذا ذاع التصوف وانتشر ممثلوه عازفين عن الدنيا لابسين الصوف ، أطلقت الكلمة عليهم .

ولم يميز الناس بين حالتين مختلفتين كل الاختلاف هما : حالة الزهد البحت ، وحالة التصوف ، ولم يثر الصوفية على التسمية فى حد ذاتها ، ومن لم يرض منهم نسبتها إلى الصوف ، ذهب فى نسبتها مذاهب أخرى .

وإذا كانت الكلمة تتسبب إلى الصوف فهى كلمة موفقة كل التوفيق ، ولعل عناية المقادير : هى التى هيات لها الجو للظهور والشيوع ، إذ أنها تمت بصلة حرفية ، نغمة جرسية ، إلى كثير من الكلمات التى تدل على معان وثيقة الصلة بالتصوف : كالصفاء « وصلته بالتصوف ظاهرة » .

والصف « الصف الأول فى الجهاد : جهاد العدو وجهاد النفس » .

والصفة « صفة مسجد رسول الله ﷺ التى كان يعيش فيها قوم وهبوا أنفسهم للجهاد » .

والصفة « الصفة الجميلة » .

وسوفيا اليونانية : « التى تدل على معرفة الغيب على وجه الخصوص » .

وكان من التوفيق أيضاً : هذا الغموض نفسه فى أصل الكلمة ، فما من شك فى أن اختلاف المذاهب والآراء فى أصلها : يبين الكثير من معانى التصوف ومن مظاهره .
وبالله التوفيق .

تعريف التصوف

١- يتجه الكثير من الناس - في تعريف التصوف - إلى الجانب الأخلاقي ، وهذا الاتجاه : شائع عند الصوفية أنفسهم ، وعند غيرهم من الباحثين في التصوف والمؤرخين له ، ونذكر الآن عدة أمثلة ، تبين منها هذا الاتجاه :

يقول « أبو بكر الكثافي » ، المتوفى سنة ٢٣٣ هـ :

« التصوف : خلق ، فن زاد عليك في الخلق ، فقد زاد عليك في الصفاء » .

وتروى الرسالة القشيرية : أن « أبا محمد الجريري » المتوفى سنة ٣١١ هـ ، سئل عن التصوف فقال :

« الدخول في كل خلق سني ، والخروج من كل خلق ذني » .

وأحد تعريفات « أبي الحسين النوري » ، للتصوف - كما تذكره « تذكرة الأولياء » : ينفي عن التصوف أن يكون رسماً ، أو علماً ، ويحدده بأنه « خلق » . إنه يقول :

« ليس التصوف رسماً ، ولا علماً ، ولكنه « خلق » ثم يعلل ذلك بقوله : لأنه لو كان رسماً ، لحصل بالمجاهدة ، ولو كان علماً ، لحصل بالتعليم ، ولكنه تخلق بأخلاق الله ، ولن تستطيع أن تقبل على الأخلاق الإلهية بعلم أو رسم » . ويحدد أبو الحسين النوري - في تعريف آخر - الأخلاق التي يتكون منها التصوف فيقول :

(التصوف : الحرية . والكريم . يترك لتكلف ، والسخاء) .

هذا الاتجاه الأخلاقي في تعريف التصوف ، شائع في الشرق وفي الغرب ، وهو - أيضاً - شائع في الزمن القديم وفي الزمن الحديث ... ومع ذلك ، فإنه لا يعبر عن التصوف تعبيراً دقيقاً .

على أن هؤلاء الذين ذكروا هذه التعريفات الأخلاقية للتصوف ، ذكروا ، هم أنفسهم ، تعاريف أخرى ، وذلك - على الأقل - يدل دلالة لا لبس فيها ، على أنهم : لم يروا كفاية أحدهم . حلاق في تحديد التصوف وتعريفه . والواقع أننا لو نظرنا إلى كثير من الشخص الذين اشتهروا بالسمو ، في الجانب الأخلاقي الكريم ، واتصفوا بزرع الصفات الأخلاقية ، واتخذوا الفضيلة مذهباً وشعاراً ، فإننا نجدهم أشد مثاليين في المحيط الأخلاقي ، وفي المجتمع .

ولكن ليس معنى ذلك أنهم ، لا يحسنون ، من الصوفية .

ولو نظرنا في البيئة اليونانية لوجدنا رغبة إلى الفضيلة ، وامتدحاً بها ، ومحاولاً نشرها بشتى الوسائل ، وبمختلف طرق ، سواء أكان ذلك بالدعوة الإقناعية ، أو بالمنطق الجدلي ، أو بالأسوة الكريمة ، ذلك هو سقراط ومع ذلك فإن سقراط هذا لم يكن صوفيًا بالمعنى الدقيق لكلمة : (صوفي) . وإذا انتقلنا إلى البيئة الإسلامية ، فإننا نجد الحسن البصري ، رضى الله عنه ، من أروع وأجمل الشخصيات الأخلاقية العالمية ، لقد كان مثلاً صادقاً للشعور الأخلاقي ، في طهره وصفاته . وكان ينشر الفضيلة بوعظه المؤثر ، ومنطقه القوي ، وسلوكه المثالي ، ومع ذلك فلم يكن الحسن البصري صوفيًا بالمعنى الدقيق لكلمة (صوفي) .

على أنه من الطبيعي : أن تكون الأخلاق الكريمة أساساً من أسس التصوف ، وأن تكون الأخلاق في أسمى صورة من صورها ، ثمرة للتصوف . ومن الطبيعي أيضاً ، أن تكون الأخلاق الكريمة شعار الصوفي ، فيما بين الأساس والثمرة ، فهي إذن ملازمة للتصوف وللصوفي ، ملازمة تامة لا تتخلى عنه ، ولا يتخلى عنها ، ولكن ليس معنى ذلك أنها هي التصوف .

٢- وهناك اتجاه أكثر شيوعاً من الاتجاه السابق : هو تعريف التصوف بـ « الزهد » .

وحينما يسمع كثير من الناس كلمة : « التصوف » ، يفهم منها معنى « الزهد » ولا يفهم من كلمة « صوفي » إلا الزاهد في الدنيا . وما من شك في أن الصوفي : لا يتعلق قلبه بالدنيا ، ولو كان عنده الآلاف والملايين ، بيد أن الزهد في الدنيا شيء ، والتصوف شيء آخر ، ولا يلزم عن كون الصوفي زاهداً ، أن يكون التصوف : هو « الزهد » .

٣- ويخلط كثير من الناس بين الصوفي والعابد ، فإذا ما رأوا أو سمعوا عن شخص كثير العبادة ، قالوا عنه إنه « صوفي » .

ولا ريب أن « الصوفي » كثير العبادة ، ولكنك قد تجد أشخاصاً كثيرين يقيمون الصلوات المفروضة ، ويكثر من النوافل ، ويدأومون على العبادة ، ولا يكون معنى ذلك أنهم من « الصوفية » .

ويخلط الناس بين الزاهد والعابد والصوفي ، حاول (ابن سينا) أن يفرق بينهم ، وبين أهداف كل منهم يقول في كتابه « الإشارات » :

- ١- المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها يخص باسم « الزاهد » .
- ٢- المواظب على فعل العبادات ، من القيام والصيام ونحوهما ، يخص

باسم « العابد » .

٣- المنصرف بفكره إلى قدس الجبروت ، مستديماً لشروق نور الحق في سره ، يخص باسم « العارف » .

و« العارف » عند « ابن سينا » ، هو « الصوفي » .

ويتحدث « ابن سينا » - كما يذكر غيره - أن الزاهد قد يكون عابداً ، والعابد قد يكون زاهداً ، فيمتزج الزهد والعبادة في شخص واحد ، ولا يكون بعبادته وزهده معاً : « صوفياً » .

ولكن « الصوفي » لا محالة ، زاهد عابد . على أن هناك تفرقة حاسمة ، بين زهد الصوفي وعبادته ، وبين زهد غير الصوفي وعبادته .

وهذه التفرقة : إنما هي في الهدف ، أكثر منها في الأسلوب والمنهج . ولقد تحدثت السيدة « رابعة العدوية » ، رضى الله عنها ، عن هذا بأسلوب مؤثر ، وتحدث غيرها ، والكل يتفق على أن زهد غير الصوفي ، إنما هدفه الاستمتاع في الآخرة ، فهو نوع من المعاملة « كأنه يشتري بمتاع الدنيا متاع الآخرة » .

أما الصوفي : فإنه يزهد في الدنيا ، لأنه ينتزه عن أن يشغله شيء عن الله . وعبادة غير الصوفي ، هدفها . دخوله الجنة . كأنه يعمل في الدنيا لأجرة يأخذها في الآخرة : هي الأجر والثواب « فثله : كمثل الأجير : يعمل طيلة النهار ليأخذ أجره في المساء .

أما عبادة الصوفي ، فإنها استدامة لصلته بالله تعالى ، إنه يعبد الله : (لأنه مستحق العبادة ، ولأنها نسبة شريفة إليه ، لا لرغبة أو رهبة) .

وتقول السيدة « رابعة » رضوان الله عليها ، ما معناه : « اللهم إن كنت أعبدك خوفاً من نارك فألقني فيها ، وإن كنت أعبدك طمعاً في جنتك فأحرمنيها ، وإن كنت أعبدك لوجهك الكريم . فلا تحرمني من رؤيته) . هذه المعاني الخاصة بأهداف الزهد والعبادة - من حيث كونها لوجه الله - إنها معان عادية عند الصوفية ، وكأنها بدوية في محيطهم وفي جوهم :

﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ . والتصوف إذن : ليس خلقاً فحسب ، ولا زهداً فقط ، ولا عبادة لا غير ، وهو وإن كان متضمناً للخلق الكريم ، والزهد الرفيع ، والعبادة المتجردة ، فإنه مع كل ذلك شيء آخر .

وكلمة أخيرة قبل أن نفرغ إلى تعريف التصوف : إن الذين يربطون بين التصوف من جانب ، والكرامات وخوارق العادات من جانب آخر كثيرون ، ولكن التصوف ليس كرامات ، ولا خوارق العادات ، إنه شيء يتجاوز الكرامات ، ويتجاوز خوارق العادات .

إن هذه الكرامات مسألة لا يأبه بها الصوفية كثيراً ، بل يعدونها من الأشياء اليسيرة ، التي تبعث السرور في قلب من يجريها الله على يديه ، ولكنه إذا فرح بها واكتفى ، تدل على أنه لم يبلغ بعد في التصوف قدماً ثابتة ، ولا درجات ممتازة .

٤ - ما هو إذن التعريف الصحيح للتصوف ؟

نذكر الآن بعض التعريفات التي تتجه الوجهة الصحيحة فيما يتعلق بالمعنى الحقيقي لهذا الموضوع .

١ - أبو سعيد الخراز المتوفى سنة ٢٦٨ هـ .

سئل عن الصوفي فقال :

« من صفى ربه قلبه ، فامتلاً قلبه نوراً ، ومن دخل في عين اللذة بذكر الله » :

٢ - « الجنيد البغدادي » المتوفى سنة ٢٩٧ هـ .

التصوف : هو : أن يميّتك الحق عنك ، ويحييك به .

٣ - « أبو بكر الكتاني » المتوفى سنة ٣٢٢ هـ .

التصوف : صفاء ومشاهدة .

٤ - « جعفر الخلدي » المتوفى سنة ٣٤٨ هـ .

التصوف : طرح النفس في العبودية ، والخروج من البشرية ، والنظر إلى الحق بالكلية .

وسئل « الشبلي » عن التصوف ، فقال :

بدؤه معرفة الله ، ونهايته توحيده

وإذا نظرنا إلى تعريف « الكتاني » ، فإننا نجد أن عبارته المختصرة قد جمعت بين جانبيين هما اللذان - فيما نرى - يكونان - في وحدة متكاملة - تعريف التصوف .

أحدهما : « وسيلة » .

والثاني : « غاية » .

أما الوسيلة : فهي « الصفاء » .

وأما الغاية : فهي « المشاهدة » .

والتصوف من هذا التعريف طريق ، وغاية .

وطريقه يتضمن نواحي كثيرة تشير إليها تسميته نفسها ، ولعل ذلك من الأسرار التي كانت السبب في هذه التسمية ، واتخاذها عنواناً على هذه الطائفة .

من الله عز

، وهذه

عسف أن

يدى الله

بسرائرهم

ن الأول

رسول الله

طمع في

ها القلب

الوسائل

وهذه الكلمة لها مدلول واسع . هي - تحرير الإنسان من الدنيا ، حتى ولو ملكها عريضة طويلة ، يتحرر من حده . من لا يحرر في الملذات ، من الجرى وراء المال ، من حب السلطان ، من حب الترف . من الصفات التي تتنافى مع الفضيلة .

وخاتمة المطاف في هذه الوسائل : - ترى في الصفاء ، فإذا ما حل الصفاء كان عند الإنسان استعداد كامن لمشاهدة : فيجود الله عليه بها ، إن شاء .

هذه المشاهدة هي أسمى درجات المعرفة . وهي الغاية النهائية التي يسعى وراءها ذوو الشعور المرهف ، والفطر اللائكية ، والشخصيات الربانية .
فالتصوف إذن معرفة - أسمى درجات المعرفة بعد النبوة - إنه مشاهدة وهو طريقة إلى المشاهدة .

وإذا أردنا أن نلجأ إلى الإمام « الغزالي » في تلخيص الطريق والغاية ، فإننا نجده يقول في كتابه الخالد : « إحياء علوم الدين » .
« الطريق تقديم المجاهدة ، ومحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، ومهما حصل ذلك كان الله المتولى لقلب عبده ، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم .

وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور في القلب وانشرح الصدر ، وانكشف له سر المنكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة ، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية » .
فإذا ما حصل ذلك كانت مشاهدة .

ومن القصص اللطيفة التي تصور الوسيلة إلى المشاهدة في سهولة ويسر
القصة التالية:

قال « ذو النون » :

رأيت امرأة بيعت سواحل الشام .

قلت لها :

من أين أقبلت رحمك الله ؟

قالت :

من عند أقوام تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، يدعون ربهم خوفاً وطمعاً .

قلت :

وأين تريدان !

قالت :

إلى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .

قلت :

صفيهم لي ، فأنشأت تقول :

قوم همومهم بالله قد علقت	فما لهم هم تسمو إلى أحد
فطلب القوم مولاهم وسيدهم	يا حسن مطلبهم للواحد الصمد
ما إن تنازعهم دنيا ولا شرف	من المطاعم والملذات والولد
ولا للبس ثياب فائق أنق	ولا لروح سرور حل في بلد
إلا مسارعة في إثر منزلة	قد قارب الخطوفها باعد الأبد
فهم رهائن غدران وأودية	وفي الشوامخ تلقاهم مع العدد
والمشاهدة التي هي الغاية (للصوفية) هي أيضاً تحقيق واقعي للتعبير ، الذي	

ننطق به في كل آونة حينما نقول :

(أشهد أن لا إله إلا الله)

فالشهادة هي غاية الصوفي ، وهو إنما يسعى جاهداً إليها بشتى الوسائل
ليحقق بالفعل مضمون ما يلفظ به قولاً ، أو ما يقوله حروفاً .

وما من شك في أن تعاريف التصوف الكثيرة التي نجدها مثورة هنا
وهناك ، والتي تكاد تبلغ الألف إنما تعبر في أغلب الأحيان عن زاوية من زوايا
التصوف ، تتصل بالوسيلة ، أو تتصل بالغاية ، فلا يمكن أن يقال عنها إذا ما
كانت كذلك ، إنها خطأ تام ، ولكن الخطأ إنما هو في أخذها ، على أنها تعبر
عن الحقيقة الكاملة . أما ما يعبر عن الحقيقة الكاملة ، فإنما هو تعريف
« الكتاني » : التصوف (صفاء ومشاهدة) .

الطريق الصوفي

المقامات والأحوال :

إن الصوفية لهم طريق روحي ، يسرون فيه !
وهذا الطريق يعتمد أساساً ومنهجاً وغاية على القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة .

وقد ذكرنا في غير هذا الفصل بعض كلمات لكبار الصوفية ، تؤكد وتوضح اعتمادهم على القرآن الكريم في سيرهم إلى الله تعالى .

وهذا الطريق قد جربه الصوفية ، فثبت ثماره عن طريق التجربة أيضاً ، وجوهر الطريق الصوفي هو ما سماه الصوفية : المقامات والأحوال .

والمقامات هي المنازل الروحية التي يمر بها السالك إلى الله ، فيقف فيها فترة من الزمن مجاهدًا في إطارها ، حتى يهيب الله سبحانه وتعالى له سلوك الطريق إلى المنزل الثاني ، لكي يتدرج في السمو الروحي من شريف إلى أشرف ، ومن سام إلى أسمى ، وذلك مثلاً كمتزل « التوبة » الذي يهيب إلى متزل « الورع » ، ومتزل « الورع » يهيب إلى متزل « الزهد » ، وهذا حتى يصل الإنسان إلى متزل المحبة ، وإلى متزل الرضى .

وهذه المنازل لا بد لها من جهاد وتركية ، ولذلك يقولون عنها : إنها مكتسبة .

إنها اجتهاد في الطاعة ، ومواصلة في التسامى في تحقيق العبودية لله سبحانه !

أما الأحوال فإنها النسمات الروحية التي تهب على السالك ، فتنتعش بها نفسه لحظات خاطفة ، ثم تمر تاركة عطراً ، تشوق الروح للعودة إلى تنسم أريجها ، وذلك مثل : الأنس بالله .

وسواء أكتابصدد المقامات أم بصدد الأحوال ، فإن الصوفية قد اختلفوا فيها بين مجمل لها ومفصل .

ولكن الملاحظ أنهم - في وصف المقامات والأحوال - لا يتعارضون . واختلفهم إذن ليس اختلاف تناقض وتعارض ، وإنما هو اختلاف بسيط وإيجاز .

ويقول الإمام « أبو نصر السراج الطوسي » عن المقامات .
« والمقامات مثل التوبة ، والورع ، والزهد ، والفقر ، والصبر والرضى ، والتوكل ، وغير ذلك » ^(١) .

ويقول عن الأحوال :
« وأما معنى الأحوال : فهو ما يحل بالقلوب ، أو تحل به القلوب من صفاء الأذكار !

وقد حكى عن « الجنيد » رحمه الله ، أنه قال : الحال نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم » ^(٢) .

ويقول الطوسي أيضاً :
« وليس (الحال) عن طريق المجاهدات والعبادات ، والرياضات - كالمقامات التي ذكرناها . وهي - أي الحال - مثل : المراقبة ، والقرب ، والمحبة ، والخوف ، والرجاء والشوق ، والأنس ، والطمأنينة ، والمشاهدة

(٢) اللع : ٦٦

(١) اللع : ٦٦

واليقين ، وغير ذلك » (٣) .

ويقول الإمام « القشيري » عن المقامات :

« والمقام : ما يتحقق به العبد بمنزلته - أى بتزوله فيه ، وبما اكتسب له - من الآداب مما يتوصل إليه بنوع تصرف ، ويتحقق به بضرب تطلب ومقاساة تكلف .

فمقام كل أحد : موضع إقامته عند ذلك ، وما هو مشتغل بالرياضة له . وشرطه : ألا يرتقى من مقام إلى مقام آخر : ما لم يستوف أحكام ذلك المقام ، فإن من لا قناعة له لا يصح له التوكل . ومن لا توكل له لا يصح له التسليم ، وكذلك من لا توبة له لا تصح له الإنابة ، ومن لا ورع له لا يصح له الزهد » (٤) .

ويقول عن الأحوال :

« والحال عند القوم : معنى يرد على القلب ، من غير تعمد منهم ولا اجتلاب واكتساب لهم ، من : طرب ، أو حزن ، أو بسط ، أو قبض ، أو شوق ، أو انزعاج ، أو هيبة ، أو احتياج .

فالأحوال : مواهب ، والمقامات : مكاسب !

والأحوال تأتى من عين الجود ، والمقامات تحصل ببذل المجهود . .

وصاحب المقام ممكن فى مقامه ، وصاحب الحال مترق عن حاله » (٥) .

(٣) نفس المصدر السابق .

(٤) الرسالة القشيرية ٢٣٤

(٥) الرسالة القشيرية ٢٣٦ .

حب الله ورسوله :

وهذا الطريق - الصوفى الذى نتحدث عنه - يستند إلى مقياس يزن به نفسه ، وهو : الاقتداء برسول الله ﷺ : ولا يتأتى الاقتداء به صلوات الله وسلامه عليه ، ما لم يملأ حب رسول الله ﷺ جميع أقطار النفس . ونبدأ إذن بالحديث عن حب رسول الله ﷺ :

يقول الله تعالى :

﴿ قل إن كان آباؤكم ، وأبناؤكم ، وإخوانكم ، وأزواجكم ، وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله ، وجهاد فى سبيله فتربصوا ، حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ (٦) .

وفى معنى الآية الكريمة يروى الإمام « البخارى » رضى الله عنه عن « عبد الله بن هشام » قال :

« كنا مع رسول الله ﷺ ، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال : والله يا رسول الله لأنت أحب إلى من كل شئ إلا من نفسى ! فقال رسول الله ﷺ :

« لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » .

فقال عمر : فأنت الآن أحب إلى من نفسى !

فقال رسول الله ﷺ : « الآن يا عمر » .

وقول الرسول ﷺ : « الآن يا عمر » أى : الآن وقد صار الرسول ﷺ

(٦) التوبة : ٢٤ .

أحب إليك من نفسك ، فقد استقامت أمور الإيمان عندك ، وصرت إلى ما أحب الله ورسوله .

وحجة رسول الله ﷺ تتضمن كشرط أساسى جوهرى اتخاذه ﷺ قدوة فى السلوك والعمل والدرجة الجوهرية فى القدوة به ﷺ إنما هى متابعتة فى إسلام وجهه لله سبحانه وتعالى .

لقد باع رسول الله ﷺ نفسه وماله لله سبحانه ، وكان أول البائعين ، وكان أمثل البائعين ، وحقق بذلك وحقق أصحابه ومن اتبع هديه متأسين به قول الله تعالى :

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله ، فيقتلون ، ويقتلون ، وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم ﴾ (٧)

لقد اشترى الله فى عقد الإيمان النفس والمال ، بثمن هو الجنة ، فإذا بخل المؤمن بنفسه فى سبيل الله ، فقد أخل بعقد الإيمان .

وإذا بخل بماله فى سبيل الله ، فقد أخل بعقد الإيمان .

وحب رسول الله ﷺ - إذن - إنما هو إثارة ما يحب ، واتباع هديه ، والعمل بسنته فى الإيجاب ، وإيثارة كل ذلك على الآباء والأبناء وغيرهم ، مما يحبه الإنسان من أشخاص أو من أشياء .

وفى هذا يقول رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام « البخارى » رضى الله عنه :

« الذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم ، حتى أكون أحب إليه من والده

(٧) التوبة ١١١ .

وولده والناس أجمعين » .

فحب رسول الله ﷺ مرجعه إلى صفات كريمة سامية عليها ، تمثلت فيه طيلة حياته .

والآية الكريمة ، والأحاديث الشريفة التى رويناهما ، تدل كلها دلالة صريحة على أنه إذا تعارضت أمور الدين مع المصلحة الشخصية أو مع أمور الدنيا ، فإنه يجب على المؤمن أن يؤثر أمور الدين على غيرها .

يقول الإمام « الرازى » :

« إذا وقع التعارض بين مصلحة واحدة من مصالح الدين ، وبين جميع مهمات الدنيا . وجب على المسلم ترجيح الدين على الدنيا » .

أما بعد :

فيقول صاحب الكشف عن الآية الكريمة التى صدرنا بها هذا الحديث ما معناه :

« وهذه آية شديدة لا ترى أشد منها ، كأنها تنعى على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين ، واضطراب حبل اليقين ، فلي نصف أروع الناس وأتقاهم من نفسه ، هل يجد عنده من التصلب فى ذات الله ، والثبات على دين الله ما يجعله يؤثر دينه على الآباء والأبناء ، والإخوان ، والعشائر ، والمال ، والمساكن ، وجميع حظوظ الدنيا ويتجرد منها لأجله ؟ أم أن الشيطان يغويه من أجل حظ من حظوظ الدنيا . فلا يبالى كأنما وقع على أنفه ذباب فطيره ؟

ثم أما بعد :

فإن الحب الصادق له ﷺ يتمثل حقيقة فى المحاربة الصادقة ، لالتزام صفاته ﷺ فى النفس والعمل على سيادتها فى المجتمع .

وهؤلاء لا نصيب لهم في الاقتداء برسول الله ﷺ حيث لم يتوافر فيهم شرط رجاء الله سبحانه.

والشرط الثاني : أن يرجو الإنسان اليوم الآخر.

ورجاء اليوم الآخر هو رجاء النجاة فيه.

ورجاؤه إذن إنما هو بالعمل للنجاة ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى

الله بقلب سليم ﴾.

ومن لا يرجو اليوم الآخر فليس له في الاقتداء برسول الله ﷺ من

نصيب .

أما الشرط الثالث الذي يجب أن يتوافر في الإنسان حتى يتأق له الاقتداء

برسول الله ﷺ : فهو أن يذكر الإنسان الله كثيراً .

وقد حدد الله الذكر بالكثرة ونص عليها سبحانه ، والذكر الكثير من سمات

المتدين حقاً .

والتدين والذكر الكثير من سمات أصحاب العقول الراجعة الذين يذكر الله

سبحانه أن من صفاتهم التفكير للعظة والاعتبار في خلق السموات والأرض .

ومن صفاتهم الذكر في جميع حالاتهم التي هم عليها ، وذلك كله على

الأسوة الحسنة :

وحب رسول الله ﷺ يستلزم لا محالة التأسي به ﷺ ، يقول الله تعالى :

﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر

وذكر الله كثيراً ﴾ (٨)

إن الأسوة برسول الله ﷺ خير ما يحقق النجاة في الدنيا والآخرة .

فرسول الله عليه الصلاة والسلام هو المثل الكامل الواقعي ، التطبيق ،

للدين الإسلامي !

إنه الصورة الحية للقرآن الكريم ، وفي ميسور كل إنسان الاقتداء به ، إذا

توافرت فيه ثلاث شروط ، بينها الآية الكريمة :

أولاً : أن يرجو الله ، ورجاء الله يبينه الله سبحانه بقوله :

﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً . ولا يشرك بعبادة ربه

أحدًا ﴾ (٩)

فتحقق الرجاء في الله أن يخلص الإنسان وجهه لله في العبادة ، وأن يكون

من ذوي الأعمال الصالحة ، وإلا كان رجاؤه في الله شكلاً ، لا حقيقة له .

وظاهراً ، لا جوهر له .

أما الذين لا يرجون لقاء الله فيصفهم الله تعالى بقوله :

﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، والذين

هم عن آياتنا غافلون ، أولئك مأواهم النار ، بما كانوا يكسبون ﴾ (١٠)

(٨) يونس : ٧ - ٨ .

(٩) الأحزاب : ٢١ .

(١٠) الكهف : ١١٠ .

سنادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفر
عما سيئاتنا ، وتوفنا مع الأبرار ، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ، ولا تحزننا يوم
القيامة إنك لا تخلف الميعاد (١١) .

ويعقب الله على ذلك بقوله :

﴿ فاستجاب لهم ربهم ﴾ !

وبعد :

فإنه إذا توفرت في الإنسان هذه الشروط ، فقد أصبح جديراً بالتأسي
برسول الله ﷺ ، وأصبح بذلك من الذين يحبونه ، والمربى مع من أحب !

التوبة :

وإذا أراد الإنسان أن يتأسي برسول الله ﷺ ، فيحاول أن يقترب ما
استطاع من :

﴿ إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له ﴾ .

إذا أراد الإنسان أن يدخل في معنى « الإسلام » كيف يبدأ ؟

ما هي الخطوة الأولى ؟

ما الطريق ؟ ثم إلى أين ؟

ما هي الثمرة المرجوة ، وما هو النفع الذي يعود عليه من ذلك ؟

إنه يبدأ الدخول في النظام القرآني !

والدخول في النظام القرآني معناه : العزم المصمم على التخلي عما ليس

بقرآني :

(١١) آل عمران : ١٩٠ - ١٩٤

وهذا ما يسمى في العرف الإسلامي أو في النظام القرآني :

« التوبة » !

ولقد أمر الله في القرآن بالتوبة ، وحث عليها ، وحبب فيها ، وأوجبها في

بعض الأحيان .

والواقع أنها اللبنة الأولى إلى الله ، وهي اللبنة الأولى في طريق إسلام الوجه

لله ، يقول أبو يعقوب يوسف بن حمدان السوسي ، رحمه الله : أول مقام من

مقامات المتقطعين إلى الله تعالى : التوبة . وسئل السوسي عن التوبة ، فقال :

التوبة الرجوع من كل شيء ذمه العلم ، إلى ما مدحه العلم .

ولقد فتح الله باب التوبة على مصراعيه ، تفضلاً منه ورحمة ، يقول

سبحانه في حديث قدسي ، وفي أسلوب كله رافة :

(يا عبادي إنك تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً ،

فاستغفروني أغفر لكم) .

ويقول رسول الله ﷺ :

« كل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون » .

وما من شك في أن توبة العوام - كما يقول « ذو النون » رضي الله عنه -

هي من الذنوب ، وأما توبة الخواص فإنها من الغفلة ، وتصل التوبة في سموها

فتكون مما سوى الله تعالى . .

ورسول الله ﷺ يخبر أن الله سبحانه وتعالى « يفرح » بتوبة عبده المؤمن ،

ويعرفنا رسول الله ﷺ أن ربنا ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا عند ثلث الليل

الأخير فينادي :

(ألا هل من مستغفر فأغفر له ، ألا هل من تائب فأتوب عليه) .

ويقول الله سبحانه وتعالى في صورة من تجلى الرحمة وسعة من شمول الرأفة بالعباد :

﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم ﴾ .

وبلى هذه الآية الكريمة ما يبين الطريق إلى المغفرة والرحمة ، يقول سبحانه وتعالى :

﴿ وأنبيوا إلى ربكم ، وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ﴾ .

أى : ارجعوا إلى الله بالتوبة وإسلام الوجه له .

ثم بين لهم الطريق الصحيح الذى يلى التوبة إذا صدقت بقوله تعالى : ﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ، من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة ، وأنتم لا تشعرون ﴾ .

والله سبحانه وتعالى فى هذا يوجه الذين صدقوا فى توبتهم إلى أن يتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم .

وإذا صدقت التوبة فإن هذا الصدق يستتبع - كلازم من لوازمه - أن يستقيم الإنسان على الطريق .

والله سبحانه يسد على الذين يبين لهم الطريق باب المعاذير فيما بعد ، مهدداً تهديداً يقصد به حث الإنسان على أن يسارع بالتوبة الصادقة ، فهو تهديد من رحمن رحيم !

يقول سبحانه :

﴿ أن تقول نفس : يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن

الساخرين . أو تقول : لو أن الله هدانى لكنت من المتقين ، أو تقول - حين ترى العذاب - : لو أن لى كرة فأكون من المحسنين ﴾ .

فإذا ما قال الإنسان ذلك أو تعلل بأمثاله ، فإن الرد يأتيه من رب العزة : ﴿ بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها ، واستكبرت ، وكنت من الكافرين ﴾ .

ثم يبين الله سبحانه وتعالى حال الكافر والمؤمن يوم القيامة فيقول : ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ، أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين . وينجى الله الذين اتقوا بمغازتهم ، لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون ﴾ .

والآن : قد وضع الطريق ! فهو :

أولاً : التوبة .

وثانياً : اتباع أحسن ما أنزل الله .

ولقد كان أسلافنا رضوان الله عليهم - متابعين للأوضاع الإسلامية - يبدعون أعمالهم الهامة بالتوبة الخالصة النصوح ، لقد كانوا يبدعون شهر رمضان بالتوبة ، ويبدعون الحج بالتوبة .

والرحلة المباركة ، رحلة « الإسراء والمعراج » بدأت بشق الصدر ، وشق الصدر بالنسبة لنا ، إنما هو التوبة الخالصة النصوح ؛ لأن التوبة تطهر وطهر . وإذا تاب الإنسان فإن ذلك يكون بمثابة إثبات ملكين يشقان عن صدر الإنسان ، ويفسلانه بالثلج والبرد ، أو بماء زمزم ، أى : يطهرانه .

إن التوبة تطهر الإنسان من المعصية ، إنها نجب ما قبلها ، أى تريله وتمحوه .

والتوبة التي من هذا النمط لها شروط ، لابد من توافرها ، حتى نهي
الإنسان لشق الطريق إلى الله تهيئة موفقة !

يقول الإمام « النووي » في رياض الصالحين :

« قال العلماء : التوبة واجبة من كل ذنب ، فإن كانت المعصية بين العبد
وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي فلها ثلاثة شروط :

أحدها : أن يقلع عن المعصية .

والثاني : أن يندم على فعلها .

والثالث : أن يعزم ألا يعود إليها أبداً .

فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته . .

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة :

هذه الثلاثة ، وأن يبرأ من حق صاحبها ، فإن كانت مالا أو نحوه رده
إليه ، وإن كانت حد قذف ونحوه ، مكنه منه ، أو طلب عفو ، وإن كانت
غيبية استحلها منها .

ويجب أن يتوب من جميع الذنوب ، فإن تاب من بعضها صحت توبته
عند أهل الحق من ذلك الذنب ، وبقي عليه الباقي .

وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة ، وإجماع الأمة على وجوب التوبة ،
هذا فيما يتعلق بالتوبة .

وبقي الحديث فيما يتعلق باتباع أحسن ما أنزل الله !

وأتباع أحسن ما أنزل الله يبدأ بما كان يبدأ به رسول الله ﷺ مع الداخلين
في الإسلام ، أعني مواد البيعة .

ومن المبايعات التي بايع عليها رسول الله ﷺ أصحابه ما كان قبل فتح

مكة ، بل قبل الهجرة إلى المدينة ، كما في بيعة العقبة ، فيها قال الرسول ﷺ
لمن حضر من الأنصار - فيما ذكره « ابن إسحاق » - :

« بايعوني على السمع والطاعة ، في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر
واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن تقولوا في الله لا تخافوا في
الله لومة لائم ، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم ، مما تمنعون منه
أنفسكم ، وأزواجكم ، وأبناءكم ، ولكم الجنة ... » .

ومن هذه المبايعات ما كان بعد هذه البيعة .

روى « البخاري » بسنده عن « عبادة بن الصامت » أن رسول الله ﷺ

قال - وحوله عصاية من أصحابه - :

بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنا ، ولا تقتلوا
أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوا في
معروف فمن وفي منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في
الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله ؛ إن
شاء عفا عنه ؛ وإن شاء عاقبه ، فبايعناه على ذلك . .

وقد تحدث القرآن الكريم عن بيعة النساء يقول تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يَشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً ، وَلَا
يَسْرِقْنَ ، وَلَا يَزْنِينَ ، وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ ، وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ
وَأَرْجُلِهِنَّ ، وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ ، فَبَايِعْنَهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ ، إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴾ .

وكانت هذه البيعة عقب فتح مكة ، بعد بيعة الرجال ، ويتحدث « ابن

جرير » عن هذه البيعة فيقول :

« ثم اجتمع الناس بمكة لبيعة الرسول ﷺ على الإسلام ، فجلس لهم على الصفا ، وعمر بن الخطاب أسفل من مجلسه ، فأخذ على الناس السمع والطاعة لله ولرسوله ، فيما استطاعوا ، فلما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء قائلاً : « بايعتني على ألا تشركن بالله شيئاً ، ولا تسرقن ، ولا تزنين ولا تقتلن أولادكن ، ولا تأتين بهتاناً تفترينه بين أيديكن وأرجلكن ولا تعصينني في معروف » .

ثم قال ﷺ « لعمر » :

« بايعهن واستغفر لمن الله إن الله غفور رحيم » .

وروى عن « جرير بن عبد الله » رضي الله عنه ، قال :

بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم .

الورع :

وإذا صدقت التوبة ، استلزمت لا محالة : الورع .

والورع هو أن يترك الإنسان كل ما فيه شبهة .

ولا نتحدث عن ترك الحرام : وذلك أن التوبة الصادقة إنما هي - أولاً

وبالذات - توبة عن الحرام : كل الحرام .

وتوجيه رسول الله ﷺ - متناسقاً في ذلك مع القرآن - كثير مستفاد

يتعلق بالورع ، من ذلك ما أخرجه الشيخان عن « النعمان بن بشير »

سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« إن الحلال بين ، وإن الحرام بين ، وبينهما مشبهات ، لا يعلم

من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى ، يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » (١٢) .

ومن ذلك ما رواه « الحسن بن علي » رضي الله عنها قال :

« حفظت من رسول الله ﷺ : دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » .

رواه « الترمذي » وقال حديث حسن صحيح ، ويقول الإمام « النووي »

معناه : اترك ما تشك فيه ، وخذ ما لا تشك فيه .

وعن « عطية بن عروة السعدي » الصحابي رضي الله عنه ، قال : قال

رسول الله ﷺ :

« لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به ، حذراً مما به

بأس » (١٣) .

والورع يكون في الحديث ، والقلب : والعمل .

أما في الحديث : فإنه التورع عن اللغو بجميع ضروبه ، إنه ترك كلمات

الفضول ، وترك كل حديث ليس من شأنه إلا قطع الوقت دون فائدة أو ثمرة .

والورع في الحديث ليس سهلاً ، ويقول فيه الإمام « القشيري » :

الورع في المنطق أشد منه ، في الذهب والفضة .

توى لا يتزل إلى

مستوى الآثام والذنوب .

والورع في القلب ، هو عدم انشغاله بالتوافه من الخطرات ، ويتسامى الورع في القلب حتى يصل إلى ما يقوله الإمام « الشبلي » وهو من كبار أئمة التصوف :

« الورع : أن تتورع عن كل ما سوى الله » ..

أما الورع في الأفعال ، فإنه يتضمن التحري فيما يتعلق بالمأكل ، والمشرب ، والملبس ، حتى يكون كل ذلك من حلال طيب .
ولقد كان أسلافنا رضوان الله عليهم يتحرون في ذلك ما استطاعوا ، وذلك أن النور في القلب ، والصفاء في العبادة ، والتيسير فيما يأتي الإنسان وفيما يدع ، كل ذلك له علاقة قوية بطيب المطعم ، والمشرب ، والملبس .
والجو الإسلامي كله يحث على ذلك ، ومن الأحاديث النبوية الشريفة التي تجمع بين توجيه القرآن الكريم ، وتوجيه الرسول ﷺ متناسقاً مع القرآن الكريم ، ما يلي :

عن ابن عباس قال : تليت هذه الآية عند النبي ﷺ :

« يأياها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً » .

فقام « سعد بن أبي وقاص » ، فقال : يا رسول الله : ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة .

فقال : يا سعد أطب مطعمك ، تكن مستجاب الدعوة ، والذي نفس محمد بيده ، إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ، ما يتقبل منه أربعين يوماً ، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا ، قالنار أولى به .

وعن أبي « هريرة » رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به

الرسول فقال :

« يأياها الرسل كلوا من الطيبات ، واعملوا صالحاً ، إني بما تعملون عليم » .

وقال :

« يأياها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم » ، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمد يده إلى السماء ، يارب ، يارب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام ، فأني يستجاب لذلك ؟ » .
وتروى لأئمتنا في هذا الجانب قصص منها ما يلي :

يقول « أبو علي الدقاق » :

كان « الحارث المحاسبي » إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة ، ضرب على رأسه إصبعه عرق فيعلم أنه غير حلال .

وقال : إن « بشراً الحافى » دعى إلى دعوة ، فوضع بين يديه طعام ، فجهد أن يمد يده إليه ، فلم تمتد ، ففعل ذلك ثلاث مرات ، فقال رجل يعرف ذلك منه :

إن يده لا تمتد إلى طعام فيه شبهة ، ما كان أغنى صاحب هذه الدعوة أن يدعو هذا الشيخ ؟ ! .

كلمات لأئمتنا في الورع :

يقول « القشيري » :

« أما الورع فإنه : ترك الشبهات » .

ويقول « إبراهيم بن أدهم » .

«الورع ترك كل شبهة ، وترك مالا يعينك» .

وقال « أبو سليمان الداراني » :

«الورع : أول الزهد ، كما أن القناعة طرف من الرضا» .

ويقول « يحيى بن معاذ » :

«الورع على وجهين : ورع في الظاهر ، وهو : ألا يتحرك إلا لله تعالى .

وورع في الباطن ، وهو : ألا يدخل قلبك سوى الله تعالى» .

ودخل « الحسن البصري » مكة ، فرأى غلاماً من أولاد « علي بن أبي طالب » رضى الله عنه ، قد أسند ظهره إلى الكعبة يعظ الناس ، فوثب عليه « الحسن » وقال له :

ما ملاك الدين ؟ فقال : الورع ، فقال له : فما آفة الدين ؟ فقال : الطمع .

فتعجب « الحسن » منه .

الزهد :

يقول الإمام أبو نصر سراج الطوسي :

« والورع يقتضى الزهد » .

ويقول : « والزهد مقام شريف : وهو أساس الأحوال الرضية والمراتب السنية ، وهو أول قدم القاصدين إلى الله عز وجل ، والمتقطعين إلى الله ، والراضين عن الله ، والمتوكلين على الله تعالى ، فمن لم يحكم أساسه في الزهد ، لم يصح له شيء مما بعده ، لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، والزهد في الدنيا

رأس كل خير وطاعة » (١٤) .

ومسألة الزهد من المسائل التي كثر الجدل في تحقيق مفهومها ، وكثر الجدل فيها قبولاً ورفضاً .

وجوهر المناقشات يتركز حول امتلاك المال ، والثراء العريض : أهو مقبول ؟ أهو مكروه ؟ ما هو موقف الدين من ذلك ؟

وإذا كان الثراء العريض لا يتفق مع الأجواء الدينية ، فكيف ملك بعض كبار الصالحين الثروات الكبيرة ؟

كيف ملك الأنبياء عليهم السلام ، الأموال والضباع ، مثل : « داود » ، « سليمان » و « إبراهيم » و « أيوب » ونظائرهم ، و « يوسف » ، عليه السلام ، على خزائن الأرض ، ومحمد ﷺ ، والصالحين من بعده ؟

حول هذه الأسئلة يدور جوهر الحديث في الزهد .

وقد سبق أن كتبنا عدة مرات في هذا الموضوع في عدة من كتبنا ، ولا نريد هنا أن نكرر ما سبق أن كتبناه ، وإنما نجب - بتوفيق الله - أن نورد نصاً - وإن كان مطولاً - من النصوص النفيسة في هذا الموضوع ، وهو نص قد وفق الله سبحانه « أبا سعيد الخراز » لكتابته في صورة دقيقة محكمة ، ونراه فيصلاً في هذا الموضوع .

يقول « أبو سعيد » في كتاب « الصديق » :

« اعلم أن الأنبياء ، عليهم السلام ، والعلماء ، والصالحين من بعدهم ، رضى الله عنهم : أمتاء الله تعالى ، في أرضه على سره ، وعلى أمره ، ونهيه ،

(١٤) اللع : ٧١ - ٧٢ .

وعلمه ، وموضع وديعته ، والنصحاء له في خلقه وبريته وهم الذي عقلوا عن الله تعالى ، أمره ونهيه ، وفهموا لماذا خلقهم ، وما أراد منهم ، وإلام نديهم ؟ فوافقوه في محبته ، ونزلوا في الأمور عند مشيئته ، ثم وقفوا عند ذلك مواقف العبيد الألباء ، القابلين عن الله ، والحافظين لوصيته ، وأصغوا إليه بأذان فهمهم الواعية ، وقلوبهم الطاهرة ، ولم يتخلفوا عن نديته ، فسمعوا الله - عز وجل - يقول :

﴿ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ (١٥) .
ثم قال :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (١٦) .

وقال تعالى :

﴿ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ (١٧) .

وقال تعالى :

﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ (١٨) .

فأيقن القوم : أنهم وأنفسهم لله تعالى ، وكذلك ما حولهم ، وملوكهم ، إنما هو له ، غير أنهم في دار اختبار وبلوى ، وخلقوا للاختبار والبلوى في هذه الدار .

وهكذا يروى عن « ابن الخطاب » رضي الله عنه ، حين سمع :

(١٥) الحديد : ٧

(١٧) البقرة : ٢٨٤

(١٦) يونس : ١٤

(١٨) الاعراف : ٥٤

﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ (١٩)

قال : ياليتها تمت ! - يعني « عمر » قبل قراءة :

﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه ﴾ .

ومعنى قول « عمر رضي الله عنه : « ياليتها تمت » يعني : لم يخلق حين سمع الله تعالى يقول : ﴿ لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ .

وذلك من معرفة عمر - رضي الله عنه - بواجب حق الله ، وقدر أمره ونهيه ، وعجز العباد عن القيام به ، وقيام الحجة لله تعالى عليهم عند تقصيرهم وماتوا عدهم به إذا ضيعوا .

ويروى عن « الحسن » رضي الله عنه أنه قال :

« إن الله تعالى إنما أهبط آدم عليه السلام ، إلى الدنيا عقوبة ، وجعلها سجناً له حين أخرجه من جواره ، وصيره إلى دار التعب والاختبار .
فمن ملك - من أهل العمل عن الله تعالى ، وأهل الصدق - شيئاً من الدنيا ، فهو معتقد : أن الشيء لله جل وعز ، لا إله إلا هو ، من طريق حق ما خوله الله تعالى ، وهو مبلى به حتى يقوم بالحق فيه ، لأن النعمة بلاء ، حتى يقوم العبد بالشكر فيها ، ويستعين بها على طاعة الله تعالى :
وكذلك البلوى والضراء ، هو اختبار وبلاء ، حتى يصبر عليه ، ويقوم بحق

الله تعالى فيه !

وكذلك قال بعض الحكماء : « العلم كله بلاء حتى يعمل به » قال الله عز

وجل :

(١٩) أول الدهر .

﴿الذى خاتمت الموت والحياة ليلوكم﴾ (٢٠).

وقال :

﴿ولنبلوكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ، ونبلو أخباركم﴾ (٢١).

فالأنبياء صلوات الله عليهم ، والصالحون من بعدهم ، الذين شعرهم الله : بأن أبلأهم في الدنيا بالسعة ، وخوهم : كانوا إلى الله - جل وعز - ساكنين ، لا إلى شيء ، وكانوا خزانة الله - جل ذكره - في الشيء الذى ملكهم ، ينفذونه في حقوق الله تعالى ، غير مقصرين ، ولا مفرطين ، ولا متوانين ، ولا متأولين على الله التأويل ، وكانوا غير متلذذين بما ملكوا ، ولا مشغولوا بالقلوب بما ملكوا ، ولا مستأثرين به دون عباد الله تعالى .

ومن ذلك ما روى عن «سليمان بن داود» - عليها السلام - في ملكه ، وما أباحه الله تعالى - من الكرامة ، حين يقول تعالى :

﴿هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب﴾ (٢٢).

قال أهل التفسير : « لا حساب عليك في الآخرة ، وإنما كان عطاء هيناً إكراماً من الله - عز وجل - له .

فذكر العلماء : أن «سليمان» عليه السلام «كان يطعم الأضياف الحواري ، - وهو لباب البر ، وخالص الدقيق - النقى ، ويطعم عياله الخشكار - وهو الدقيق الخشن . . ، ويأكل هو الشعير» .

(٢٠) الملك : ٢

(٢١) القتال : ٣١

(٢٢) ص : ٣٩ .

وكذلك روى العلماء : أن «إبراهيم الخليل» - صلوات الله وسلامه

عليه :

«كان لا يأكل إلا مع الضيف ، وربما لا يأتيه الضيف فيطويها ، وربما كان بمشى الفرسخ ، أو أقل ، أو أكثر ، تلقياً للضيف» .

قال : «وكان «أيوب» النبي - ﷺ - لا يسمع أحداً يحلف بالله تعالى إلا رجع إلى منزله ، فكفر عنه !

وروى العلماء . أن «يوسف» عليه السلام ، كان على خزائن الأرض ، فكان لا يشيع ، فقبل له في ذلك ، فقال :

«أخاف أن أشيع ، فأنسى الجياع» .

ولقد روى : أن «سليمان» - عليه السلام «بينما هو ذات يوم ، والريح تحمله ، والطير تظله ، والجن والإنس معه ، وعليه قميص جديد ، فلصق بيده ، فوجد اللذة فسكنت الريح ، ووضعته على الأرض» .

فقال لها : مالك ؟ قالت : إنما أمرنا أن نطيعك ما أطعت الله .

ففكر في نفسه : من أين أتى ؟ فذكر ، فراجع ، فحملته الريح .

ولقد روى : «أن الريح كانت تضعه في اليوم مرات ، من هذا وأشباهه» ! فالقوم : كانوا خارجين عن ملكهم في ملكهم ، ناعمين بذكر الله وعبادته ، غير ساكنين إلى ما ملكوا ، لا يستوحشون من فقدته إن فقدوه ، ولا يفرحون بالشيء ، ولا يحتاجون إلى العلاج والمجاهدة في إخراجه .

قال الله - تعالى - للنبي ﷺ :

﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ (٢٣) .

(٢٣) الأنعام : ٩٠

وهذا النبي - ﷺ : « بينما جبريل - عليه السلام عنده ، إذ تغير جبريل ، إذا ملك قد نزل من السماء ، لم يتزل قط ، فقال جبريل عليه السلام : خشيت أنه نزل في أمر ، فجاء إلى النبي ﷺ بالسلام من عند الله عز وجل ، وقال له : هذه مفاتيح خزائن الأرض ، تسير معك ذهباً وفضة ، مع البقاء فيها إلى يوم القيامة ، ولا تنقصك مما لك عند الله شيئاً !

فلم يختر النبي ﷺ ذلك وقال :

« أجوع مرة ، وأشبع مرة !

وعد ذلك من الله عز وجل - بلوى - واختباراً ، ولم يره من الله تعالى اختياراً ، ولو كان من الله تعالى - اختياراً لقبله ، ولكنه علم أن محبة الله تعالى في الترك للدنيا ، والإعراض عن زينتها ، وبهجتها .

ولذلك أدبه الله تعالى - حين قال تعالى :

﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ، زهرة الحياة الدنيا ، لفتنهم فيه ﴾ (٢٤) .

ويروى عنه ﷺ : أنه لبس حلة فيها علم ، فطرحها ، وقال : كادت تلهيي أعلامها - أو قال : ألهتني أعلامها ، خذوها واثبتوني بها . وكذلك روى : « أنه صنع خاتم ذهب ليختم به الكتب ، إلى تعالى بإنذاره ، فلبسه ، ثم طرحه من يده ، وقال لأصحابه : وإليكم نظرة ! » .

وكذلك روى : « أنه ﷺ ، غير شراك نعله ، فجعل مكا فقال : ردوا الشراك الأول !

وكذلك كل قلب طاهر صاف ، قد أشرف على الآخرة ، وعرف قيام الله تعالى عليه : يفزع من خفايا الكون إلى الدنيا ، والتخلي بشيء منها . ومثل هذا في الأخبار كثير ، والعامل الفطن تكفيه الإشارة إليه بالشيء : وهؤلاء أصحاب محمد - ﷺ - حين حثهم على الصدقة . جاء « أبو بكر » بماله كله ؛ لأنه كان أقوى القوم ، فقال له النبي ﷺ : ما خلفت لعيالك ؟

قال : الله ورسوله ، ولي عند الله مزيد !

أفلا ترى « أبا بكر » - رضى الله عنه - إنما كان سكونه إلى الله تعالى ، لا إلى الشيء ، ولم يكن لشيء عنده قدر ، وكان ما عند الله عنده أسراً ؟ ! فحين رأى موضع الحق ، لم يخلف منه شيئاً . وقال : خلفت الله ورسوله ! ثم جاء « عمر » - رضى الله عنه - بنصف ماله ، فقال النبي - ﷺ - ما خلفت لعيالك ؟

قال : نصف مالي ، ولله عندي مزيد !

نقلنا أعطى نصف ماله ، ويقول : ولله عندي مزيد !
له ، بجميع ما يحتاج

!
ين مما ملوكا وهو في

أفلا ترى أنهم في حياتهم لم يرضوا بالشئ عن الله عز وجل ؟ !
وكذلك لم يورثوه ، وخلفوه الله - عز وجل - كما كان في أيديهم الله تعالى ،
لم يحذروا فيه ، ولم يخولوه من بعدهم أحداً !

وإن هذا لبلاغ لمن عقل عن الله ، وأنصف من نفسه ..
وهؤلاء : أئمة الهدى بعد رسول الله - ﷺ - « أبو بكر » رضى الله عنه -
حين ملك الأمر ، وجاءته الدنيا راغمة من حلها ، لم يرفع بها رأساً ، ولم
يتصنع ، وكان عليه كساء يخلله - أى يخييط ما به من خلل وشق - وكان يدعى
ذا الخلالين !

وهذا : « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه - حين جاءته الدنيا راغمة من
حلها ، وكان طعامه الخبز والزيت ، وفي ثوبه بضع عشرة رقعة ، بعضها من
أدم - وقد قتحت عليه كنوز (كسرى) و (قيصر) !
وهذا : « عثمان » - رضى الله عنه - كأنه واحد من عبيده في اللباس
والزى !

ولقد روى عنه : أنه رأى خارجاً من بستان له ، وعلى عنقه حزمة من
حطب ، فقبل له في ذلك ، فقال :
أردت أن أنظر نفسى ، هل تأبى !

أفلا ترى أنه كان غير غافل عن نفسه ، وتعاهدها ورياضتها ؟
وهذا : « على بن أبى طالب » - رضى الله عنه - في الخلافة ، قد اشترى
إزاراً بأربعة دراهم ، واشترى قميصاً بخمسة دراهم ، فكان في كفه طول ،
فتقدم إلى خراز - أى خياط - فأخذ الشفرة فقطع الكم مع أطراف أصابعه ،
وهو يفرق الدنيا بمنة ويسرة !

وهذا : « الزبير » - رضى الله عنه - يخف - حين مات - من الدين مائتى
ألف ، أو أكثر ، كل ذلك من الجود والسخاء والبذل !
وهذا : « طلحة بن عبيد الله » - رضى الله عنه - يعطى حلى أهله لمن
سأله .

فهذا يدل على أن القوم كانوا ، كما قال الله - عز وجل - حين أمرهم
فقال :

﴿ أنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ (٢٥) .
ولا يستحى عبد من عبيد الله من أهل زماننا هذا ، عندما ملك من
الشبهات التى علم الله تعالى : كيف هى ؟ ومن أين هى ؟ وكيف قدرها فى قلبه ؟
وإيثاره لها ، وسكونه إليها دون الله عز وجل ؟ ومالا يحصى من عيبه فى قلبه فى
ذلك واشتغاله بذلك ؟ (٢٦) .

حتى إن أحدهم ليزعم : أنه يملك كما ملك من مضى ، ويحتج بهم فى اتباع
هواه ، مع إقامته على خلاف سنة القوم .
بل الاعتراف لله تعالى بالتقصير من العبد الغافل : أقرب إلى النجاة ،
وسؤاله الله - عز وجل - أن يبلغه ما بلغ القوم ؛ وبالله التوفيق .

التوكل :

الإسلام أن يسلم لله قلبك . إنه التوحيد .
وهو ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ .

(٢٥) الحديد : ٧

(٢٦) كتاب الصدق ٣٥ - ٤٥ .

وهو : إسلام الوجه لله .

وذلك يقتضى التوكل على الله ، كجزء لا يتجزأ عن الإسلام .
ويتلون التوكل بحسب درجاته ، ويأخذ اسماً تبعاً لدرجته ، فيكون :
« توكل » ويكون « تسليماً » ، ويكون « تفويضاً » .

والتوكل بداية هذا المقام الروحي ، والتسليم واسطة ، والتفويض نهاية ، إن
كان للثقة في الله نهاية .

ومع ذلك فإن كلمة « التوكل » تطلق على كل درجاته ، ونستعمل في كل
أنواعه ، وعلى هذا الوضع يأمر سبحانه وتعالى به ، جاعلاً منه صفة لا تنفك
عن الإيمان قائلاً :

﴿ وعلى الله فتوكلوا ، إن كنتم مؤمنين ﴾ .

ويأمر سبحانه به أمراً مطلقاً كل مؤمن فيقول :

﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ .

وإذا توكل الإنسان على الله سبحانه فإن ثمره ذلك أمران :

الأمر الأول هو حب الله له ، يقول سبحانه :

﴿ إن الله يحب المتوكلين ﴾ .

والأمر الثاني هو كفاية الله له ، يقول سبحانه :

﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ .

وهناك ثمار ، هي تفصيل لهدى الأمرين ، أو هي نتائج لها : نتحدث عنها

إن شاء الله تعالى .

ومع أن أمر التوكل في الجو القرآني ، وفي جو السنة ، واضح كل
الوضوح ، فإن الناس جعلت من التوكل مشكلة : يتجادلون فيها ويختلفون ،

وتتجدد المشكلة كلما جاء ذكر للتوكل ، ومن أجل ذلك نحب بتوفيق الله - مع
أن الأمر بين واضح - أن نلقى ببعض الأضواء في هذا المجال .
لقد سئل « يحيى بن معاذ » - وهو من أئمة الصوفية - : متى يكون الرجل
متوكلاً ؟

فقال : إذا رضى بالله تعالى وكبلاً . .

ويتحدث القرآن الكريم عن بعض الظروف التي ظهر فيها أن المؤمنين
الصادقين هم الذين يتخذون الله وكبلاً ، يقول سبحانه وتعالى عن المؤمنين في
غزوة أحد :

﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم ، فاخشوهم ، فزادهم
إيماناً ، وقالوا حسبنا الله ، ونعم الوكيل ﴾ .
ماذا كانت النتيجة ؟

إنها ما عبر الله سبحانه عنها بقوله :

﴿ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل ، لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله ،
والله ذو فضل عظيم ﴾ .

من هم هؤلاء ؟ إنهم :

﴿ الذين استجابوا لله والرسول ، من بعد ما أصابهم القرح ﴾ .
ما هي قصتهم ؟

إن مشركي مكة لما أصابوا من المسلمين يوم أحد ، أخذوا في العودة إلى
مكة ، فلما استمروا في سيرهم ندموا : لم لم يتمموا على أهل المدينة ويجعلوها
الفيصلة ؟ وكان من كلامهم :

لا محمداً قتلتم ، ولا الكواعب أردفتم ، بشما صنعتم ، ارجعوا . وأرادوا

للعودة إلى المدينة .

ولكن «أبو سفيان» لم ينس يوم بدر ، ولم ينس أن الفئة القليلة يوم بدر غلبت ثلاثة أمثالها ، مع وفرة العدة في الكثرة ، فأحب أولاً أن يعجم عود المسلمين ، وكان من المصادفات ، أن مرَّ به ركب من «عبد القيس» ، فقال : أين تريدون ؟ .. قالوا : نريد المدينة ..

قال : ولم .. قالوا نريد الميرة .

قال : فهل أنتم مبلغون عنى محمداً رسالة أرسلكم بها إليه ، وأحمل لكم في مقابل ذلك زيباً بعكاظ ، إذا وافيتونا ؟ قالوا : نعم !
قال : إذا وافيت محمداً فأخبروه أنا قد جمعنا المسير إليه . وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم .

ومر الراكب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد ، فأخبروه بالذي قال «أبو سفيان» وأصحابه ، فكان رد الفعل عند رسول الله ﷺ ، وأصحابه ما صوره الله تعالى بقوله :

﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم ، فاخشوهم فزادهم إيماناً ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل ، لم يمسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم﴾ .

قالوا ذلك واستعدوا مباشرة للقتال من جديد : من كان مجروحاً ضمد جرحه ، ومن كان قد كلَّ سيفه أحده ، ومن كان أمره متفرقاً في نفسه ، أو ماله أصبح أمره جميعاً .. واستعدوا لخوض المعركة ، بكل ما يملكون من وسائل ..
وكان «أبو سفيان» يتظر نتيجة الرسالة ، وما تحدته من صدق ..
ورجع واحد من وفد «عبد القيس» يقول «لأبي سفيان» :

«لقد رأيتم كالأسد المتورة ، عازمة على الأخذ بالثأر» .

ولما سمع «أبو سفيان» ذلك أخذ في العودة إلى مكة ، طلباً للسلامة ..
والتوكل - إذن - والمتوكلون يتخذون الأسباب ، ويستعدون أكمل

ما يكون الاستعداد ، وأدق ما يكون الاستعداد ..

وصورة أخرى للتوكل :

يقول الله تعالى على لسان سيدنا «هود» :

﴿إني توكلت على الله ربي وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربي على صراط مستقيم﴾ .

أخذ سيدنا «هود» عليه السلام يعمل على نشر الحق الموحى إليه ، الحق الذي دعا إليه كل نبي ورسول ، والذي يتلخص فيما قال عليه السلام .

﴿يا قوم اعبدوا الله ، ما لكم من إله غيره﴾ .

وابدعوا في ذلك بالاستغفار والتوبة ، فإذا استغفرتم وتبتم إلى الله ، فإن

عنايته سبحانه تحيط بكم ، ورعايته تكلؤكم :

﴿ويا قوم استغفروا ربكم ، ثم توبوا إليه ، يرسل السماء عليكم

مدراراً ، ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾ .

ولكن قومه أعرضوا عنه ، ولم تفدهم الأمثلة بالذين أعرضوا عن الله ،

فنكل بهم ، وقالوا :

﴿يا هود ما جئتنا ببينة ، وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك

بمؤمنين﴾ .

وأخذ الصراع بين هود وقومه يشتد ، ويعنف ، حتى إذا استصفى هود جميع عناصر الخير منهم ، واستخلص منتهى ما يمكن استخلاصه من أشخاص

آمنوا به ، ولم يبق إلا من لا خير فيه : جاءهم عذاب الله ، دون أن يصيب
هوداً والذين آمنوا معه ، يقول تعالى :

﴿ ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ، ونجيناهم من
عذاب غليظ ﴾ . . .

أما الذين لم يؤمنوا به ، واستكبروا ، وغرهم الباطل ، فإن الله سبحانه
وتعالى أهلكهم جميعاً ، بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال ، وثمانية
أيام حسوماً ، فترى القوم فيها صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية . .
ونحب - بتوفيق الله - أن ننبه أولاً إلى أن الله سبحانه بين في هذه القصة -
كما يروى « القلشاني » - وجوب التوكل على الله ، وكونه حصناً حصيناً ، وأن
ربوبيته شاملة لكل أحد ، ومن يرب - يدبر - أمر المربوب ، ويحفظه فلا حاجة
له إلى كلاءة غيره ، وحفظه .

وننبه ثانياً : إلى أن التوكل ليس ترك الأسباب ؛ فقد أخذ « هود » يناضل
ويكافح ، ويدعو إلى الله سبحانه بكل وسيلة شريفة يستطيعها ، يقول الإمام
« الغزالي » :

وقد يظن أن معنى التوكل ترك الاكتساب بالبدن ، وترك التدبير بالقلب ،
والسقوط على الأرض ، كالخرقة الملقاة ، وكاللحم على الوض ، وهذا ظن
الجهال ، فإن ذلك حرام في الشرع .

إن المعنى الحقيقي للتوكل : هو أن يعتقد الإنسان اعتقاداً جازماً أن الأسباب
الظاهرة ، لا تلغي إرادة الله ، وأن إرادة الله مشرفة على تلك الأسباب في
أسسها وبواعثها ، وهي مشرفة على الأسباب في غاياتها ، ونهاياتها ، وعلى

الإنسان أن يعمل ؛ كما أمر الشرع ، وعليه أن يكل أمر النتيجة إلى الله سبحانه
وتعالى .

وقد كان رسول الله ﷺ إمام المتوكلين ، وكان إمام المجاهدين المكافحين ،
الآخذين بالأسباب ، وسيدنا « أبو بكر » رضى الله عنه حينما بويج بالخلافة
أصبح ذاهباً إلى السوق ، يتجر كعادته ، فتكاثر عليه المسلمون قائلين ! كيف
نفعل ذلك ، وقد أقت لخلافة النبوة ؟ فقال لهم :

« لا تشغلوني عن عيالي فإنى إن أضعتهم كنت لما سواهم أضيع » .

حتى فرضوا له قوت أهل بيت من المسلمين . .
لقد كان كبار الصحابة رضى الله عنهم يعملون ، ويكتسبون ، وكانوا مع
ذلك من كبار المتوكلين .

وبعد : فإن الإمام « القشيري » - من أئمة الصوفية - يقول :
واعلم أن التوكل محله القلب ، والحركة بالظاهر لا تنافي التوكل بالقلب بعد
ما تحقق العبد أن التقدير من قبل الله تعالى ، فإن تعسر شيء فبتقديره ، وإن
اتفق شيء فبتيسيره .

التقدير من قبل الله تعالى :

إذا آمن الإنسان بذلك - ولا بد أن يؤمن به - فهو متوكل . .

والتوكل يتخذ الأسباب ، اقتداء برسول الله ﷺ .

والآن نسير مع السيرة النبوية الشريفة بعد غزوة أحد ، لنصل إلى غزوة

الأحزاب ، ولنصل إلى صورة التوكل الذي يتلون بلون التسليم .

إن من التوكل الذي يتلون بلون التسليم ، ما يحدثنا به القرآن الكريم في قوله

تعالى :

﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ﴾ .
لقد زادتهم رؤية الأحزاب - الجيوش الجارّة التي أتت لتهدم المدينة ، وتقتل من فيها - إيماناً وتسليماً . .
ماذا فعلوا ؟

لقد سهروا ليلاً ، وأقاموا نهاراً من وراء الخندق ، يرقبون حركات العدو ، ويستعدون لكل شأن من شئونه .

لقد لبسوا دروعهم ، وتسלحوا بسيوفهم ، وأقواسهم ، وسهامهم .
لقد أحكموا كل أمر من أمور الحرب ، بحسب طاقتهم ، و
يسلمون به لله كله : ﴿ إليه يرجع الأمر كله ﴾ .

﴿ وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ﴾ : إيماناً قليلاً وتسليماً
وإن من الملاحظات التي لا تخفى على قارئ القرآن أن آية
سبقها مباشرة قوله تعالى :

﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ، لمن كان يرجو
الآخر ، وذكر الله كثيراً ﴾ .

ولقد تابع المؤمنون الرسول ﷺ في توكله ، واتبعوه مسلمين
وتأهبه ، لقد اتخذوه قدوة .

ويقول الإمام « سهل بن عبد الله » - من أئمة التصوف -
الجميلة حقاً الصادقة حقاً :

التوكل حال النبي ﷺ ، والكسب سببه فمن بقي على حال
سببه .

ويقول :

من طعن في الحركة فقد طعن في السنة ، ~~سرسر~~ التوكل فقد طعن في
الإيمان ،

أما كيف عرف « سهل » نفسه التوكل ؟ فإنه قال :

التوكل : الاسترسال مع الله تعالى على ~~سبيل~~
وهي كلمة نفيسة . . الاسترسال مع الله عز وجل ، في كل ما أراد
سبحانه :

الجماد في الضرب في الأرض ، طلباً ~~للقوة~~ في التزود من العلم ،

ن يسكن الإنسان إلى
يقتضى أمراً آخر هو :

سق مع تعريف الإمام
عن التوكل فقال :

لاعتصام بالله تعالى في
وهو الاعتصام بالله في
احب للنضال المتواصل

كل الذي يتلون بلون :

قصة رجل مؤمن صادق الإيمان وقف ناصحاً في وجه الطغيان والجبروت ،
يذهب إلى الله ، ويبشر بالتعاليم الصادقة ، وينذر ، ويهدد بعقاب ، في أسلوب
قوي ، لا يخشى فيه لومة لائم .

تلك قصة « مؤمن آل فرعون » الذي بعد أن نصح وبشر وأنذر ، قال :
﴿ فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمري إلى الله ، إن الله بصير بالعباد ﴾ .
وكانت النتيجة ما قصه الله تعالى بقوله :

﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا ، وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴾ .
وبحسن أن نذكر القصة بتمامها من كتاب الله سبحانه ، كما وردت في سورة
غافر ، يقول الله تعالى :

﴿ وقال الذي آمن يا قوم أتبعون أهدكم سبيل الرشاد . يا قوم إنما هذه
الحياة الدنيا متاع ، وإن الآخرة هي دار القرار . من عمل سيئة فلا يجزي إلا
مثلها ، ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة ،
يرزقون فيها بغير حساب .

ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة ، وتدعونني إلى النار .
تدعونني لأكفر بالله ، وأشرك به ما ليس لي به علم ، وأنا أدعوكم إلى العزيز
الغفار .

لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ، ولا في الآخرة ، وأن
مردنا إلى الله ، وأن المسرفين هم أصحاب النار .

فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله ، إن الله بصير بالعباد . .
فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب .
ومن كل ما تقدم ننتهي كما بدأنا ، بأن التوكل جزء لا يتجزأ من الإيمان ،

والصورة المثلى فيه ، هي صورة رسول الله ﷺ ، الذي كان إمام المتوكلين ،
وكان إمام المناضلين ، ومن بعده صورة « أبي بكر » رضي الله عنه ، والصحابه
الأجلاء الذين كانوا متوكلين ، وكانوا مناضلين في الحرب ، وفي التجارة ، وفي
الزراعة . .

وبعد ، فيقول الله تعالى :
﴿ إن الله يحب المتوكلين ﴾ .

الحجة :

يقول الله تعالى في حديث قدسي :
« من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب
إلي من أداء ما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ،
فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي
يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذ بي
لأعيذنه » .

وفي هذا الحديث الشريف يبدأ الله سبحانه بالتوجيه في قوة إلى صفاء
القلب وطهارة النية بالنسبة لأوليائه .
وأوليائه هم :

﴿ الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ .
ومن عاداهم فإنما يعادى المؤمن التقي .
ونتيجة هذه العداوة ما يقوله تعالى :
آذنته بالحرب .

ثم يرسم الله سبحانه الطريق إلى حبه .
وأول خطوة في هذا الطريق :

أداء ما افترضته عليه .

ولن يتأتى حب الله سبحانه دون الشرط الأول - شرط القرب منه سبحانه - وهو أداء الفرائض .

والحب دون أداء الفرائض زيف وكذب .

بل إن أداء الفرائض شرط لحسن الظن بالله : لقد ترك قوم العمل وقالوا : نحن نحسن الظن بالله ، وكذبوا - كما يقول رسول الله ﷺ - لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل .

لا بد من أداء الفرائض ، وإلا لما كان لمهملها إلى القرب من الله تعالى من سبيل .

ومع أداء الفرائض - في جو القرب - الإكثار من النوافل : فإذا أكثر من النوافل ، أحبه الله تعالى :

ويترتب على حب الله تعالى للعبد هذا الخير الكثير ، الذي ذكره الله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي .

ويربط أسلافنا رضوان الله عليهم ربطاً محكمًا بين محبة الله تعالى ، واتباع رسول الله ﷺ متناسقين في ذلك مع توجيه الله سبحانه وتعالى :

﴿ قل : إن كنتم تحبون الله ، فاتبعوني يحببكم الله ﴾ .

وهذا الربط معناه الربط بين محبة الله تعالى والعمل .

ومقدمات محبة الله تعالى هي العمل ؛ ونتيجة محبة الله تعالى هي العمل .
يقول الإمام « أبو سعيد الخراز » :

« وبلغنا عن « الحسن البصري » رضى الله عنه : أن ناساً قالوا على عهد رسول الله ﷺ : يا رسول الله إنا نحب ربنا حباً شديداً ، فجعل الله تعالى لمحبة علماء وأتزل عز وجل :

﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ (٢٧) .

فمن صدق المحبة : اتباع الرسول ﷺ ، في هديه ، وزهده ، وأخلاقه ، والتأسي به في الأمور ، والإعراض عن الدنيا وزهرتها وبهجتها ، فإن الله عز وجل جعل محمداً ﷺ ، علماً ودليلاً ، وحجة على أمته .

ومن صدق المحبة لله تعالى ، إثبات محبة الله عز وجل في جميع الأمور على نفسك ، وهواك ، وأن تبدأ في الأمور كلها بأمره ، قبل أمر نفسك « اهـ ويقول :

« فعلامة الحب : الموافقة للمحبيب ، والتجارى (٢٨) مع طرقاته في كل الأمور ، والتقرب إليه بكل حيلة ، والحرب من كل مالا يعينه على مذهبه (٢٩) » .

أما عن صلته بالإيمان فإن الإمام « الغزالي » يقول :
« وقد جعل رسول الله ﷺ - الحب لله من شرط الإيمان في أخبار كثيرة ، إذ قال « أبو رزين العقيلي » : يا رسول الله ! ما الإيمان ؟ قال :
« أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما » .

وفي حديث آخر .

(٢٧) آل عمران ٣١ .

(٢٨) التجارى : المسيرة : أى المتابعة .

(٢٩) مذهبه : قصده وطريقه .

« لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » .
وفي حديث آخر :

« لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله ، وماله ، والناس أجمعين »
وفي رواية : « ومن نفسه » :

كيف وقد قال الله تعالى :

﴿ قل إن كان آباؤكم ، وأبناؤكم ، وإخوانكم ، وأزواجكم ، وعشيرتكم ، وأموال اقترتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله ، وجهاد في سبيله ، فتركبوا ، حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ (٣٠)

وإنما جرى ذلك في معرض التهديد والإنكار (٣١) .

ومن أجمل تعبيرات المحبين عن شعورهم ما يقوله « يحيى بن معاذ » :
« إلهي إني مقيم بفنائك ، مشغول بشنائك ، صغيراً أخذتني إليك ، وسريلتي بمعرفتك ، وأمكنتني من لطفك ، ونقلتني في الأحوال ، وقلبتني في الأعمال : سراً وتوبة ، وزهداً ، وشوقاً ، ورضاً ، وحباً . . . تسقينني من حياضك ، وتملئني في رياضك . ملازماً لأمرك ، ومشغوفاً بقولك ، ولما طر شاربي ، ولاح طائري فكيف أنصرف اليوم عنك كبيراً ؟ وقد اعتدت هذا منك صغيراً ، فلي بحريته مشغوف ، وعن غير حبيبه مصروف . . . !

وبعد : فإن ثمرة محبة الله تعالى هي ما قاله سبحانه عن أوليائه :

(٣٠) التوبة : ٢٤

(٣١) المنقذ : ٩٣ - ٩٤

﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، لا تبدل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

الرضا :

وإذا كانت المحبة تبعها الرضا ، وذلك أن المحب راض دائماً عن أعمال محبوبه .
وللرضا في الإيمان ركائز قوية ؛ وذلك أن المؤمن من يعتقد أن الله سبحانه وتعالى حكيم وتصرفاته - سبحانه - تجرى على مقتضى الحكمة . ويعتقد المؤمن أنه سبحانه رحمن . وتصرفاته - سبحانه - تجرى على مقتضى رحمته الحكيمة . وحكمته الرحيمة .

فإذا ما وصل المؤمن مع ذلك إلى محبة الله تعالى . فقد أصبح راضياً الرضا كله . ودخل في نطاق :

﴿ رضى الله عنهم . ورضوا عنه ﴾ .

ولكن أمر الرضا يلتبس على بعض الناس . فيما يتعلق بالسلبية والإيجابية .

هل الرضا يتنافى مع العمل ؟

هل الرضا يقتضى ألا يحاول الإنسان الخروج من الضيق إلى السعة ؟ ومن الذل إلى العز ؟ ومن الهزيمة إلى النصر ؟ ومن العسر إلى اليسر ؟ ومن الحسن إلى الأحسن ؟ ومن الشريف إلى الأشرف ؟
هل الرضا أن تسكن مستسلماً ؟

كلا ! ! !

وإذا اتجه أحد إلى ذلك فإنه يكون تليساً إبليسياً - على حد تعبيرات ابن « الجوزي » .

إن القرآن الكريم يذكر الرضا في مناسبات . منها :

﴿ لقد رضى الله عن المؤمنين ، إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحاً قريباً ﴾ .

لقد رضى الله عنهم ، وهم يبايعون على الجهاد ، وعلى الموت في سبيل

الله !

إن البيعة كانت على القتال ، لتحقيق العزة لله ولرسوله !

إنها كانت بيعة على الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى :

يقول الإمام « الألوسى » :

« وأصل هذه البيعة - وتسمى بيعة الرضوان لقول الله تعالى فيها :

(لقد رضى) . . إلخ - أن النبي ﷺ - لما نزل الحديدية بعث « خراشاً »

- بكسر الخاء المعجمة ، وفتح الراء المهملة ، وألف بعدها شين معجمة -

« ابن أمية الخزاعي ، رسولاً إلى أهل مكة ، وحمله على جمل له : يقال له :

« الثعلب » ، يعلمهم أنه جاء معتمراً لا يريد قتالاً ، فلما أناهم ، وكلمهم

عقروا جملة ، وأرادوا قتله ، فمنعه « الأحابيش » فخلوا سبيله حتى أتى

الرسول - ﷺ - فدعا « عمر » رضى الله تعالى عنه ليعثه فقال : يا رسول الله إن

القوم قد عرفوا عداوتى لهم ، وغلظى عليهم ، وإني لا آمن وليس بمكة أحد من

« بنى عدى » يغضب لى إن أوديت . فأرسل « عثمان بن عفان » ؛ فإن عشيرته

بها ، وهم يحبونه ، إنه يبلغ ما أردت ، فدعا رسول الله ﷺ « عثمان » فأرسله

إلى قريش وقال : أخبرهم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عماراً ، وادعهم إلى

الإسلام ، وأمره عليه الصلاة والسلام أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين ، ونساء

مؤمنات ، فيبشرهم بالفتح ، ويخبرهم أن الله تعالى يظهر دينه بمكة ، فذهب

« عثمان » رضى الله تعالى عنه إلى قريش ، وكان قد لقيه « أبان بن سعيد بن العاص » ، فترل عن دابته ، وحمله عليها وأجاره . فأتى قريشاً فأخبرهم فقالوا له : إن شئت فطف بالبيت . وأما دخولكم علينا فلا سبيل إليه . فقال رضى الله تعالى عنه :

ما كنت لأطوف به حتى يطوف به رسول الله ﷺ ، فاحتبسوه ، فبلغ

رسول الله ﷺ والمسلمين أن « عثمان » قد قتل ، فقال عليه الصلاة والسلام :

« لا نبرح حتى نناجز القوم » ، ونادى مناديه عليه الصلاة والسلام ألا إن

روح القدس قد نزل على رسول ﷺ - فأمره بالبيعة ، فأخرجوا على اسم الله

تعالى فبايعوه ، فثار المسلمون إلى رسول الله ﷺ - وبايعوه .

قال « جابر » - كما في صحيح مسلم وغيره - : بايعناه ﷺ - على ألا

نفر ، ولم نبايعه على الموت !

وأخرج « البخارى » عن « سلمة بن الأكوع » قال : بايعت رسول الله -

ﷺ - تحت الشجرة ، قيل : على أى شىء تبايعونه يومئذ ؟ قال : على

الموت (٣٢) !

وأخرج « مسلم » عن « معقل بن يسار » أنه كان آخذاً بأغصان الشجرة عن

وجه رسول الله ﷺ وهو يبايع الناس . . . (٣٣) .

ويقول تعالى :

﴿ لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو

(٣٢) لا تعارض بين الحديثين - كما يومه ظاهر لفظيها - فإن المبايع على الجهاد تتضمن المبايع على

الموت .

(٣٣) روح المعاني ٢٦ / ١٠٦ .

كانوا آباءهم ، أو أبناءهم ، أو إخوانهم ، أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان ، وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴿٣٤﴾ .

إن الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه لا يوادون من حاد الله ورسوله ، وإنما يعادونهم ويحاربونهم !

ورضا الله تعالى إنما هو في أن يقف الإنسان موقفاً صلباً في وجه كل من يحاد الله ورسوله ، يقول تعالى للمؤمنين :

﴿ وليجدوا فيكم غلظة ﴾ .

ويتحدث الله سبحانه عن جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون في الأرض فساداً ، فيقول :

﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا ، أو يصلبوا ، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ (٣٥) .

من يتصورون ع الشيطان !

« ما تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق . لا يضرهم من خذلهم ، ولا من خالفهم ، حتى تقوم الساعة » .

وهم ظاهرون على الحق بكل ما في استطاعتهم من إمكانات ، ظاهرين على الحق بالسيف ، ظاهرين على الحق بالمنطق ! ورسول الله ﷺ وهو إمام المحبين وسيد الراضين ، كانت حياته كلها كفاحاً في سبيل الله تعالى :

جهاداً بالسيف ، وجهاداً بالقول ، لقد كانت جهاداً قولاً ، وعملاً ، وكان ﷺ الأسوة للراضين .

ما معنى الرضا إذن ؟

إن معنى الرضا ، أن يبذل الإنسان جهده ليصل إلى ما يحبه الله ورسوله ، ولكنه من قبل الوصول إليه ، وفي أثناء محاولاته للوصول إليه مطمئن إلى النتيجة على أى وضع أحباها الله ، راض بها ، إن : « إليه المصير » .

وإن : ﴿ والله عاقبة الأمور ﴾ .

وإن : ﴿ إليه يرجع الأمر كله ﴾ .

يجب أن يكون كل ذلك واقراً في ذهنه ، مفعماً به شعوره ، مع إيمانه بأنه سبحانه حكيم ، رحمن ، رحيم ، إنه الرضا ! يقول صاحب اللمع :

« والرضا باب الله الأعظم ، وجنة الدنيا ، وهو أن يكون قلب العبد ساكناً

تحت حكم الله عز وجل » ويقول :

« والرضا آخر المقامات ، ثم يقتضى من بعد ذلك أحوال أرباب القلوب ، ومطالعة الغيوب ، وتهذيب الأسرار لصفاء الأذكار ، وحقائق الأحوال (٣٦) » .

حول مصادر التصوف الإسلامي

١

يحاول المستشرقون ، وغيرهم من الذين يكتبون في التصوف الإسلامي ، رد الحياة الروحية الصوفية في الإسلام إلى مصدر أجنبي بحت ، « هندی » ، أو « يوناني » : إلخ ، أو إلى عدة مصادر ؛ منها القرآن ، أو حياة الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه .

ويحاول بعضهم أن يظهر بمظهر الاعتدال ، فيرى أن العامل الأول في نشأة التصوف ، إنما كان القرآن وحياة الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - ومنها استمد التصوف بذوره الأولى ، ثم كانت الثقافة الأجنبية - « هندية » ، أو « يونانية » أو « فارسية » ، أو « مسيحية » - هي التي أثرت فيه ، وجعلته يتطور ؛ وهي التي أمدته من الآراء ، بما زعموا أنه بعيد عن روح الإسلام وطبيعته . وبرغم أن الأستاذ « لويس ماسينيون » يقول في صراحة : « أما دراسة مصادر التصوف ، فإن الشقة بيننا وبين استكمالها مازالت بعيدة » ، فإن المستشرقين ؛ ومن نهج نهجهم يحاولون جاهدين أو يعزوا التصوف إلى مصدر معين ؛ أو إلى مصادر مختلفة ، يشترك فيها المصدر الإسلامي ، أو لا يشترك . والتصوف إذن على رأى بعضهم « مذهب دخيل في الإسلام مأخوذ : إما من رهبانية الشام ، وهو رأى « ميركس » ، وإما من « أفلاطونية اليونان » الجديدة . وإما من « زرادشتية الفرس » ، وإما من « فيدا الهندود » ، وهو رأى « جونز » .

ويأخذ المستشرقون بعضهم في مناقشة البعض ، وهدم بعضهم بعضاً ، بل إن الشخص الواحد منهم يغير رأيه ، فيختلف باختلاف فترات حياته ، فالمستشرق « ثولك » مثلاً يذهب في أول حياته إلى أن التصوف الإسلامي إنما هو مأخوذ عن أصل مجوسى .

ثم يعدل عن ذلك إلى الطريق المقابل ، ويرى أن « التصوف » وكل ما فيه من الأقوال المتطرفة يمكن الرجوع به إلى تعاليم الرسول ﷺ ، وسيرته . ويقول الأستاذ الدكتور « أبو العلا عفيفى » - بحق - ولما بدأت حركة طبع الكتب في مصر ، والهند ، وغيرهما في النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وبدأ يتدفق سيلها من مطبعة بولاق الأميرية خاصة ، تغير مجرى البحث العلمى لا في التصوف وحده ، بل في جميع فروع الدراسات الإسلامية . وتغير إذن رأى « ثولك » وتغيرت بذلك أدلته ، وأسانيده ، وكما اعتبر في فترة حياته الأولى أن أدلته وأسانيده فيما يتعلق بالمصدر المجوسى للتصوف الإسلامى حاسمة ، فقد اعتبر في فترة حياته الثانية أن أدلته وأسانيده في المصدر الإسلامى للتصوف حاسمة أيضاً .

وإذا كان الأمر فيما يتعلق « بثولك » يمكن الاعتذار عنه بأنه وجد في فترة لم تكن الكتب الصوفية ميسورة كل اليسر ، فإن ما حدث « لثولك » هو نفسه ما حدث للمستشرق « نيكولسون » ، إنه يتحدث عن التصوف ، فيرجع نشأته إلى عوامل خارجة عن الإسلام ، عملت عملها ابتداء من القرن الثالث الهجرى .

وأهم هذه العوامل وأبرزها في نظره ، هو « الأفلاطونية الحديثة » المتأخرة والتي كانت شائعة في مصر ، والشام ، إلى عهد « ذى النون المصرى » ،

وه معروف الكرخي .

وإذا أردنا تصوير رأى « نيكلسون » بقلمه في هذه الفترة ، فإننا نراه يقول : ولكنى على يقين من أننا إذا نظرنا إلى الظروف التاريخية التي أحاطت بنشأة التصوف بمعناه الدقيق ، استحال علينا أن نرد أصله إلى عامل « هندي » ، أو « فارسي » ولزم أن نعتبره وليداً لاتحاد الفكر « اليوناني » ، والديانات الشرقية أو بعبارة أدق ، وليداً لاتحاد الفلسفة « الأفلاطونية الحديثة » ، والديانات المسيحية والمذهب الغنوصي .

ثم يتحول « نيكلسون » عن هذا الرأي ، حينما يكتب مادة التصوف في دائرة معارف الدين والأخلاق ، فيقول : « وقد عولجت مسألة نشأة التصوف الإسلامي حتى الآن معالجة خاطئة ، فذهب كثير من أوائل الباحثين إلى القول بأن هذه الحركة العظيمة التي استمدت حياتها وقوتها من جميع الطبقات ، والشعوب التي تألفت منها الإمبراطورية الإسلامية ، يمكن تفسير نشأتها تفسيراً علمياً ، دقيقاً ، بإرجاعها إلى أصل واحد : « كالفيدانتا الهندية » ، أو « الفلسفة الأفلاطونية » ، أو بوضع فروض تفسر جانباً من الحقيقة لا الحقيقة كلها .

ويشرح الأستاذ « لويس ماسينيون » فكرة « نيكلسون » الأخيرة فيقول : « وقد بين « نيكلسون » : أن إطلاق الحكم بأن التصوف دخيل في الإسلام غير مقبول ، فالحق أننا نلاحظ منذ ظهور الإسلام أن الأنظار التي اختص بها متصوفة المسلمين : نشأت في قلب الجماعة الإسلامية نفسها في أثناء عكوف المسلمين على تلاوة القرآن ، والحديث وتقرئها ، وتأثرت بما أصاب هذه الجماعة من أحداث ، وما حل بالأفراد من نوازل .

ويتابع الأستاذ « ماسينيون » ، شرح فكرة « نيكلسون » ، فيقول : « على أنه إذا كانت مادة التصوف إسلامية عربية خالصة ، فما لا يخلو من فائدة أن نتعرف على المحسنات الأجنبية التي أدخلت عليه ، ونمت في كنفه .
وفكرة « نيكلسون » هذه ، هي تقريباً نفس فكرة الأستاذ « ماسينيون » في « ماسينيون » يرى ، أن التصوف لا يرجع إلى مصدر واحد ، وإنما يرجع أولاً إلى القرآن ، وهو أهم المصادر التي استمد منها التصوف نشأته وحياته . والمصدر الثاني ، هو : الحديث ، والفقه وغيرهما من العلوم العربية الإسلامية .

أما المصدر الأخير . فهو : الثقافة العلمية الأجنبية العامة التي وجدت في البيئة الإسلامية ، في عهودها الأولى .

٢

هذه الاختلافات الكثيرة ، التي استفاض فيها الكاتبون ، وكونوا فيها الفصول الطوال ، واستنفدوا فيها الجهد ، والتي لا تزال مع كل ذلك مستمرة لا تنتهي - ولا تريد أن تنتهي - إن دلت على شيء . فإنما تدل على أن وضع المشكلة بهذا الوضع إنما هو خطأ من أساسه وهذا الخطأ في وضع المشكلة مفهوم السبب والعللة .

لقد وقف الكاتبون من التصوف موقفهم من الثقافة الكسبية ، والثقافة الكسبية يتأق فيها التائر ، والتطور ، والتقليد ، فالكاتب ، أو الشاعر ، أو المفكر على وجه العموم ، الذي يستمد ثقافته من البيئة الخارجية ، يتلون ويتشكل بما يقرأ ، وبما يدور حوله ، وبما يتشربه من بيئته ، ونتاجه ، إذن : .. قضية التصوف المنقذ من الضلال

أثر للبيئة الخارجية ، اللهم إلا إذا كانت له أصلاته التي تسمو به عن أن يكون صدى للوسط الذي يعيش فيه .

ولكن التصوف والصوفية ليسا من هذا الوادى .

وإذا أردنا أن نتحدث في تحديد ودقة ، فإننا نرى أن المشكلة التي نحن بصددنا تنفرح إلى أمرين :

١- الاتجاه إلى الحياة الصوفية ، أو التزعة إلى سلوك الطريق الصوفى .

٢- الشعور الصوفى .

أما فيما يتعلق بالاتجاه نحو السلوك الصوفى ، فله مؤثراته الداخلية البحتة ، وهى مؤثرات تتصل بالفرد من الناحية الداخلية ، أكثر من أن تتصل بعامل خارجى ، لا بد إذن من أن يكون الاستعداد الشخصى الفردى القطرى موجوداً ، مهيناً ، ويكفى لأن يسلك عملياً هذا الطريق : كلمة ، أو فكرة ، أو إشارة ، أو حادثة من الحوادث ، فيأخذ فعلاً في سيره نحو الله - تعالى - وإلى ذاهب إلى ربه .

هذا الغزم المصمم ، الذى يتمثل فى هذه الكلمة الكريمة : لا بد له من الاستعداد القطرى ، الذى لا يغنى عنه فلسفة « أفلاطونية » ، ولا « فيدائنا هندية » ، ولا « زرادشتية فارسية » .

وقد يكون التجه إلى التصوف قارئاً « لأفلاطونية الحلبية » ، أو لا يكون ، وقد يكون على علم بعقائد « الهند » ، أو لا يكون ، فالتخصص فى « الأفلاطونية الحلبية » لا يفيد تخصصه هذا - لا ولا قلامة ظفر - فى أن يكون صوفيّاً . وكذلك الأمر فى التخصص فى عقائد « الهند » .

وقد قرأ الإمام « الغزالي » كتب الصوفية أنفسهم ، ومحدثنا بذلك فيقول :

٩٨

« فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم ، مثل : « قوت القلوب » ، « لأبى طالب المكي » - رحمه الله - وكتب « الحارث المحاسبي » ، « والفرقات » ، « الجريد » ، و « الشبلى » ، و « أبى يزيد البسطامي » - قدس الله أثورة عن « الجريد » ، و « كلام مشايخهم » ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم أرواحهم - وغير ذلك من كلام مشايخهم ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل عن طريقهم بالتعليم والسماع » .

ولكن ذلك لم يجعل منه صوفيّاً ، ولم يكن الإمام « الغزالي » بهذه الكتب ، ولا بمطالعة لفلسفة « اليونان » ودراسته لها دراسة عميقة صوفيّاً ، ولكنه تبين أن أخص خواصهم - عن حد تعبيرة - ما لا يمكن الوصول إليه بالتعليم ، بل بالدوق والحال ، وتبدل الصفات .

وليس التصوف - إذن ثقافة - كسبية ، تتأثر بهذا الاتجاه أو ذاك ، وإنما هو ذوق ومشاهدة ، يصل الإنسان إليهما عن طريق الخلوة ، والرياضة والمجاهدة ، والاشتياق ، بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب

لذكر الله تعالى ..

وهذا هو جوهر الشعور الصوفى .

أخص خصائص التصوف : شعور لا يمكن التعبير عنه ، فإن الإنسان يصل فيه ، إلى درجات يضيق عنها نطاق الكتابة ، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها ، إلا

اشتمل لفظه على خطأ صريح ، لا يمكنه الاحتراز عنه » .

والذى لا يسته تلك الحالة - على حد تعبير الإمام « الغزالي » - لا ينبغي أن

يزيد على أن يقول :

وكان ما كان مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

الشاهد الصوفية إذن ، ليست ثقافة كسبية ، وإذن لا يتأتى التحدث عن

٩٩

مصادرها الخارجية - أيًا كانت هذه المصادر .

ووضع المسألة - مسألة مصادر التصوف - إذن موضع البحث ، والنظر ،
والدراسة : إنما هو وضع خطأ ، لا يفعله ، ولا يقوم به إلا من لا يفهم
التصوف ، ولم يسهم في تذوقه بقليل ولا بكثير .

والنتيجة التي نريد أن ننتهي إليها - إذن - هي أن الاتجاه نحو التصوف
والتزوع إليه إنما هو فطرة واستعداد .

أما الذوق الصوفي ، والشعور الصوفي ، والمعرفة الصوفية ، فإنها استمداد
من مصدر النور ، والهداية .

نشأة التصوف

إن التصوف باعتباره فكرة ، وباعتباره حالة ، نشأ
والاستدلال على هذا لا يتأتى أن يستند إلى نصوص ؛
كانت قبل الكتابة والتسجيل .

ولكنه من البدهي : أن الإنسان منذ نشأته يتطلع إلى ما
استشراف عالم ما وراء الطبيعة ، بل إلى الاتصال بذلك العالم
الصحيحة لهذا الاتصال .

وهذه الفكرة على هذا الوضع تقرها الأديان على و-
ذلك أن الأديان تعترف بنبوّة آدم ، وبأن الله قد اجتباه ،
بالله ، وبأن الله قد علمه الأسماء كلها : والنبوة أعلى درجة
تتضمنه ، وتريد عليه إن النبوة تتضمن الولاية ، ولكنها
منها ، لأنها اصطفاء من الله :

﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحاً . . ﴾ .

والأديان - على وجه العموم - : لا تنتهج نهج التطور
الذين يرون أن العقل الإنساني : درجات مختلفة ، وأن
الإشراقية ، إنما نشأ متأخرًا : أي عندما نضج وتهذب :
والحق : أنه ليس هناك دليل واحد على أن العقل
رقيًا ، وإنما كل الأدلة تثبت أن العقل - باعتباره عقلاً
مكتسبة : هو ، هو . في بنى البشر ، بأديهم ، ومتحضر

ولو أخذنا طفلاً من البدائيين ، من مجاهل أفريقيا ، ووضعناه منذ نشأته في أرق الأوساط الأوربية تحضراً ، لنشأ نشأة أوربية بحتة .
وكذلك الأمر ، لو أخذنا طفلاً من أرق الأوساط الأوربية تحضراً ووضعناه مع البدائيين منذ الميلاد لنشأ نشأة بدائية .

العقل الإنساني : هو ، هو ، منذ أن وجدت الإنسانية إلى الآن ، والذي اختلف ، إنما هو المعارف المكتسبة ، وهذه المعارف المكتسبة هي وحدها التي تميز المتحضر عن البدائي ، والتي تميز رجل القرن العشرين بعد الميلاد ، عن الإنسان فيما قبل الميلاد .

وما هو جدير بالذكر : أن التصوف - في وجوده وتحققه - : غير محتاج إلى معارف مكتسبة ، طبيعية ، أو كياوية ، أو فلكية ، أو غير ذلك : إنه محتاج إلى أساس من العقيدة الصحيحة .

والعقيدة الصحيحة وجدت مع الإنسان منذ أن سواه الله ، ونفخ فيه من روحه .

هذه النفخة الإلهية ، أو هذا السر الإلهي في الإنسان ، أو هذه الروح التي بين جنبيه ، أو هذا القلب الذي منحه الله إياه : إذا ارتكز على أساس صحيح من الدين ، ثم جاهد في طريق التزكية والتصفية ، واتخذ الوسائل التي تؤدي إلى الاتصال بالملأ الأعلى ، فإنه ينتهي - بتوفيق الله - إلى ما يريد من هذا الاتصال ، وإلى ما يطمح إليه من ثمار الاتصال ، أعني : المعرفة .

معرفة ما وراء الطبيعة . . إنها الأمل العذب الذي يراود الكثير من النفوس التي تريد أن تتزهد عن المادة وأن تسمو على الحسن ، وأن تصبح ربانية . وهذا النمط من الناس موجود في كل زمان ومكان ، ولكنه من الطبيعي أنه

من الندرة بمكان ، « وجل جناب الحق على أن يكون شرعة لكل وارد ، أو أن يصل إليه ، إلا الواحد بعد الواحد » ، على حد تعبير « ابن سينا » .
ومن المعقول : أن هذا النمط وجد مع وجود الإنسانية ، مادام الطموح ، وحسب الاستطلاع ، والتشوف إلى عالم الغيب ، مادام كل ذلك فطرة في بعض الطبائع .

وجد التصوف إذن ، منذ أن وجد الإنسان .
وفما قبل الحضارة اليونانية ، كانت المسائل - فيما يتعلق بالمعرفة - تسير سيراً طبيعياً ، فقد كان هناك ميدان للحس ، يحول فيه ، كيفما شاء ، وهناك ميدان للعقل ، يبحث فيه ، كيفما يريد ، ولكن كان من المعروف في الحكمة الهندية مثلاً ، والحكمة المصرية القديمة : أن عالم ما وراء الطبيعة إنما هو من اختصاص البصيرة ، وما كان يسمح قط في تلك الحضارات : أن تختلط الأمور ، وأن تتعدى كل أداة من أدوات المعرفة اختصاصها .

وكانت ميادين المعرفة محددة تحديداً كاملاً ، لا لبس فيه ولا غموض . كانت محدودة ، فيما يتعلق بالوسائل ، وكانت محددة ، فيما يتعلق بالموضوعات . وكان لمعرفة الغيب رجال ، هيأت لهم فطرهم وظروفهم أن ينتهجوا سبيله . بل حدث في بعض الأحيان : أن حدد هؤلاء الرجال ، من بين طبقة معينة ، هي الطبقة التي يظن أنها ورثت نوعاً من الشفافية عن أسلافها . وطبقة « البراهمة » عن الهنود طبقة محددة ، وما كان كل شخص يمكن أن يكون كاهناً عند قدماء المصريين .

ولاتزال هذه الفكرة للآن - فكرة تحديد ميادين المعرفة ، وتحديد وسائلها موجودة في الهنود المحافظين على تراثهم القديم .

أما حينما نشأت الحضارة اليونانية ، ولم تكن هذه الحضارة مرتكزة على دين صحيح ، ولم تكن مستقرة على دعائم من النصوص المقدسة الثابتة ، فإن الأمور بدأت تختلط ، وبدأت الحدود تزول - نوعاً ما - بين ميادين المعرفة . وبدأت بالتالي ، تضطرب الأمور ، فيما يتعلق بأدوات المعرفة .

ومع ذلك فإن هذه الحضارة اليونانية القديمة نفسها - في بعض صورها - كانت تسير على نهج الحضارات الصحيحة : هندية كانت ، أو مصرية . فهذا مثلاً ، « فيثاغورث » ومدرسته : كانوا يسرون في المعرفة على أسس صحيحة ، ولكن وجد يجوار « فيثاغورث » من انتهجوا النهج العقلي ، في معرفة ما وراء الطبيعة ، وبدأ الأمر يختلط ، حتى كان « أرسطو » فذهب بهذا الخلط أقصى مداه ، واضطرب الأمر بسببه اضطراباً لا يزال العالم يعاني الكثير من آثار انحرافه إلى الآن .

إن إدخال العقل في مسائل ما وراء الطبيعة : انحراف يؤرخ بالعصر اليوناني ، ولكن هذا الانحراف لم يكن خفياً أمره - في العصر اليوناني ، وفيما تلاه من العصور - على كثير من ذوى البصائر النافذة ، الذين اتخذوا من الآثار المقدسة ملجأً وعصمة ، والذين اتخذوها دثاراً وشعاراً ، والذين عملوا بها ، وتشربتها أرواحهم حتى أصبحت ، وكأنها فطرة فيهم . . . فقادتهم إلى أن يكونوا ريبانيين : لقد قادتهم إلى الأمل المنشود : شهود ما وراء الطبيعة ، أو شهود التوحيد ، فانضووا تحت لواء الآية الكريمة :

﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة ، وأولو العلم . . . ﴾ .
إنهم أولياء الله ، إنهم « الصوفية » .

لمحة عامة عن التصوف

هذه اللمحة كتبها الحكيم الصوفي الفرنسي النشأة رينيه جينو Rene Guenon الذي أسلم وسمى نفسه عبد الواحد يحيى وقد كتبنا عنه فيما مضى ما يلي :

أما الذي كان إسلامه ثورة كبرى هزت ضماير الكثير من ذوى البصائر الطاهرة ، فاقننوا به : واعتنقوا الإسلام ، وكونوا جماعات مؤمنة مخلصه تعبد الله على يقين في معازل الكاثوليكية في فرنسا ، وفي سويسرا . . . فهو العالم الفيلسوف الحكيم ، الصوفي : « رينيه » الذي يدعى اسمه في أوربا قاطبة وفي أمريكا ، والذي يعرفه كل هؤلاء الذين يتصلون اتصالاً وثيقاً بالدراسات الفلسفية الدينية في أوربا ، أو في أمريكا .

وكان سبب إسلامه بسيطاً منطقياً في آن واحد :

لقد أراد أن يعتصم بنص مقدس ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فلم يجد - بعد دراسة عميقة - سوى القرآن ، فهو الكتاب الوحيد الذي لم ينله التحريف ولا التبديل : لأن الله تكفل بحفظه ، وحفظه حقيقة :

﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾

لم يجد سوى القرآن نصاً مقدساً صحيحاً ، فاعتصم به ، وسار تحت لوائه ، فغمره الأمن النفساني في رحاب الفرقان .

ومؤلفاته مشهورة من بينها كتاب : « أزمة العالم الحديث » بين فيه الانحراف الهائل ، الذي تسير فيه أوربا الآن ، والضلال المبين الذي أعمى الغرب عن سواء السبيل .

أما كتابه : « الشرق والغرب » فهو من الكتب الخالدة ، التي تجعل كل

شرقي بفخر بشرقيته . وقد رد فيه إلى الشرق اعتباره ، مبيناً أصالته في الحضارة ، وسموه في التفكير ، وإنسانيته التي لا تقاس بها مادية الغرب ، وفساده ، وامتصاصه للدماء وعدوانه الذي لا يقف عند حد ، وظلمه المؤسس على المادية والاستغلال ، ومظهراً في كل صفحة من صفحاته نبل الشرقيين ، وعقلمهم ، وفهمهم للأمور فهماً يتفق مع الفضيلة ، ومع أسنى المبادئ الإنسانية ..

وقد كتبنا عنه تقريراً لإحدى جامعاتنا المصرية ، للتعرف به ، ننشره فيما يلي :

«رينيه جينو» من الشخصيات التي أخذت مكانها في التاريخ ، يضعه المسلمون بجوار الإمام «الغزالي» وأمثاله ، ويضعه غير المسلمين بجوار «أفلوطين» ، صاحب الأفلاطونية الحديثة ، وأمثاله . وإذا كان الشخص ، في بيئتنا الحالية ، لا يقدر التقدير الذي يستحقه إلا بعد وفاته ، فقد كان حسن حظ : «رينيه جينو» أنه قدر أثناء حياته ، وقدر بعد وفاته . أما في أثناء حياته : فكان أول تقدير له : أن حرمت الكنيسة قراءة كتبه ، والكنيسة لا تفعل هذا إلا مع كبار المفكرين الذين تخشى خطرهم ، وقد وضعت بذلك بجوار عباقرة الفكر ، الذين اتخذت تجاههم نفس المسلك ، ولكنها رأت في «رينيه جينو» خطراً يكبر كل خطر سابق ، فحرمت ، حتى الحديث عنه .

وإذا كان هذا تقديراً سلبياً له قيمته ، فهناك التقدير الإيجابي . الذي لا يقل في أهميته عن التقدير السلبي ، فهناك هؤلاء الذين استجابوا لدعوة «رينيه جينو» ، فألفوا جمعيات في جميع العواصم الكبرى في العالم ، وعلى الخصوص ، في سويسرا ، وفي «فرنسا» ، والمكونون لهذه الجمعيات اتخذوا حذو «رينيه جينو» فاتخذوا الإسلام ديناً ، والطهارة والإخلاص وطاعة الله ،

شعاراً وديناً ، ويكونون ، وسط هذه المادية السابغة ، وهذه الشهوات المتغلبة ، واحات جميلة ، يلجأ إليها كل من أراد الطهر والطمأنينة . ومن التقدير الإيجابي أيضاً ، أن كتبه برغم تحريم الكنيسة لقراءتها ، قد انتشرت في جميع أرجاء العالم ، وطبعت المرة بعد الأخرى ، وترجم الكثير منها إلى اللغات الحية الناهضة ، ماعدا العربية ، للأسف الشديد .

ومن الطريف : أن بعض الكتب ترجم إلى لغة : الهند الصينية ، ووضعت كشرح للوصية الأخيرة من وصايا «الدالاي لاما» . ولم يكن يوجد في الغرب شخص متخصص في تاريخ الأديان ، إلا وهو على علم بأراء «رينيه جينو» . كل هذا التقدير كان في حياته .

أما بعد مماته ، فقد زاد هذا التقدير ، لقد كتبت عنه جميع صحف العالم ومنها بعض الصحف المصرية العربية ، كالمصور مثلاً ، الذي كتب عنه ، في استفاضة والصحف الإفرنجية أيضاً ، كمجلة «إيجيبت نوفل» . التي أخذت تكتب عنه عدة أسابيع . ثم أخذت تكتب عنه كل عام في ذكرى وفاته .

وقد خصصت له مجلة : «فرنسا آسيا» وهي مجلة محترمة ، عدداً ضخماً ، كتب فيه كبار الكتاب الشرقيين والغربيين ، وافتتحه بتقدير شاعر فرنسا الأكبر . «أندريه جيد» لـ (رينيه جينو) وقوله ، في صراحة لالبس فيها : إن آراء (رينيه جينو) لا تنقض .

وخصصت مجلة : (إيتودترا ديسونيل) ، وهي المجلة التي تعتبر في الغرب كله : لسان التصوف الصحيح ، عدداً ضخماً من أعدادها ، كتب فيه أيضاً ، كبار الكتاب الشرقيين والغربيين .

ثم خصص له الكاتب الصحفي الشهير ، (بول سيران) كتاباً ضخماً تحدث فيه عن حياته وعن آرائه ، ووضعه ، كما وضعه الآخرون الذين كتبوا عنه ، في المكان اللائق به ، بجوار الإمام الغزالي أو الحكمين أفلوطين .

نشأ (رينيه جينو) في فرنسا من أسرة كاثوليكية ، ثرية محافظة ، نشأ مرهف الحس ، مرهف الشعور ، مرهف الوجدان ، متجهاً بطبيعته إلى التفكير العميق والأبحاث الدقيقة . وهاله حينما نضج تفكيره ، ماعليه قومه من ضلال ، فأخذ يبحث في جد عن الحقيقة ، ولكن أين هي ؟ أفى الشرق أم فى الغرب ؟ وهل هى فى السماء أم فى الأرض ؟

أين الحقيقة ؟ سؤال وجهه (رينيه جينو) إلى نفسه ، كما وجهه من قبل إلى نفسه : الإمام « المحاسبى » والإمام « الغزالى » ، والإمام « محبى الدين ابن عربى » وكما وجهه من قبلهم عشرات من المفكرين والذين أبوا أن يستقيموا للتقليد الأعمى ، وتأتى فترة الشك ، والحيرة ، والألم الممض ، ثم يتأتى عون الله ، وكان عون الله ، بالنسبة لـ (رينيه جينو) : أن بهرته أشعة الإسلام الخالدة ، وغمره ضياؤه الباهر فاعتنقه ، وتسمى باسم الشيخ « عبد الواحد يحى » ، وأصبح جندياً من جنوده ، يدافع عنه ، ويدعو إليه . ومن أمثلة ذلك : ما كتبه فى كتابه : (رمزية الصليب) تفنيدها للقرية التى تقول : إن الإسلام انتشر بالسيف ، ومن أمثلة ذلك أيضاً ما كتبه فى العدد الخاص الذى أصدرته مجلة : (كايه دى سود) ، فى عددها الخاص بالإسلام والغرب ، دفاعاً عن الروحانية الإسلامية ، لقد أنكر الغربيون روحانية الإسلام ، أو قللوا من شأنها ، وأشادوا بروحانية المسيحية وأكبروا من شأنها ، ووضعوا التصوف المسيحى فى أسنى مكانة ، وقللوا من شأن التصوف الإسلامى .

كتب الشيخ « عبد الواحد يحى » ، مبيناً سمو التصوف الإسلامى وروعه ، وقارن بينه وبين ما يسمونه بالتصوف المسيحى ، أى « الميسيسم » ، وانتهى بأن هذا « الميسيسم » لا يمكنه أن يبلغ ولا من بعد ما بلغه التصوف الإسلامى من سمو ، ومن جلال .

على أن الشيخ « عبد الواحد يحى » لم يشد بالإسلام فحسب ، وإنما أشاد

فى جميع كتبه ، وفى مواضع لا يأتى عليها الحصر ، بالشرق ، ثم خصص كتاباً ضخماً بعنوان : (الشرق والغرب) تزيل قراءته من نفس كل شرقى مركب النقص الذى غرسه الاستعمار فى نفوس الشرقيين ، فى هذه السنوات الأخيرة . لقد دأب الاستعمار على أن يغرس فى نفوس الشرقيين : أنهم أقل حضارة ، بل أقل إنسانية من الغربيين . . وأتى الشيخ « عبد الواحد » : فقلب الأوضاع رأساً على عقب ، وبين للشرقيين قيمتهم ، وأنهم منبع النور والهداية ، ومشرق الوحي والإلهام .

إن كل شرقى يفخر بشرقيته بمجرد قراءته لهذا الكتاب ، وهو ليس كتاباً يشيد بالشرق على الأسلوب الصحفى ، أو على الطريقة الإنشائية ، وإنما هو كتاب علمى بأدق المعانى لكلمة علم ، وهذا وحده يكفى لأن يقيم الشرقيون مظاهر التكريم للشيخ عبد الواحد . اعترافاً منهم بالجميل ، والله الموفق .

* * *

وفى ما كتبه الشيخ عبد الواحد ، وقد ترجمناه عن الفرنسية .

بين الظاهر والباطن :

ربما كانت العقيدة الإسلامية ، من بين العقائد الموروثة ، هى العقيدة التى يظهر فيها بوضوح التفرقة بين جزأين متكاملين هما « الظاهر » و « الباطن » أعنى « الشريعة » ، وهى الباب الذى يدخل منه الجميع ، و « الحقيقة » ولا يصل إليها إلا المصطفون الأخيار ، وهذه التفرقة ليست تحكيمية ، وإنما تفرضها طبيعة الأشياء ، ذلك أن استعداد الناس متفاوت وبعضهم معد لمعرفة الحقيقة . وكثيراً ما نجدهم يشبهون الشريعة والحقيقة بالقشر واللب ، أو بالدائرة ومركزها . والشريعة تتضمن - فضلاً عن الناحية الاعتقادية - الناحية التشريعية والناحية الاجتماعية ، وهما جزءان لا يتجزأان عن الدين الإسلامى :

أزلا وقبل كل شيء قاعدة للسلوك. أما الحقيقة^(٣٧) فإنها معرفة محضة ، ولكن يجب أن نعلم أن هذه المعرفة هي التي تعطى للشريعة معناها السامي العميق ، بل هي التي تبرر وجود الشريعة ، إنها في الحقيقة - وإن لم يشعر بذلك المؤمنون - المركز الأساسي : مثلها في ذلك مثل مركز الدائرة بالنسبة لمحيطها .

يبد أن (الباطن) لا يعنى فقط الحقيقة ، وإنما يعنى كذلك السبيل الموصلة إليها ، أعنى : الطرق التي تقود الإنسان من الشريعة إلى الحقيقة . وإذا رجعنا إلى الصورة الرمزية : الدائرة ومركزها ، قلنا : إن الطريقة هي الخط الذاهب من محيط الدائرة إلى المركز ، وكل نقطة على محيط الدائرة هي مبدأ الخط . وهذه الخطوط التي لا تحصى ، تنتهى - كلها - إلى المركز .

إنها « الطرق » وهي طرق تختلف تبعاً لاختلاف الطبائع البشرية . ولهذا يقال : « الطرق إلى الله كنفوس بنى آدم » .

ومهما اختلفت فالهدف واحد : لأنه لا يوجد إلا مركز واحد ، وإلا حقيقة واحدة . على أن هذه الاختلافات الموجودة في المبدأ ، تزول شيئاً فشيئاً مع زوال الإثنية ، وذلك حينما يصل السالك إلى درجات عليا ، تزول فيها « صفات العبد » التي ليست إلا سجناً : « الفناء » فلا تبقى إلا الصفات الربانية ، وقد تحققت « الذات » بها : « البقاء » .

(٣٧) الشريعة أمر بالتزام العبودية ، والحقيقة مشاهدة الربوبية ، فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فقير مقصور ، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فقير محمول ، فالشريعة جاءت بتكليف الخلق ، والحقيقة إنباء عن بحريف الحق ، فالشريعة أن عبده ، والحقيقة أن قشده ، والشريعة قيام بما أمر ، والحقيقة شهود على ما أمر . سمعت الأستاذ أبا على الدقاق رحمه الله يقول : قوله إياك نعبد نحفظ شريعته ، وإياك نستعين إقرار بالحقيقة . واعلم أن الشريعة حقيقة من حيث إنها وجبت بأمره ، والحقيقة صفة شريعة من حيث إن المعارف به سبحانه أيضاً وجبت بأمره .

« عن الرسالة القشيرية »

والطريقة والحقيقة مجتمعتان يطلق عليهما : التصوف ، وهو ليس مذهباً خاصاً : لأنه الحقيقة المطلقة ، وليست الطرق مدارس مختلفة : لأنها طرق ، أى : سبل موصلة جميعها إلى الحقيقة المطلقة : « التوحيد واحد » .

ويجب أن يلاحظ أنه لا يمكن لأحد أن يطلق على نفسه أنه صوفي ، اللهم إلا إذا كان ذلك منه جهلاً محضاً ، لأنه بذلك يبرهن على أنه حقيقة ليس بصوفي : وذلك أن هذه الصفة « سر » بين الصوفي الحقيقي وبين ربه ويمكن أن يقول الإنسان عن نفسه : انه متصوف : وهو عنوان يطلق على « السالك » في أى مرحلة كان . ولكن الصوفي بمعناه الحقيقي ، لا يطلق إلا على من بلغ الدرجة العليا .

أما أصل هذه الكلمة : صوفي^(٣٨) ، فقد اختلف فيه اختلافاً كبيراً ، ووضعت فروض متعددة ، وليس بعضها بأولى من بعض ، وكلها غير مقبولة ، إنها في الحقيقة تسمية « رمزية » وإذا أردنا تفسيرها ، ينبغى لنا أن نرجع إلى القيمة العددية لحروفها ، وإن لمن الروائع أن نلاحظ أن القيمة العددية لحروف « صوفي » تماثل القيمة العددية لحروف : (الحكيم الإلهي) ، فيكون الصوفي الحقيقي هو الرجل الذي وصل إلى الحكمة الإلهية ، إنه (العارف بالله) إذ أن الله

(٣٨) هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة فيقال : رجل صوفي وللجماعة صوفية ومن يتوصل إلى ذلك يقال له متصوف وللجماعة : المتصوفة . وليس يشهد لهذا . الاسم من حيث العرية قياس ، ولا اشتقاق ، والأظهر فيه أنه كاللقب فأما قول من قال : إنه من الصوف وتصوف إذا لبس الصوف . كما يقال تقمص إذا لبس القميص : فذلك وجه ، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف . ومن قال إنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله ﷺ ، فالنسبة إلى الصفة لا تنحى على نحو الصوف . ومن قال إنه من الصفاء فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة . وقول من قال إنه مشتق من الصف ، فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم ، من حيث المحاضرة من الله تعالى ، فالملق صحیح ، ولكن اللغة لا تقتضى هذه النسبة إلى الصف ، ثم إن هذه الطائفة أشهر من يحتاج في تعيينهم إلى قياس لفظ ، واستحقاق اشتقاق .

« عن الرسالة القشيرية »

بعض الطرق فيما بعد (استعارت) أو بتعبير أصح (تبنت) بعض التفاصيل في الطريق وإن كان التشابه به هنا أيضاً يمكن أن يعزى إلى التماثل في المعارف ، وعلى الخصوص فيما يتعلق (بعلم المقاطع ، والأوزان في مختلف فروع) فإن أهمية ذلك لاتعدو أن تكون أهمية ثانوية ، لأن المس الجوهري من قرب أو من بعد والحق أن التصوف عربى إسلامى كما أن القرآن - الذى يستمد التصوف أصوله منه مباشرة عربى إسلامى . وإذا كان التصوف يستمد أصوله من القرآن ، فمن الطبيعى ألا يوجد قبل أن يفهم القرآن ويفسر ويتدبر تدبراً تفجر عنه يتابع (الحقائق) التى هى فى الواقع معناه العميق . ولقد فسر القرآن أولاً لغوياً ، ومنطقياً ، وكلامياً ، ولكن تفسيره صوفياً اقتضى مرور زمن لتأمله فى عمق وشمول . وإذا كان القرآن مصدر الشريعة والحقيقة معاً فلا يوجد بينها تناقض أو اختلاف ما . وكيف يوجد الاختلاف ومصدرهما واحد ؟ وكيف يوجد الاختلاف والحقيقة لاتقوم إلا على الشريعة فى أساسها وفى سندها ؟

التصوف الإسلامى والتصوف المسيحى المزعوم :

على أنه يجب ملاحظة أن التصوف الإسلامى - خلافاً للفكرة الشائعة حالياً عند الغربيين - لا يمت بأية صلة إلى ما يزعمون أنه تصوف مسيحى : أعنى ذلك النوع الذى يطلق عليه : «المستيسيم» . أما أسباب ذلك فإنها سهلة الفهم وقد تضمنها ما سبق من حديثنا وهى .

١ - يبدو واضحاً أن المستيسيم شىء خاص بالمسيحية . وإنه لتشبيه قائم على ضلال ، ذلك الذى يستندون إليه فى ادعاء وجود ما يماثل المستيسيم فى الأوساط التى لاتعتنق المسيحية .

ولاشك فى أن هذا الفهم الخاطئ يركز على شىء من التشابه الخارجى الذى يتمثل فى استعمال بعض التعبيرات . ولكن هذا لا يسوغ قط دعوى

التشابه ، وذلك لأن الفروق الجوهرية تفجأ النظر ولاتدع مجالاً للمستيسيم خاص بالمسيحية إذن .

٢ - ثم إنه جزء من الشريعة ، إنه من قسم الظاهر ، وهدفه بعيد كل البعد عن أن يكون المعرفة المحضة بينما التصوف على خلاف ذلك .

٣ - ثم إن المسيحى الذى اتخذ المستيسيم سبيلاً فى الحياة ينهج فى سلوكه منهجاً سليماً . إنه يقتصر على تلقى ما يأتية دون أن يكون له أثر شخصى ، إنه لا طريقة له إذن يسلكها ، هادفاً من وراء سلوكها إلى بلوغ غاية معينة .

ومن أجل هذا لم يكن فى المسيحية طرق صوفية . ولذلك لا يتخذ المسيحى (شيخاً) وليس عنده فكرة عن السلسلة أو الإسناد ، الذى بواسطته يصل إليه التأثير الروحى ، الذى لابد منه فى التصوف .

٤ - والاختلاف فى الهدف أيضاً واضح : فهدف التصوف المعرفة وهدف المستيسيم الحب ، والنتيجة الحتمية من كل ما سبق هى أن التصوف والمستيسيم مختلفان كل الاختلاف :

بل إن اللغة العربية لا تشتمل على أية كلمة تترجم - ولو تقريباً - كلمة مستيسيم : ذلك أن الفكرة التى تعبر عنها هذه الكلمة غريبة كل الغرابة عن السنة الإسلامية .

علوم التصوف

إن التصوف فى جوهره معرفة فى محيط ما وراء الطبيعة ، على أن التصوف وإن كان «معرفة» عليا ، فإن بعض العلوم يتصل به اتصالاً وثيقاً ، بل إنها ليست إلا تطبيقاً لبعض جوانبه ، وهذا مما يميزه أيضاً عن المستيسيم : من هذه العلوم علم الفلك القديم ، وهو ليس «تنجماً» كما يعتقد الباحثون الحديثون ، وإنما يتعلق بمعرفة أسمى وأعمق . وكذلك الأمر فى الكيمياء

إنها ليست استخراج الذهب الحقيقي ، وإنما كانت رمزاً لمعرفة لاصلة
 وليس لها بالكيمياء الحديثة أى ارتباط ، أو تشابه . إن الباحثين
 لا يعرفون عن المعنى الحقيقي لهذين العلمين شيئاً ، على أن هناك علوماً
 لا يعرف عنها متفلسفة العصر الحديث إلا اسمها ، مع أنها كانت من
 حيث تبلغ درجة العلوم الرياضية .

شروط التصوف :

الأول في التصوف من شرط جوهرى هو : التأثير الروحى ، أو بتعبير أدق
 وهى لا تنأى إلا بواسطة « شيخ » (١١) ، ومن هنا كانت السلسلة .
 السلسلة إلا بركات ، تنتقل من شيخ إلى مريد ، يوشك أن يصبح شيخاً ،
 مريد في مريد أو مريدين ؟

هذه الكلمة بملاحظة جوهرية ، تتعلق بطبيعة التصوف وهى : أن

يجب على المريد أن يتأدب بشيخ ، فإن لم يكن له أستاذ ، لا يفلح أبداً هذا « أبو يزيد »
 « يكن له أستاذ فإمامه الشيطان . وسمعت الأستاذ « أبا على الدقاق » يقول : الشجرة إذا نبتت
 « من غارس ، فإنها تورق . لكن لا تثمر ، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته ،
 فهو عابد هواه لا يجد نفاذاً .

الرسالة القشيرة

الإمام « نرازى » في الشيخ أن يكون مخلصاً صادقاً ، قد أتبع الصراط المستقيم
 « فلأن الوصول نارة بالجذبة على ما قال عليه السلام « جذبة من ج
 « وأخرى بالسلوك . والأول لا يصح أن يقتدى به ، لأنه مثل من و
 « إن كان ذا مال ، لكنه غير عالم بكيفية اكتساب المال ، فلا يتفجع به التلمية
 « واما الثاني فهو الذى يصلح لتربية المريد ، لأن من سلك الطريق ، وع
 « حلق على متاعها ومعاطيها ، أمكنه إرشاد الغير إلى سواء السبيل ، والإخبار
 « .

(شرح الإ

التصوف ليس عملاً علمياً ، ولا بحثاً نظرياً ، إنه لا يتعلم « أسطة الكتب » (١٢)
 على الطريقة المدرسية ، بل إن ما كتبه كبار مشايخ الصوفية أنفسهم لا يستخدم
 إلا كحافز مقو للتأمل ، والإنسان لا يصير بمجرد قراءته ، متصوفاً ، على أن
 ما كتبه كبار الصوفية لا يفهمه إلا من كان أهلاً لفهمه ، ولأجل أن يسير الإنسان
 في طريق التصوف لابد له من :

(١٢) من كلام الإمام « الغزالي » في المنقذ من الضلال :

« ثم إنى فرغت من هذه العلوم ، أقبلت بهمنى على طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقهم إنما تتم بعلم
 وعمل » .

وكان حاصل عملهم قطعهم عقبات النفس ، والنتزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى
 يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى ، وتخليته بذكر الله .

وكان العلم أيسر على من العمل ، فابتدأت بتحصيل علمهم ، من مطالعة كتبهم مثل : « قوت
 القلوب » لأبى طالب المكي - رحمه الله - وكتب « الحارث المحاسبى » ، والتفرقات الماثورة عن
 « الجنيد » ، « والشبل » و « أبى يزيد البسطامى » قدس الله أرواحهم ، وغير ذلك من كلام مشايخهم ،
 حتى اطلعت على كنه : مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم ، بالتعليم
 والسماح .

فظهر لى أن أخص خواصهم ، مالا يمكن الوصول إليه بالتعليم ، بل بالذوق والحال ، وتبدل
 الصفات .

« وبين أن يكون صحيحاً
 « أنجرة تتساعد من المعدة

علمه شىء .

وهو فاقد الصحة .

ون حالك الزهد . وعزوف

ل : وأن ما يمكن تحصيله

ل بالذوق والسلوك .

(المنقذ من الضلال)

١ - استعداد فطرى خاص (٤٣) ، لا يغنى عنه اجتهاد أو كسب .

٢ - الانتساب إلى « سلسلة » صحيحة ، إذ أن « البركة » التي تحصل من الانتساب إلى السلسلة الصحيحة هي الشرط الأساسى الذى لا يصل الإنسان بدونها إلى أى درجة من درجات التصوف حتى البدائية منها .

٣ - ثم يأخذ المتصوف ، الطيب الفطرة ، الذى باركه شيخه : فى الجهاد الأكبر : التأمل الروحى ، وفى الذكر : أى استحضار الله فى كل ما يأتى وما يدع ، وفى تركيز الذهن فى الملائ الأعلى ، فيصل موفقا من درجة إلى درجة ، حتى يصل إلى أعلى الدرجات ، وهى حالة تسمى على حدود الوجود المؤقت ، فيصبح ربانيا . ذلك هو الصوفى الحقيقى .

مقامات الوصول :

وحينا يقطع الإنسان الطريق ، يصل إلى الولاية .
والولى : إما أن يملك ولياً فقط ، فتكون معرفته خاصة ، أو يختاره الله لتأدية رسالة إلى الآخرين ، فيكون نبياً ، أو يكون رسولا .
والرسول نبى ولكن رسالته تأخذ صبغة عالمية . أما رسالة النبى فإنها محددة الأهداف محدودة المكان . إن الرسول مظهر الصفة الإلهية « الرحمن » فى جميع أنحاء العالمين . إنه « رحمة للعالمين » فلا تقتصر رسالته على دائرة خاصة .
ولا شك أن النبوة أسمى من الولاية ، ومع ذلك فقد رأى بعضهم أن مقام الولى « القرب » من الله بينا النبى متجه ، بطبيعة رسالته إلى الخلق ، ولكن

(٤٣) يرى الإمام « الرازى » أنه لابد - لتكون الرياضة نافعة - أن تكون نفس المريد : (مستعدة لهذا الحديث . ملائمة له : إذ لو لم يكن كذلك ، ما نجحت فيه الرياضة أصلا : لأن تأثير الرياضة ليس إلا فى إزالة العوائق ، ورفع الحجب والأستار . وزوال العائق ، لا يكتفى فى حصول المطلوب ، بل لابد معه من القابل المستعد ، فإذا لم تكن النفس مستعدة لم تعد الرياضة سعادة أصلا ، لكنها تفيد السلامة) .
(شرح الإشارات ١١٢)

ذلك خطأ محض ، فإن النبوة تتضمن الولاية فهى متضمنة لمقام القرب ، ثم إنها أكثر من الولاية ، وعلى ذلك فإن حالة الولى « ناقصة » بالنسبة لحالة النبى ، إنها ليست قاصرة بالنسبة لطبيعتها الخاصة ، ولكنها قاصرة بالنسبة لدرجتها فى العموم . وهذا العموم يصل إلى درجات ازدهاره فى الرسالة : إذ هى عالمية ، والرسول لا غيره - هو حقيقة « الإنسان العالمى » .

وللرسول - كما للنبى - اتجاهان :

١ - اتجاه داخلى : إنه الاتجاه نحو الحق .

٢ - اتجاه خارجى : إنه الاتجاه نحو الخلق .

ودرجة الرسول العالمية أسمى من درجة النبى المحددة ، ودرجة النبى المحدودة ، أسمى من درجة الولى الخاصة ، ومقام الجميع القرب .

التصوف والدين الإسلامى

ألتصوف صلة بالدين ؟

الواقع : أنه لا يوجد صوفى لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، ذلك لأن التصوف لا يخلو من الغاية ، وغايته دائماً روحية : رضا الملاً الأعلى ، حب الله ، الاتصال به ، الفناء فيه ليصبح عارفاً به سبحانه ، تلك هى الأغراض التى يسعى إليها ، أو إلى بعضها الصوفى لذلك لا يتأتى لشخص ليس بمؤمن أن يسعى إليها ، ذلك أن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بكماله ، والسعى وراء هذا الكمال . وهى إذن : مجاهدة ضد النفس والأهواء والشهوات ، حتى يصل الإنسان إلى الغايات التى وضعتها سابقاً ، وهذه الغايات تقوده نحو الكمال ، أو نحو المثل العليا . ولكن التخلق بأخلاق الله ، لا يتأتى إلا عن طريق الوعى المعصوم ، فلا بد إذن من اتباع تعاليم الرسول اتباعاً سليماً . وبالتالي فإنه لا يتأتى أن يوجد تصوف قط ما لم يكن اتباع كامل لشريعة صادقة ، وإن التصوف الإسلامى لم يوجد إلا باقتداء الصوفية اقتداء تاماً برسول الله ﷺ . لقد أحبوه واتبعوه وحققوا بذلك قول الله تعالى :

﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ .

ويمكننا أن نقول فى صراحة أكثر : إنه لا يوجد الآن تصوف إلا فى المحيط الإسلامى ، وذلك أنه لا يوجد الآن نص مقدس لم يدخله التحريف إلا فى النصوص الإسلامية ، إن القرآن كلام الله وهو الآن كما كان أيام رسول الله

ﷺ ، وقد سرف ذلك بعض الغربيين الذين استنارت بصائرهم فاعتنقوا الإسلام ، مستمسكين بوحية سائرهم على نسق رسوله ، مستجيبين إلى أوامره مجتنبين نواهيهم ، وساروا في الطريق فوصلوا إلى روضات القرب من الله سبحانه ، وكل من لم ينطلق من الشريعة الصادقة والاتباع الدقيق فإنه لا يصل إلى شيء من درجات الصوفية . إن الصوفية لا تتأني إلا بالاعتداء ، والقدوة المعروف الآن سيرتها في صدق و يقين هو رسول الإسلام محمد ﷺ ، إنه الأسوة الوحيدة الآن لكل من يحب القرب من الله في صدق .

لقد تناقش الناس كثيراً في كون محمد ﷺ هو القدوة ، لصوفية الإسلام ، بل سخر بعضهم حينما كانوا يسمعون أن محمداً ﷺ ، أول صورة حملت الصوفية على اقتفاء آثارها .

والواقع : أن التصوف لا يعدو أن يكون جهاداً عنيفاً ضد الرغبات ، ليصل الإنسان إلى السمو ، أو إلى الكمال الروحي : ليكون عارفاً بالله .

وليس من عناصر فكرة الاتحاد أو الوحدة أو الحلول : بل إن فكرة الاتحاد والوحدة والحلول يتبرأ منها الصوفية ، وهم بعيدون عنها كل البعد ، على الرغم مما يقذف به أعداؤهم . وماتهامات أعدائهم إلا اتهامات أعداء .

هذا هو ، المحاسبي ، الذي لا يشك في أنه : من زعماء الصوفية ، ليست عنده فكرة الاتحاد ، أو الحلول أو ماشا كل ذلك من حالات السكر التي يشعر بها بعض الصوفية حينما تسيطر عليهم فكرة الله ، فتأخذ بنفوسهم وحواسهم ، وتأخذ بكل ما فيهم من تفكير ، فيرون ، في النهاية ، أنه :

﴿ أينما تولوا فثم وجه الله ﴾ .

و « إن الله معنا » .

وإذا كان - الاتحاد ، والحلول ، ووحدة الوجود - ليس من عناصر التصوف وأن عنصره الأساسي - كما يتضح ذلك من تاريخ الصوفية : المحاسبي ، أو الغزالي ، أو رابعة العدوية ، أو كثير غيرهم - : ليس إلا جهاد لرضاء الله وتركبة النفس حتى تعرف الله به . . إذا كان الأمر كذلك فإننا نعتقد - ولسنا في ذلك الرأي من المجددين - أن محمداً ﷺ ، كان أول قدوة لصوفية الإسلام .

بقي الحديث عن القرآن ، وقد كثرت الكلام فيه أيضاً ومحط النزاع هو أن القرآن ، كتاب دنيا وآخرة ، يدعو إلى هذه وتلك ، ويقول ، في صراحة وإيجاز : ﴿ ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ .

أما التصوف ، فهو : توكل وزهد ، وليس له من هذه الحياة الدنيا قليل ولا كثير .

والحقيقة : أن كلا من هذين الرأيين يحتاج إلى تحديد ، فالقرآن ليس كتاب دين ودنيا على الإطلاق : إنه لا يسوى بين الدنيا والآخرة ، والصوفي : ليس رجل آخرة فقط ، لأنه يصارع في الحياة صاعداً بها نحو الكمال .

أجل : إن القرآن يدعو إلى ألا ننسى نصيبنا من الدنيا وإلى أن نكون أقوياء ، وإلى أن السن بالسن ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والجروح قصاص ، وإلى أن الجهاد واجب على كل مسلم ، وأسس القرآن تشريعاً لكثير من المشاكل الدنيوية .

كل هذا صحيح .

ولكننا لو نظرنا بتأمل ، لوجدنا أن الحياة الآخرة - في نظر القرآن - خير

وأبقى ، وأن أكرمكم عند الله أتقاكم .

وأن الحياة الدنيا لعب ، ولهو ، وزينة وتفاخر ، وأنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة .

ثم هو بعد ذلك يذكر أن عباد الرحمن : هم ﴿ الذين يمشون على الأرض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون ، قالوا سلاماً ، والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ﴾ إلى آخر ما في القرآن من آيات ، ترشد إلى أن الحياة في هذا العالم هي - حقاً هي الحياة « الدنيا » وأن الآخرة خير وأبقى .

والجهاد يدعو إليه الإسلام من أجل الآخرة وهو جهاد في سبيل الله وقد رفع الصوفية رايته خفاقة في كل العصور .

أما أن الصوفي : رجل آخرة فقط فهذا أيضاً فيه كثير من الوهم ، أو على الأقل . عدم التحديد ، فهذا الصوفي يتزوج ، ويدعو هو الآخر ، إلى أن اليد العليا خير من السفلى ، وأن المؤمن القوى ، خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وأن العيش من كسب حلال طيب : خير من أن يتكفف الإنسان الناس : أعطوه ، أو منعه ، ولكنه مع ذلك يتمذهب بمذهب القرآن : ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ .

فعنى إثاره للآخرة إذن ، إنما : هو أن يريد بكل عمل من أعماله وجه الله تعالى .

وما من شك في أن القرآن الكريم ، والرسول ﷺ ، يطويان جميع المسائل ويضعانها تحت لواء الله سبحانه ، إنهما يصبغان كل عمل من أعمال الإنسان بصيغة الله : يريدان أن يكون كل عمل إنما يراد به وجه الله سبحانه ، فتكون الأعمال بهذا عبادة ، وتكون الدنيا ديناً ، ويكون الإنسان إلهياً يتخلق بأخلاق الله .

التصوف والتحلل من الشريعة الإسلامية

١

في كل ميدان من الميادين نجد الأدعياء ، نجدهم في الميدان الديني ، وفي الميدان السياسي ، وفي الميدان العلمي ، ونجدهم كذلك في ميدان التصوف . وهدف هؤلاء الأدعياء معروف : إنه الاستفادة المادية من أقصر الطرق . وكما لا يضر الدين ، ولا يضر العلم ، أن يتسبب إليه الأدعياء المزيفون : فكذلك الأمر فيما يتعلق بالتصوف .

وكما أن للدين وللعلم حقائق معروفة ، وسمات معينة ، وحدوداً من شأنها أن تظهر زيف المزيفين وباطل المبطلين ، فكذلك الأمر في الجانب الصوفي . نقول هذا بمناسبة ما سمعناه حديثاً عن بدعة ضالة ، أخذت تتسرب إلى بعض النفوس التي لم تتعمق في الجانب الديني عموماً ، ولا في الجانب الصوفي خصوصاً .

هذه البدعة ترى : أن الشخص الذي وصل إلى مرتبة معينة من المعرفة تسقط عنه التكاليف الشرعية ، فليس عليه صلاة ولا زكاة ولا حج . . . ولا غير ذلك مما يلتزمه المسلمون .

ومن المؤسف أن تكون هذه الفكرة قد نشأت أول ما نشأت - في العصر الحاضر - بين رجال درسوا القانون والتشريع : يزعمون أنهم وصلوا إلى درجة من المعرفة الصوفية العليا ، وإلى حد لا تجب عليهم فيه التكاليف الشرعية . وإذا بحثت عن مصدر هذه المعرفة التي وصلتهم ، فسترى عجباً عجاباً ؛

ستعلم أن مصدر هذه المعرفة إنما هو الأرواح التي يستحضرونها فتلبس - فيما يزعمون - جسم الوسيط وتتقمصه ، وتكشف لهم عن الغيب من أزله إلى أبده ومن بدايته إلى نهايته . ومن مشرقه إلى مغربه ! !

وقد انتشرت بدعة تحضير الأرواح في وسطهم ، يتحدثون عنها مصبحين ومسيين ، حتى لقد أصبحت دينهم الذي لا يدينون بغيره ، ولا عن سواه ، وأصبحت كلمة الأرواح عندهم ، تحل محل القرآن المطهرة .

ومن الغريب أنهم يدعون انتسابهم إلى التصوف ، ويزعمون الصوفية ، ومن أساطين العارفين ، ومن عباقرة الملهمين . وقد بلغ الأمر بأحدهم أن زعم ، في فترة من الفترات الأولياء ثم لم يكفه ذلك ، فزعم أنه رسول ملهم ، ثم تجاوز ذلك عليه السلام ، ثم كان فيما بعد محمداً ، ﷺ ، ثم تخلص من فزعم لأخصائه أن الألوهية حلت فيه ، والأرواح التي يستحضرون ما يزعم ولا ترى هذه الأرواح ، كما لا يرى هو ، في ذلك شذو وصدق الله تعالى ، إذ يقول فيه وفي أمثاله ممن يتصلون بالجن سواء السبيل .

﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم سعيراً ﴾ ولعلك تتساءل : هل بين تحضير الأرواح والتصوف من وجواب رجال التصوف في ذلك حاسم قاطع : ليس هناك من صلة بين تحضير الأرواح والتصوف ، اللهم هناك صلة بين المتناقضات .

إن رجال التصوف يعتبرون تحضير الأرواح عملة زائفة ، لأنها تعامل مع الجن والشياطين ! ! ويتذكرون في هذه المناسبات قول الله تعالى : ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ؟ تنزل على كل أفك أثيم ، يلقيون السمع وأكثرهم كاذبون ﴾ .

بطاناً فهو له قرين . وإنهم

الأرواح ، كظاهرة خداعة والضلال والانحراف الذي لنا ، أن نبين نشأتها التاريخية ، وأنفقت في سبيل نشرها ، بسر انتشار هذه الدعوة :

فية من مسألة : « إسقاط يزعمون التصوف في العصر إن كان السبق في العمل له

تسبب إلى التصوف تنساباً كل بيئة .

من المشكلات إنما يرجع فيه كلة وإذا رجعنا إلى حواء قضية التصوف المنقذ من

التصوف الذين لا يختلف في زعامتهم اثنان نجدهم - سواء في ذلك القدماء منهم والمحدثون - نجدهم ينكرون الفكرة إنكاراً تاماً ، ويرونها زيفاً وضلالاً وانسلاخاً عن الدين بالكلية .

وستحدث عن آراء بعض القدماء في هذا الموضوع ، ثم نفصل ، نوعاً ما ، رأى الشيخ عبد الواحد بجي ، وهو زعيم علم من زعماء الصوفية في العصر الحديث .

قال أبو يزيد البسطامي لأحد جلسائه :

« قم بنا ننظر إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية - وكان رجلاً مشهوراً بالزهد - فضينا إليه ، فلما خرج من بيته ودخل المسجد ، رمى ببصاقه تجاه القبلة ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه ، وقال : « هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ، ﷺ ، فكيف يكون مأموناً على ما يدعيه ؟ ! » ومن كلام أبي يزيد .

« لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات ، حتى يرقى في الهواء فلا تغفروا به ، حتى تنظروا كيف تجددونه عند الأمر والنهي ، وحفظ الحدود وأداء الشريعة ؟ » .

ويقول سهل التستري معبراً عن أصول التصوف : « أصول طريقنا سبعة : المحسك بالكتاب ، والافتداء بالسنة ، وأكل الحلال ، وكف الأذى وتجنب المعاصي ، ولزوم التوبة ، وأداء الحقوق » .

ويقول الجنيد - سيد هذه الطائفة وإمامهم على حد تعبير القشيري . « من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ، لا يقتدى به في هذا الأمر ، لأن علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة » .

وقال :

« علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ » .

وقال :

« الطرق كلها مسدودة على الخلق ، إلا على من اقتنى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام ، واتبع سنته ولزم طريقته » .

وذكر رجل المعرفة أمام الجنيد وقال :

« أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل » .

فقال الجنيد :

« إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال ، وهو عندي عظيمه ، والذي يسرق ويؤذي أحسن حالا من الذي يقول هذا » .

فإذا ما وصلنا إلى الإمام الغزالي ، فإننا نجد يقول ، في شيء من التفصيل ، فيه دقة ، وفيه استدلال غاية في القوة .

« واعلم أن سالك سبيل الله تعالى قليل ، والمدعي فيه كثير ، ونحن نعرفك علامة له :

وذلك أن تكون جميع أفعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع ، موقوفة على توقيفاته إيراداً وإصداراً ، وإقداماً وإحجاماً ، إذ لا يمكن سلوك هذا السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها ، ولا يصل فيه إلا من واظب على جملة من النوافل ، فكيف يصل إليه من أهل الفرائض ؟ !

فان قلت : فهل تنتهي رتبة السالك إلى الحد الذي ينحط عنه فيه بعض وظائف العبادات ، ولا يضره بعض المحظورات ، كما نقل عن بعض المشايخ من

وأقول لك : اعلم أن هذا عين الغرور ، وأن المحققين قالوا :
« ولو رأيت إنساناً يطير في الهواء ، ويمشي على الماء ، وهو يتعاطى أمراً
يخالف الشرع ، فاعلم أنه شيطان ... » وهو الحق .
فإذا ما انتهينا أخيراً إلى أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه ، فإننا نجد
يقول :

« إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ، ودع
الكشف وقل لنفسك إن الله تعالى ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم
يضمنها في جانب الكشف ، ولا الإلهام ولا المشاهدة ، إلا بعد عرضها على
الكتاب والسنة » .

والصوفية يتبعون في كل هذا ، النصوص القرآنية والسنة القولية والعملية
لِلرَّسُولِ ﷺ ، وهم يعلمون - لاشك - البدييات التاريخية من أن الرسول
ﷺ ، كان المثل الأعلى في أداء الشعائر إلى آخر لحظة من حياته الطاهرة .
هذا رأى القدماء ، وخير ما نختمه به إنما هو الحديث النبوي الكريم .
« وسئل النبي ﷺ ، عن قوم تركوا العمل بالدين وأحسنوا الظن في الله
فقال : كذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل .

التصوف والتحلل من الشريعة الإسلامية

٢

« رأى المرحوم الشيخ عبد الواحد مجي » (١)

يبدو أن كثيراً من الناس يشكون في ضرورة التزام الشريعة لمن يريد أن
يسلك السلوك الصوفي . وهذا في الواقع استعداد نفسي لا يوجد إلا في الغرب
الحديث .

ولاشك في أن أسباب ذلك متعددة ولا يعنينا هنا البحث في مدى المسئولية
التي تقع على عاتق رجال الدين أنفسهم ، الذين يميلون إلى إنكار كل ما يتجاوز
حدود الشريعة في مظهرها الحرفي ، فليس ذلك جوهر بحثنا هنا .

يبدو أنه من المدهش أن بعض من يزعمون الانتساب إلى التصوف يقعون فيما
وقع فيه رجال الشريعة ، وإن كان بطريقة عكسية ؛ ذلك أنهم ينكرون ضرورة
الشريعة أو يهملون العمل بها .

وقد يكون من المحتمل أن نرى أحد ممثلي الشريعة بحسب التصوف ، وإن
كان جهله لا يبرر إنكاره ؛ ولكن ليس من المحتمل وليس - لطبيعي أن يجهل
رجل التصوف ميدان الشريعة ، ولو من جانبها العملي ذلك - الأكثر ، وهو :
« التصوف » يتضمن بالضرورة الأقل ، وهو : « الشريعة » ،

على أن نظرة من يريد أن يسلك السلوك الصوفي ، إلى الشريعة ، من حيث

(١) وهو في هذه الكلمات يكتب عن تجربة وخبرة وممارسة لا عن نظرة فحسب .

عدم أهميتها ، وعلى الخصوص ، أهمية الجانب العملي منها بالنسبة له . . . هذه النظرة تتضمن ، ولو نظرياً ، تقليل أهمية الجانب العملي في التصوف نفسه وفي هذا الخطورة كل الخطورة ، فإنه من المشكوك فيه كثيراً ، أن يتوفر للشخص الذي عنده هذه الفكرة ، الاستعداد الصوفي ، ومن الخير له أن يلتزم الشريعة التزاماً كلياً قبل يبدأ السلوك ، فإذا لم يمكنه التزامها فلا خير فيه ، بالنسبة للجانب الصوفي .

إن تقليل شأن الشريعة إنما هو مظهر من مظاهر الروح التي لا تبالي بما أنزل الله . وعادة تكون الروح الخاضعة لما أنزل الله هو أول خطوة في طريق السالكين .

وتجاهل الناحية العملية : إنما هو سمة من سمات الغرب الحديث على الخصوص ؛ ومن الطبيعي أن يقوم الجو الديني الذي يعيش فيه الغربيون عقبة في سبيل فهمهم للجانب العملي من الشريعة وممارستها له ، بيد أن مقاومتهم لهذا الجو الديني ، هو بالضبط العلاج لانحرافهم هذا ، وهو السبيل إلى عودتهم إلى النهج المستقيم ، أعني التزام الشريعة .

قلنا : إن الاتجاه النفسي الذي نتحدث عنه هنا : إنما هو سمة من سمات الغرب الحديث ، وفي الواقع لا يمكن أن يوجد هذا الاتجاه في الشرق ، ذلك أن الروح الدينية الصحيحة لا تزال مهيمنة في بيئاته .

ثم إن الشريعة والحقيقة متصلتان اتصالاً يجعل منهما مظهرين لشيء واحد ، أحدهما ، خارجي ، والآخر داخلي ، أو أحدهما ظاهر والآخر باطن .

لذلك كان ما يوجد في الغرب الآن من جماعات تدعى أنها على النهج الصوفي ، وهي مع ذلك لا تركز على أية شريعة إلهية ، مجرد خداع ، ومن

البديهي أن هذه الجماعات - ومن وجهة النظر الصوفية الصحيحة - ليست على شيء .

ولشرح الأشياء بأبسط الطرق نقول :

إن الإنسان لا يشيد القصر في الهواء إنه لا يشيده على أساس ، وكل فكرة لا تركز على أساس من السنة الصحيحة : إنما هي بناء في الهواء ، إنها بناء على غير أساس .

والبناء الذي يمكن أن يبقى على الدهر لابد له من أساس مدعم ، وعلى الأساس يركز البناء كله ، حتى الأجزاء العليا منه ، والارتكاز على الأساس يستمر حتى بعد انتهاء البناء .

وعلى هذا النمط تكون النسبة بين الشريعة والتصوف ، فالشريعة الصحيحة هي الأساس الذي لابد منه لكل سالك ، وكالأساس تماماً ، لا يمكن طرح الشريعة بعد سلوك الطريق .

بل نقول أكثر من ذلك : إنه كلما سار التصوف في طريقه واستغرق فيه ، بدت له ضرورة الشريعة ، واستنارت معرفته بها ، وأصبح فهمه لها أكثر عمقاً وأكثر دراية بحقيقتها من هؤلاء الذين درسوها وآمنوا بها ، دون أن يضربوا بسهم في الميدان الصوفي ، ذلك أنهم لا يرون من الشريعة إلا مظهرها الخارجي ولكن الصوفي يعيش في جوها الروحي ، ويحيها ، إذا أمكن هذا التعبير .

على أن هذا الذي لا يعتنق شريعة صحيحة ولا يلتزمها ، لا يمكن أن يحيا إلا حياة دنيوية بحتة ، فلا يمكن أن يطلق عليه رجل دين ، فضلاً عن أن يطلق عليه وصف الصوفي .

على أن الغربيين الذين يجعلون الدين بمعزل عن نشاطهم اليومي ، كما هو

شأن الأكثرية الساحقة منهم ، لا يمكن أن يوصفوا بأنهم متدينون ، وإن امنوا ببعضى وأدوا الشعائر الكنسية .

وإذا كان لا يقبل من رجل الدين أن يعلن تدينه دون أن يجعل للشرعية السيطرة على قياده ، فإنه لا يقبل من باب أولى من رجل التصوف أن يزعم انتسابه إلى الصوفية دون أن تسيطر شعائر الدين والتزاماته على حياته .

وهناك ، لاشك ، نوعان من الحياة : حياة دينية ، وحياة دنيوية ، ومع ذلك فالفرق بينهما إنما هو من جهة ما تصطبغ به فكرة الإنسان عن الأعمال التي يؤديها .

أريد أن أقول : إن الأعمال في نفسها لا توصف بأنها دينية أو دنيوية وإنما يتأني لها أحد الوصفين بسبب سيطرة الفكرة الدينية عند القائم بهذه الأعمال أو عدم سيطرتها ، وقد يكون العمل واحداً في نوعه ويؤديه شخصان فيوصف عند أحدهما بأنه ديني وعند الآخر بأنه دنيوي . فإن كان القصد « الله » فالعمل ديني وإن كل القصد شيئاً آخر فالعمل دنيوي ، والحديث الشريف يوضح هذه الفكرة كل التوضيح :

« إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه »^(٢) .

ومن البديهي أن الحديث في أوله عام بالنسبة لكل الأعمال ، وأن مسألة الهجرة فيه : تطبيق جزئى لقضية عامة .

وفي العصور القديمة لم يكن هناك تفرقة بين دين ودنيا ، بل لم يكن هناك

(٢) رواه البخارى في صحيحه .

مجرد الفهم أو مجرد التخيل لفكرة الانفصال هذه ، وإنما نشأت هذه الفكرة حينما تدهورت الإنسانية وانحطت شيئاً فشيئاً ، وهانحن أولاء قد وصلنا في هذا التأخر إلى أن الغرب حالياً يصعب عليه كل الصعوبة أن يفهم فكرة : ضرورة سيادة الروح الدينية في مجتمعاته ، إنه على نهج انفصالي لا يوجد في الحياة السليمة .

وإننا نرى ضرورة التزام الشريعة لكل إنسان ، ولكننا نؤكد - ونحن على يقين من الأمر - هؤلاء الذين يريدون أن يسلكوا الطريق الصوفى بأنهم لن يصلوا حتى إلى أولى مراحل الطريق إذا لم يلتزموا الشريعة التزاماً تاماً وبالله التوفيق .

التصوف والتحلل من الشريعة الإسلامية

٣

فتوى للإمام الغزالي^(٣)

كتب له بعض الزائغين :

ما قوله ، متع الله المسلمين ببقائه ، ومتع الطالبين بمشاهدته ولقائه ، ومنحه أفضل ما منح أفضل خاصته من أصفياه وأوليائه ، في قلب خصه الحق بأنواع من الطرف والهدايا ، ومنحه أصنافاً من الأنوار والعطايا ، يستمر له ذلك في جميع الأوقات والأحوال ، متزايدة مع عدم العوائق والآفات .

مع كون ظاهره معموراً ، بأحكام الشرع وأدائه ، متزهاً عن مآثم ومخالفاته ويجد في الباطن مكاشفات وأنواراً عجيبة .

ثم إنه انكشف له نوع يعرفه ، أن المقصود من التكليف الشرعية ، والرياضات الدينية : هو القظام عما سوى الحق ، كما قيل لـ « موسى » ﷺ :

ترقى من

ل حفظ

مية ، وهي

تور سليمان

الباطن ، وتشوش عليه بالالتفات عن أنواع الواردات الباطنية ، إلى مراعاة أمر الظاهر .

وهذا الرجل لا يتزل يده من التكليف الظاهر ، ولا ينصر في أحكام الشريعة ، ولكن الاعتقاد الذي كان له في الظواهر والتكاليف ، تناقص وتقاصر عما كان في الابتداء من التعظيم لوقعها عنده ، ولكنه ياشرها ويواظب عليها عادة ، للأجل الخلق ، وحفظ نظرهم ومراقبة الله ، بل صارت إلفاً له ، وإن نقص اعتقاده فيها ، فهو يعظمها .

ما حكمها ؟

ثم إن عرضت له شبهة :

« أن المقصود من الداعي والدعوة ، حصول المعرفة والقربة وإذا حصل هذا استغنى عن الداعي ، والواسطة » .

كيف معالجتها ؟

« فإن قلنا : المعرفة لا تنتهى أبداً ، بل تقبل الزيادة أبداً ، فلا يستغنى عن الداعي أبداً . لا محالة .

فربما قال : الداعي قد بين ما احتيج إلى بيانه ، وشرح معالم الطريق وذهب . فلو احتاج السالك إلى مراجعته في زوائد وإيرادات ، لم تمكن المراجعة في هذه الحالة .

فيقول :

ما هو طيب علتي في هذه الحالة ؛ لأنه غاب عن إمكان المراجعة ، فما علاجه ؟

نعم : فالجواب مسوق حسبما عود من شافي بيانه :

أحدهما : انتفاع الولد براحتته ، وذلك قد أدركه الولد بعقله .
والثاني : اندفاع الحيات المهلكات براحتته وذلك بما قصر عن دركه بصيرة
الولد فاغتر الولد بما عنده من العلم ، وظن أنه لا سر وراء معلومه ومعهوله كما قال
تعالى :

﴿ ذلك مبلغهم من العلم ﴾

وقال :

﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم ﴾ .

والغرور من اغتر بعقله فظن أن ما هو متف عن علمه ، فهو متف في
نفسه .

ولقد عرف أهل الكمال أن قلب الآدمي : كذلك القصر ، وأنه معش
حيات وعقارب مهلكات ، وإنما رقيتها وقيدتها بطريق خاصة : المكورات
والمشروعات .

بقوله سبحانه :

﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾ .

وقوله تعالى :

﴿ كتب عليكم الصيام ﴾ .

فكما أن الكلمات الملقوطة والمكتوبة في الرقية تؤثر بالخاصة في استخراج
الحيات ، بل في استسحار الجن والشياطين .

وبعض الأدعية المنظومة المأثورة تؤثر في استئالة اللاتكة إلى السعي في إجابة
الداعي ويقصر العقل عن إدراك كلفيته وخاصيته ، وإنما يدرك ذلك بقوة
النوبة ، إذا كوشف السر بها من اللوح المحفوظ .

الجواب : وبالله التوفيق : ينبغي أن يتحقق هنا أن من ظن أن المقصود من
التكاليف والتعبد بالفرائض : القطام عما سوى الله والتجرد له ، فهو مصيب في
ظنه أن ذلك مقصود ، ومخطئ في ظنه أنه كل المقصود ، ولا مقصود سواه .
بل لله تعالى في الفرائض التي استعبد بها الخلق أسرار سوى القطام ، تقصر

بضاعة العقل عن دركها .

ومثل هذا الرجل النخدع بهذا الظن ، مثل رجل بنى له أبوه ، قصراً على
رأس جبل ووضع فيه شجرة من حشيش طيب الرائحة ، وأكد الوصية على
ولده مرة بعد أخرى ، ألا يخل هذا القصر عن هذا الحشيش طول عمره .
وقال : إياك أن تسكن هذا القصر ساعة من ليل أو نهار إلا وهذا الحشيش

فيه .

فزرع الولد حول القصر أنواعاً من الرياحين ، وطلب في البر والبحر أنواعاً
من العود والعنبر والمسك ، وجمع في قصره جميع ذلك من شجرات كثيرة من
الرياحين الطيبة الرائحة .

فانتعرت رائحة الحشيش لما فاحت هذه الروائح .

فقال : لاشك أن والدي ما أوصاني بحفظ هذا الحشيش إلا لطيب
رائحته ، والآن قد استغنينا بهذه الرياحين عن رائحته ، فلا فائدة فيه الآن إلا أن
يضيئ على المكان ، فرماه من القصر .

فلما خلا القصر من الحشيش ، ظهر من بعض نقب القصر حية هائلة ،
وضربه ضربة هائلة أشرف بها على الهلاك فنبهه حيث لم يتفقه التنبه إلى أن
الحشيش كان من خاصيته دفع هذه الحية المهلكة ، وكان لأبيه بالوصية
بحشيش غرضان .

فكذلك صورة الصلاة المشتملة على ركوع واحد ، وسجودين ، وعدد مخصوص ، وألفاظ معينة من القرآن ، متلوة مختلفة المقادير : عند طلوع الشمس وعند الزوال ، والغروب ، تؤثر بالخاصة في تسكين التنين المستكن في قلب الآدمي الذي يتشعب منه حيات كبيرة الرؤوس بعدد أخلاق الآدمي ، يلدغه وينهشه في القبر ، متمكناً من جوهر الروح وذاته أشد إيلاماً من لدغ مكن من القالب أولاً ثم يسرى أثره إلى الروح .
والله الإشارة بقوله ﷺ .

« يسلط الله على الكافر في قبره تنينا ، له تسعة وتسعون رأساً صفته كذا وكذا ... » الحديث .

ويكثر مثل هذا التنين في خلق الآدمي ، ولا يقيمه إلا الفرائض المكتوبة فهي المنجية من المهلكات ، وهي أنواع كثيرة بعدد الأخلاق المذمومة .
﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾

• • •

فإذن في التكليف غرضان :

أدرك (هذا المغرور) أحدهما ، وغفل عن الآخر .

وقد وقع له « أبي حنيفة » مثل هذا الظن في الفقهيات ، فقال :
« أوجب الله في أربعين شاة ، شاة . وقصد به إزالة الفقر ، والشاة آلة في الإزالة ، فإذا حصل بمال آخر فقد حصل تمام المقصود » .

فقال « الشافعي » رضي الله عنه :

« صدقت في قولك : إن هذا مقصود ، وركب متن الخطر في حكمك بأنه لا مقصود سواه ، فيم تأمره : إذ يقال له يوم القيامة : كان لنا سر في إشرارك

الغير الفقير ، مع نفسه في جنس ماله ؟ كما كان من يرمى سبعة أحجار في الحج يؤدي بدلها خمس لآل ، أو خمس أكبر إذ لم يقبله .

وإذا جاز أن يتمحض التقييد في الحج ، وأن يتمحض المعنى المعقول معاملات الخلق فلم يستحل أن يجمع المعقول والتقييد جميعاً في الزكاة ، فتكون إزالة الفقر معقولة ، والسر الآخر غير معقول » .

وزاد « أبو حنيفة » على هذا فقال :

« المقصود من « كلمة التكبير » الثناء على الله بالكبرياء ، فلا فرق بينه وبين ترجمته بكل لسان ، وبين قوله « الله أعظم » .

فقال « الشافعي » .

وم علمت : أنه لا فرق في صفات الله بين « العظمة » و « الكبرياء » مع أنه تعالى يقول :

« العظمة » إزارى و « الكبرياء » ردائى ، و « الرداء » أشرف من « الإزار » وهلا استنبط مقصود « الخضوع » من « الركوع » وأقمت مقامه السجود ... ؟
لأنه أبلغ منه في الاستكانة .

فإن قلت : لعل الله سرا في الركوع خاصة ، سوى ما فهمناه .

فلم يستحيل أن يكون له سر في كلمة « السلام » فلا يقوم مقامه « الحديث » وكل خطاب للآدمي ، وأن يكون له سر في القرآن المعجز ، ولا يقوم مقامه غيره وقد أقام الترجمة مقامه ، وأن يكون له سر في الفاتحة ، وقد أقام مقامها سائر القرآن .

فإن كان يقول : المقصود معاني القرآن ، وتأثر القلب ، لآحروفه وأصواته فإنها آلات ، فهلا قال : المقصود من حركة اللسان تأثر القلب ، فليكف عن

المجلوس مع الله تعالى ، على هيئة الإجلال والذكر ، والسؤال بصورة

جميع ما ذكر « أبو حنيفة » بطلان مظنون غير مقطوع .

١- فائدة القراءة بالقلب ، مع ترك حركة اللسان ، وملازمة الذكر ، مع الدعاء والسجود وصورة الصلاة ، فمقطوع بطلانها بالإجماع ، وهذا ذلك الخيال الضعيف إلى خرق الإجماع ومخالفة الشرع القاطع .

٢- كان الميت في المعرفة بمجرد عن الصور ، ويطرح الصور فيطفيء نورها ، فيثور عليه التنين في قبره فيتعجب منه ، ويدوله من الله مالم يحسب . فإذا أصابته ضربة التنين قال : ما هذا ؟ فيقال : إنما كان تريباً من صور القرائض المكتوبة ، وإليه الإشارة بما يروى :

« الميت يوضع في قبره : فتأتيه ملائكة العذاب من جهة رأسه ، والقرون تأتيه من جهة رجله فيدفعها الحجج . » الحديث .
« أمر هذا المغرور على جهالته ، وقال : من بلغ رتبة الكمال ، كما بلغت التين وظهر باطنه عنه ، فيقال له : إنك مغرور في أمرك :
« لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » .

٣- فمن أن يكون التنين مستكنًا في صميم القواد ، استكنان الجمر تحت النار في الرماد ، وإن مات فيعود حيًا فإن منبته ومنبعه هذا الذي هو مظنة الشهوات والصفات البشرية ، وقلع الحشيش لا يؤمن بحري . أن يتجدد نباته مها كانت الأرض معرضة لانصباب الماء إليها .

فكذلك القلب مادام مصباً لواردات المحسات والشهوات ، لم يؤمن فيه عود النبات بعد الانقطاع والانبثات .

• • •

وننبه على هذه المعرفة بالتأمل في ثلاثة أمور :

الأول : بداية حال « إبليس » ، وأنه كيف وصف بأنه كان معلم الملائكة ، ثم سقط عن درجة الكمال بمخالفة أمر واحد : اغتراراً بما عنده من العلم ، وغفلة عن أسرار الله في الاستبعاد ، ولم يسقط عن درجته إلا بكياسته ، وفطنته وتمسكه بمقولته ، في كونه خيراً من آدم عليه السلام .
فننبه الخلق بهذا الرمز على أن البلاء أدنى إلى الخلاص من فطانة بتراء وكياسة ناقصة .

الثاني : حال آدم عليه السلام ، وأنه لم يخرج من الجنة إلا بركونه نهيًا واحداً ليعلم أن في ركوب النهي إيصال (اعتقاد) الكمال لخالفه .
الأمر الثالث : حال رسول الله ﷺ ، فإن هذا المغرور لعله يقول : إنه لم تسلم له رتبة الكمال .

ثم إنه ﷺ لم يزل يلزم الحدود ، ويواظب على المكتوبات إلى آخر أنفاسه ، بل يزيد في فرائضه وأوجب عليه التهجد ، ولم يوجب على غيره ، وقيل له .

« يأبى المزمل قم الليل إلا قليلاً ، نصفه أو انقص منه قليلاً »
وإنما أوجبت عليه هذه الزيادة ، لأن الخزانة كلما ازداد جوهرها نفاسة وشرفاً ينبغي أن يزداد حصنها إحكاماً وعلوًا ، فلذلك قيل في تعليل إيجاب التهجد :

أمر ونهى :

فأما المنهيات : مثل الزنا ، والسرقه ، والقتل ، والضرب ، والجميمة والكاذب ، والقذف .

فترك ذلك كيف يشغل عن الكمال ؟ وكيف يحجب عن القرية ؟ والكمال كيف يكون موقوفاً على ركوب هذه القاذورات ؟

وأما المأمورات : فالزكاة والصوم والصلاة .

فكيف تحجبه الزكاة ولو أنفق جميع ماله ، فقد دفع السوء عن نفسه ؟ ولو صام جميع دهره ، فهل يفوته بذلك إلا سلطنة الشهوة ؟ فما الذي يفوت من الكمال بترك الأكل ضحوة النهار ، في شهر واحد ، هو رمضان .

وأما الصلاة فنقسم إلى :

أفعال وأذكار :

وأفعالها : قيام وركوع وسجود .

ولاشك في أنه لا يخرج من القرية بالأفعال المعتادة ، فإن لم يصل ، فيكون إما قائماً ، أو مضطجعاً .

وغير المعتاد هو السجود والركوع ، وكيف يحجب عن القرية ، ما هو سبب القرية ؟ قال الله لنبيه ﷺ .

﴿ واسجد واقترب ﴾

ومن عشق ملكاً ذا جمال ، فإذا وضع وجهه على التراب بين يديه ، استكانة له ، وجد في قلبه مزيج روح ، وراحة ، وقرب .

ولذلك قال ﷺ :

﴿ إنا سنلقى منك قولاً ثقيلاً . إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قبلاً ﴾

فبين له أن هذه الصلوات هي حصن الكمال فلا يبقى إلا به .

ولعل الغرور المعتوه يقول : إنه كان يواطى عليها إشفاقاً على الخلق لأجل الاقتداء ، لا لحاجته إليها في حفظ الكمال .

فيقال له :

فلم زاد عليه في التهجّد وجوباً ؟

هلا قال : إن مبلغ درجة النبوة ، يستغنى عما يحتاج إليه غيره ، ولو قال لقبل منه ، كما قبل منه ، أنه أحل له تسعة من النساء ، بل ماشاء ، فإنه بقوة النبوة يقوى على العدل مع كثرة النساء ، كما قبل من المدرس أن يأمر تلامذته بالتكرار والتشهد ليلاً وهو ينام .

ويقول : إني بلغت درجة استغنىت بها عن ذلك .

وليس يترك أحد تكراره بهذه الشبهة .

ولعل هذا إذا اختاره ضحك الشيطان وسخر منه ، وقال له أنت أكمل من النبي والصديق ، وكل من واطب على الفرائض وعند هذا يقطع الطمع من صلاحه فهو ممن قيل فيهم :

﴿ وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذن أبداً ﴾ .

مسألة :

أما ما ذكره من أنه لو اشغل بالتكاليف لشغله ذلك عن القرية التي نالها ، والكمال الذي بلغه فهو كذب صريح ، ومحال فاحش قبيح ، لأن التكاليف قसान .

وإن صح ما يقوله مثلا ، وفي كل يوم آلاف نفس ، فليصرف هذه الأنفاس المهدودة إلى الذكر والسجود ، ولينقص هذه اللحظات من درجات كماله ، ليؤمن بهذه المكتوبات عن ضرر التنين الذي لا يعتد بشر سواه ويتخلص من خطر الخطأ في هذا الاعتقاد .

ولاشك في أن الخطأ ممكن فيه ، إن لم يكن مقطوعاً به . وإن قال : إن عروف القلب ، إلى حفظ ترتيب الأفعال ، والأدكار ، هو الذي يشغلني عن درجة القرب ، فهو دعوى محال ، لأن الهدى لا يحتاج إلى تكلف الحفظ ، بل المشتهر غيره ، إذا حفظ شيئاً مرة يناسب حاله ، لم يعتبر اليقين به ، مع حفظ طريقه وإحاطه ، بل يجد من نفسه في ذلك هزة ونشاطاً . فكيف لا تكون قوة عين العبد في مناجاة محبوبه ، وخدمته التي رسمها وارضاءها له .

مسألة :

معنى ارتفاع التكليف عن الولي .
بل معنى ارتفاع عن الولي أن العبادة تصير قوة عينه ، وغذاء روحه ، بحيث لا يصير عنه ، فلا يكون عليه كلفة فيه ^(١) .

« وجعلت قوة عيني في الصلاة » .

فاستدامة حال القربة واستزادتها : في السجود ، أيسر منه في الاضطجاع والقعود :

ومها التي في قلبه أن السجود سبب حرمانه عن القرب كان ذلك أنموذجاً من حال إبليس ، حيث أتى في نفسه أن السجود بحكم الأمر ، سبب زوال قربه ، وكماله .

فكل ولي سقط من درجة القربة . إلى درجة اللعنة ، فسيبه ترك السجود ومقتداه وإمامه إبليس .

وكل ولي أسعد بالتزقي إلى درجات القرب قيل له :
﴿ واسجد واقترب ﴾ .

ومقتداه وإمامه الرسول ﷺ . ولا ينبغي أن يتوهم الولي الخالص أنه بعيد عن خداع إبليس ، مادام في هذه الحياة ، بل لا ينجو عنه الأنبياء .

غير أنهم محفوظون كما قال تعالى :
﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته ، والله عليم ﴾
وأما أركان الصلاة فتكبير ، وقائحة وركوع وسجود ، وإلهذا ، فما وجه الضرر في قوله :

« الله أكبر » وفي « الحمد لله » والالتجاء إليه ، واستعانتها إلى الصراط المستقيم ، وهذا مضمون الفائحة .
وكل ذلك مناجاة مع الله تعالى .

فإذن تكليف الولي محال والتكليف مرتفع عن الولي بهذا المعنى ، لا بمعنى أنه لا يصوم ، ولا يصلي ، ويشرب ، ويزني .

وكما يستحيل تكليف العاشق النظر إلى معشوقه ، وتقبيل قدميه والتواضع له ، لأن ذلك منتهى شهوته ولذته . فكذلك غذاء روح الولي ، في ملازمة ذكره ، وامتنال أمره والتواضع له بقلبه ، لا يمكنه إشتراك القلب مع القلب في الخضوع ، إلا بصورة السجود ، فيكون ذلك كما لا للذة الخضوع والتعظيم ، حتى يشترك في الالتذاذ قلبه ، وقاله كما قيل :

ألا فاسقني خمرأً وقل لي : هي الخمر
أى ليدرك سمعي لذة اسمه ، كما أدرك ذوق طعمه .

بل تنتهي لذة الولي من القيام لربه قائماً مناجياً ، إلى أن لا يدرك البورم في القدم .

فيقال له : ألم يغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟
فيقول : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟

مسألة :

أما قولك : إنه إذا تكلف المواظبة على العبادات المشروعة ، وقد تغير اعتقاده فيها ، وسقط وقعها من قلبه ، فهل ينفعه ذلك ؟ فاعلم أنه لو لم يعتقد أنه لا فرق بين وجودها وعدمها ، في حفظ درجة الكمال والقرب ، أو دفع مهلكات الباطل ، وجوز أن يكون لله تعالى سرفها ، ليس يطلع عليه هو ، فعبادته صحيحة .

وإن اعتقد أنه لا فرق بين وجودها وعدمها ، وأنه لا يتصور أن يكون تحت

خاصيته سر ، هو لا يطلع عليه ، فعبادته باطلة .

بل إيمان بالإلهية ، والنبوة ، تخيل باطل ، فإنه إذا لم يجوز في كمال قدرة الله تعالى سراً بعينه من الأسرار ، وخاصية من الخواص في الأعمال والأذكار فليس مؤمناً بكمال القدرة ، ويرى القدرة مقصورة على قدرة عقله وهو كافر صريح .

وإن جوز ذلك ، وإن لم يكن اعتقد أنه لم يكلف به ، فهو كافر بالنبوة جاهل بما علم بالضرورة من الشريعة ، فإنه ، عليه السلام ، بلغ قوله تعالى :

﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾ .

وفهم الصحابة ، وأهل الإجماع ، وجوب الصلاة على العموم من غير استثناء ، فإن شك في إيجاب الرسول ، فليتأمل القرآن والأخبار .

وإن شك في قدرة الله تعالى على نفسه في الأعمال والأذكار ، تكون الفريضة لأجله كالحصن له وجه الكمال ، والحراسة عليه من المهلكات الباطنة فليرجع إلى نفسه ، وليطالبها أنها عرفت استحالة ذلك بضرورة العقل ، أو نظره ، وأنه كيف يعتقد ذلك ويرى في عجائب صنع الله تعالى ما هو فرج منه ؟

حتى إن هذا الشكل المشتمل كل ضلع منه على خمسة عشر عدداً من حساب الجمل ، إذا أثبت رقومه على خزف ، ولم يصبه ألم بشرط مخصوص .

ولو أعطى المرأة التي تعذرت عليها الولادة عند الطلق سهلت عليها الولادة .

وعرف ذلك بالتجربة ، وأنه يؤثر بخاصية

ب	ط	د
ز	هـ	ج
و	أ	ح

تقصير عقول الأولين والآخرين عن إدراك وجه مناسبه .

ويكثر مثل هذا في عجائب الخواص .

فمن أين يستحيل أن يكون لنظم الكلمات الإلهية في الفاتحة - مع الجمع بين أعمال جميع الملائكة من القيام ، والركوع ، والسجود ، والقعود فإن كل واحد عمل صنف من الملائكة - خاصية في النجاة الأخروية ، أو في حفظ درجة الكمال والقرب ، أو دفع المهلكات الباطنة التي تلدغ في القلب ، لدغاً ، أشد من لدغ الحيات والعقارب ، أو مؤثر في سعادة آدمي بوجه آخر من الوجوه ، يقصر العقل عن إدراكه .

فمن لم يؤمن بإمكان هذا ، فهو عديم العقل والإيمان جميعاً :

مسألة :

أما قوله : المقصود المعرفة ، والاستواء على طريق السير إلى الله تعالى . فقد استوى هذا السالك على الطريق ، وعرف الله ، وكان التكليف وسيلة الوصول إلى هذا المقصود ، وقد وصل واستغنى عن الوسيلة والمرشد ، وإن احتاج فقد توفي المرشد وتعذرت مراجعته .

فهذا أيضاً يفهم جوابه مما سبق ، لأن جميع ذلك صادر عن ظنه أن ما ليس حاصلًا في علمه ، فليس حاصلًا في نفسه ، وهو كعجوز ظنت أن ما تخلو عنه حجرتها تخلو عنه خزانة الملك ومملكته ، وأنه ليس في العالم سماء إلا سقف بيتها ، ولا أرض إلا عرصة بيتها .

وهذا جهل عظيم ، فإن جميع ما وصل إليه الأولياء بالإضافة إلى مقدورات الله تعالى ، أقل من قطرة في بحر ، وإن سلم له وصوله درجة الكمال ،

يجوز أن تكون صورة الصلوات الخمس بطريق الخاصة ، سبباً للتقرب إلى درجات الكمال التي نالها ، أو يكون سبباً لبقاء الكمال ، أو دوامه ، أو يكون لرسوخه حتى لا يتزلزل في سكرات الموت .

فإن لم يواظب عليها ، فعساه أن يودعه الكمال عند الموت ، ويقال : له إنما كان يثبت هذا ، إذا عصفت رياح الموت بالمسامير الخمس ، التي هي المكتوبات ، وكان يستحكم بها ، فلما خلا من المسامير ، تزعزع وانقطع : فقد خبت وخسرت إذا فرحت بما عندك من العلم ، وسيقال لكم يوم القيامة : معاشر أهل الإباحة .

﴿ ما سلككم في سقر ؟ ﴾

فتقولون :

﴿ لم نك من المصلين ﴾

فعلاج هذا المغرور ؛ الضعيف العقل ، المريض القلب ، أن يتأمل هذه الأمور ، ويجوز الخطأ على نفسه ، والسلام .

وحدة الوجود

١ - نريد أن نبدأ مباشرة بملاحظة تزيل - بصورة متوقعة - حدة المناقشة في هذا الموضوع ، وذلك أننا بصدد « وحدة الوجود » ولسنا بصدد وحدة الوجود .

والوجود متعدد : سماء ، وأرض ، جبال ، وبحار ، أشجار وأناسي إلخ ، وهو مختلف صلابة وهشاشة ، لوناً ورائحة وطعماً ، متفاوت ثقلاً وخفة إلخ . ولم يقل أحد من الصوفيين الحقيقيين - ومنهم ابن عربي والحلاج - بوحدة الوجود . .

وما كان لمؤمن ، ولا يتأتى لمؤمن ، أن يقول بوحدة الوجود وما كان للصوفية - وهم الذروة من المؤمنين - أن يقولوا - وحاشاهم - بوحدة الوجود .

وقد تتساءل : من أين إذن أتت الفكرة الخاطئة التي يعتقدونها كثير من الناس : من أن الصوفية يقولون بوحدة الوجود ؟ !^١

وتفسير ذلك لا عسر فيه : إن فريقاً من الفلاسفة في الأزمنة القديمة وفي الأزمنة الحديثة يقولون بوحدة الوجود ، بمعنى أن الله - سبحانه وتعالى عن إفكهم - هو والمخلوقات شيء واحد .

قال بذلك هيراقليطس في العهد اليوناني : والله عنده نهار وليل ، صيف وشتاء ، وفرة وقلة ، جامد وسائل ، إنه - على حد تعبيره - كالنار المعطرة ، تسمى باسم العطر الذي يفوح منها ، تقدس سبحانه وتزده عما يقول .

والله سبحانه وتعالى ، في رأى شلى ، في العصور الحديثة ، هو هذه البسمة الجميلة على شفقي طفل جميل باسم ، وهو هذه النسائم العليقة التي تتعشنا ساعة الأصيل ، وهو هذه الإشرقة المتألقة بالنجم الهادي في ظلمات الليل ، وهو هذه الورود البانعة تنفتح وكأنها ابتسامات شفاه جميلة : إنه الجمال أينما وجد ، أيضاً - سبحانه وتعالى - القبح أينما كان : وكما يكون طفلاً فيه نضرة ، وفيه وسامة ، يكون جثة ميت ، ويكون دودة تتغذى من جسد ميت ، ويكون قبراً يفهم بين جدران هذه الجثة وهذا الدود ، أستغفرك ربى وأتوب إليك .

ولوحدة الوجود - بمعنى وحدة الوجود - أنصار في كل زمان . ولما قال الصوفية « بالوجود الواحد » شرح خصومهم الوجود الواحد بالفكرة الفلسفية عن وحدة الوجود بمعنى وحدة الوجود وفرق كبير بينهما ولكن الخصومة كثيراً ما ترضى عن التزييف وعن الكذب في سبيل الوصول إلى هدم الخصم ، والغاية تبرر الوسيلة كما يقولون .

وشيء آخر في غاية الأهمية كان له أثر كبير في الخطأ في فهم فكرة الصوفية عن الوجود الواحد ، وهو أن الإمام الأشعري رضى الله عنه ، رأى في فلسفته الكلامية ، أن الوجود هو عين الوجود ، ولم يوافق الصوفية على هذه الفكرة الفلسفية ، ولم يوافق الكثير من مفكرى الإسلام وفلاسفته على رأيه . وهو رأى فلسفى يخطئ فيه أبو الحسن الأشعري أو يصيب ، وما مثله في آرائه الفلسفية إلا مثل غيره في هذا الميدان يخطئ تارة ويصيب أخرى .

ورأى مخالفوه : أن الوجود غير الوجود ، وأنه ما به يكون وجود الوجود ، ولما قال الصوفية بالوجود الواحد ، شرح خصومهم فكرتهم في ضوء رأى الأشعري ، دون أن يراعوا مذهبهم ، ولا رأيهم ففسروا قولهم : بالوجود الواحد

على أنه قول بالموجود الواحد .

وهذا التفسير بهذه الطريقة يسحب الثقة في آراء هؤلاء الخصوم .
وأمر ثالث يجب ألا نعيده أدنى التفات ؛ لأنه أنه - في منطق البحث -
من أن نعيده التفافاً ، وهو هذه الكلمات التي تناثرت هنا وهناك ، مخترعة
ملفقة ، مزيفة ، ضالة ، في معناها ، تافهة في قيمتها الفلسفية ، غريبة على الجو
الإسلامي ، تنادى بصورتها ومعناها : أنها اخترعت تضليلاً واقتيافاً .
إنها هذه الكلمات التي يعزونها إلى الخلاج ، رضوان الله عليه ، أو إلى
غيره ، لا توجد في كتاب من كتبه ، ولم يخطها قلمه .. لقد اخترعوها اختراعاً ،
ثم وضعوها أساساً تدور عليه أحكامهم بالكفر والضلال .

ويكفي أن يتشبه بها إنسان فيكون في منطق البحث غير أهل للثقة .
٢ - الوجود الواحد : وهل في الوجود الواحد من شك ؟ إنه وجود الله
المستغنى بذاته عن غيره ، وهو الوجود الحق الذي أعطى ومنح الوجود لكل
كائن وليس لكائن غيره ، سبحانه الوجود من نفسه إنه سبحانه الخالق وهو
البارئ وهو المصور : هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء .

ومن بعض معاني هذا التصوير قوله تعالى :

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين .
ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا
العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ .

وصلة الله بالإنسان إذن : هي أنه سبحانه ، يمنحه الوجود الذي يريده له
في كل لحظة من اللحظات المتتابعة ، فتشكل حياته في كل لحظة بصورة أمده
الله سبحانه وتعالى بها .

وصلة الله بكل كائن : إنما هي على هذا الوجه : إنه سبحانه مثلاً :
﴿ يمسك السموات والأرض أن تزولا . ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من
بعده ﴾ . إنه يمسكها وجوداً ، ويمسكها تدبيراً ، ويمسكها تماسكاً وتناسقاً .. إنه
يمسك فيها الكيف والكم . وإذا ما سحب إمداده عنها تلاشتا كمّاً وكيفاً .
إن الله سبحانه وتعالى : محيط بالكون ، مهيمن عليه ، قيوم السموات
والأرض ، قائم على كل نفس بما كسبت . وقائم على كل ذرة من كل خلية ،
وقائم على كل ما هو أصغر من ذلك وما هو أكبر بحيث لا يعزب عن هيئته
وعن قيوميته مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

هذه القيومية : أخذ القرآن والسنة يتحدثان عنها في استفاضة مستفيضة ليز
الإنسان هزة عنيفة تجعله لا يخلد إلى الأرض ولا يتبع هواه ، وإنما يرتفع ببصره
ويستشرف بكيانه إلى الملأ الأعلى مستخلصاً نفسه من عبودية المادة : ليوحد الله
سبحانه وتعالى في عبودية خالصة له . وفي إخلاص لا يشوبه شرك من هوى ،
أو شرك من سيطرة المادة أو الغرائز .

ونريد الآن أن نصور بعض مواقف القرآن في هذا الصدد :
إن الله سبحانه وتعالى : يوجه نظرنا في سورة الواقعة إلى مسائل نحن عنها في
العادة غافلون .

﴿ أفرايتم ما تمنون ؟ ! أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴾ ! ...
﴿ أفرايتم ما تحرثون ؟ ! أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾ ! ...
﴿ أفرايتم الماء الذي تشربون ؟ ! أنتم أنزلوه من المزن أم نحن
المتزلون ﴾ ! ...
﴿ أفرايتم النار التي تورون . أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ﴾ ! ...

وعلى العكس من ذلك : ارشاه الله لما خلق هذا الفرد ، ولجعل الزرع
خطاماً ، ولما أنزل الماء من المزن ، ولما أنشأ شجرة النار ، إنه سبحانه ، بيده
الأمر سلباً وإيجاباً ، ويده أمر الخلق إيجاداً وإعداماً ...

أرأيت إلى هذه الرمية التي ترميها : إنك ما رميت إذ رميت ولكن الله

أرأيت إلى الانتصار في الجهاد ؟ إن هذا الانتصار من عند الله ، فأما القتل
فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم .
ورزق الإنسان هذا وطعامه :

﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صبينا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا ،
فأنبينا فيها حباً وعنبراً وقضباً ، وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلبا وفاكهة وأباً ، متاعاً
لهم ولأنعامكم ... ﴾

٣- هذه الهيمنة ، وهذه القيومية ، يمر بها قوم فلا يعيرونها التفاتاً ، إنهم
يمرون بها مرور الحيوانات بما لا تدرك ولا تعقل : إن الله سبحانه وتعالى ،
لا يحل من شعورهم درجة أيا كانت ، وهمهم كل همهم مصباحين مسمين ، إنما
هو مل البطن ، أو كثر الذهب والفضة ، أو النزاع على جاه ، أو العمل لتثبيت
سلطان : إنهم يمرون بآيات الله فلا يشهدونها . وتحيط بهم آثاره ، فلا ينظرون
إلها ، وتغمرهم نعمائهم وآلاؤه فلا يوجههم ذلك إلى الحمد ولا إلى الشكر ، إن
الله سبحانه وتعالى : لا يحتل في قلوبهم ولا في تفكيرهم ، ولا في بيتهم ،
ولا في حياتهم ، قليلاً ولا كثيراً .

والطرف الآخر المقابل لهذا : هو هؤلاء الذين انغمسوا حقاً في محيط
الإله : سبحوا في بحارها ، واستنشقوا نسائمها التديّة . وغمرهم لألاؤها

رضيائها ، لقد بدعوا بحمد الله وشكره على نعمائه وآلائه التي تحيط بهم من
جميع أقطارهم ، فزادهم الله نعماً وآلاء
﴿ لنن شكرتم لأزيدنكم ... ﴾

لقد اتقوا الله حق تقاته فعلمهم الله :

لقد اكتفوا بالله هادياً ونصيراً ، فهداهم الله إلى صراطه المستقيم ، ونصرهم
على أنفسهم وعلى أعدائهم ، وأخذوا شيئاً فشيئاً ، يحاولون تحقيق التوحيد :
قولا ، وعقيدة ، وتذوقاً ، وتحقيقاً ، أخذوا يرون في « أشهد ألا إله إلا الله »
معاني لا يتطلع إليها غيرهم .

وبدأ معنى الشرك يتضح لهم في صورة لا تخطر على بال اللاهين ، الذين
شغلهم أمواهم وأهلوههم ، وبدعوا يحطمون الشرك : يحطمون أصنامهم وأوثانهم .
من النفس ، والهوى والشيطان ، ومن الغرائز الحيوانية ، والغرائز الإنسانية . وأنهار
الشرك حتى من همسات الفؤاد : لقد انهار الشرك الواضح ، وانهار الشرك
الخفي ، وثبت في أذواقهم واستقر في أحوالهم ومقاماتهم : أن « لا إله إلا الله »
وأنه « أينما تولوا فثم وجه الله » وأينما كانوا فالله معهم ، وهو أقرب إليهم من حبل
الوريد ، وهو أقرب إليهم من جلسائهم ومعاشرهم : إنه يغمر كياناتهم :
فلا يرون غيره سبحانه . لا يرون غيره ، قيوم السموات والأرض ، ولا يرون
غيره مصرفاً للسير من الأمور ، وللعظيم منها ، ولا يرون غيره مالكا للملك :
يؤتى الملك من يشاء ، ويترع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من
يشاء .

لقد أصبحوا ربانيين ، وأصبح الله في بصرهم وسمعهم وجوارحهم وفي
قلوبهم من قبل ذلك ومن بعده : يشغله كله فلا يدع فيه مكاناً للأغيار .

٤ - وأخذ هؤلاء الصوفية يوجهون أفراد هذا القطيع من البشر إلى الله تعالى : أخذوا في محاولة جاهدة مستمرة - لانتزاع الإنسان من الإخلاق إلى المادة ليتطلع إلى السماء :

لقد حاولوا أن يوجهوا نظر الناس إلى الله ، عن طريق آلائه التي تغمرهم وعن طريق صنعه ، وقد أحسن كل شيء خلقه ، سبحانه .
أخذوا يوجهون نظر الناس إلى الله تعالى : في الزهرة تفتح ، وفي الزرع ينبت متجها إلى السماء ، وفي الشمس تشرق ، وفي القمر بتألق ، وفي مواقع النجوم ومداراتها ...

وفي كل هذا الإبداع السارى في الكون !

أخذوا يشرحون معنى تلك الآيات الكريمة :

﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير .

الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور .
الذى خلق سبع سموات طباقا ، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ،
فارجع البصر هل ترى من فطور ؟

ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسيرا .

وكانت تعبيراتهم تعبيرات متذوقين ، وليست التعبيرات الجافة لعلماء الكلام أو الفلاسفة ، وهم - في تعبيراتهم يشرحون : أن الله سبحانه وتعالى : الممد الوجود لكل موجود : إنه يمد القائم بالقيام ، ويمد الماشى بالمشى ، والمتحرك بالحركة ...

إنه - على حد تعبير أهل السنة والأشاعرة : الذى يقطع ، وليست السكين هي التي تقطع ، وهو الذى يحرق ، وليست النار هي التي تحرق ، وهو

الذى ، حينما يريد ، يقول للنار كوني برداً وسلاماً ، فتكون برداً وسلاماً .
ومها عبر الصوفية ، في هذا الميدان ، عن الوجود الواحد ، فقالوا في ذلك ، وزعم الناس أنهم أسرفوا ، واشتطوا ، فإنهم : سوف لا يبلغون المدى الذى بلغته تلك الآية الكريمة التي تمثل في روعة رائعة ، الهيمنة المهيمنة ، والاستغراق القاهر ، والجلال الشامل والتي لا تغنى وحدة متحدة ولا اتحاداً مطابقاً بين الخالق والمخلوق أو العابد والمعبود والآية هي :

﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن ﴾ .

وهذه الآيات القرآنية التي ذكرناها إنما هدفها أن تدفعنا دفعا إلى الشعور بقيومية الله سبحانه وتعالى ، مهيمنة ، وهيمنتته مسيطرة ، وإلى الشعور بتوجيهه سبحانه وتعالى للإنسان أن يفر إلى الله في كل أمر من أموره ، وأن يسمو بنفسه حتى يتحقق بأن :

لا إله إلا الله .

وما فعل الصوفية أكثر من ذلك ، إنهم مهتدون بهدى القرآن والسنة ، يريدون للإنسان أن يكون ربانيا ، فإذا ما استمر الكثير من الناس يخلدون إلى الأرض ، وينظرون دائما إلى أسفل ؛ فليس ذلك ذنب الصوفية ، فقد أدوا واجبهم نحو التوجيه إلى الله ، خير أداء .

أما إذا لم يكتف بعض الأفراد بالإخلاص إلى الأرض وبالنظر إلى أسفل ، وإنما أخذوا يهاجمون من يدعوهم للتطلع إلى السماء ، ويوجههم إلى الله ، تعالى فهؤلاء : إنما يحاربون الله ورسوله ، وجزاؤهم معروف .

٥ - وقد تتساءل : فيم إذن حوكم الحلاج وقضى عليه بالقتل ؟

قضية التصوف المنقذ من الضلال

إن أمر هذه القضية : قضية الحلاج : معروف - ربما ، وما كان سراً في يوم من الأيام .

لقد كان الحلاج قوة جارقة ، كان مركزاً للجاذبية لا يضارع ، يلتف حوله الناس أينما حل ، ويسرون حوله أينما ارتحل .

وكان ككل صوفي - : يحب آل البيت لأنه كان يحب الرسول ﷺ ، وكان آل البيت إذ ذاك يطمحون في أن تكون الدولة لهم ، وما كان بنو العباس يطمحون إلى شخصية كشخصية الحلاج المحبة لآل البيت ، نسل رسول الله ، صلوات الله عليه وسلامه .

ومادام الحلاج دعاية قوية تسير في كل مكان ، وتنتجه إلى كل بلد ، فيجب - حفاظاً على أمن الدولة وتحصيناً لاستقرارها - أن ينكل بالحلاج . وما كان مقتل الحلاج دينياً قط كلاً ، وإنما كان سياسياً بحتاً . ومن السهل على الملوك المستبدين أن يزيفوا القضايا ، أن يأتوا بشهود الزور ، وأن يعدوا القضاة بالمال والترقية ، وأن ينفذوا أهواءهم . . .

فكان ما كان من قضية ومن قتل . . . والدين من كل ذلك براء والألفاظ التي ينسبونها للحلاج ليست في كتاب من كتبه ، وكتبه - وبعضها موجود - لا تسند خصومه ولا تؤيدهم .

هذا ما كان من أمر الحلاج . وبقيت كلمة .

إن المنطق الصحيح : ألا يفتي المهندس في أبحاث الأطباء ، وألا يحكم الأديب باعتباره أديباً ، في أعمال المهندسين . . .

ومن العدالة - على هذا الوضع - : ألا يحكم على هذه القمم الشائعة ابن عربي ، الحلاج ، ابن الفارض ، من لم يبلغ مداهم أو يقاربه .

لقد قيل مرة لأحد شيوخنا الصالحين الأجلاء : إن فلانا ، يتتقد ابن عربي في المجلات ، فقال : رضوان الله عليه ، وهل من حق الخنافس أن تحكم على أعمال الأسد ، إن الخنافس لا تحكم على أعمال السباع ، وليس من حقها أن تحدث فيما تفعله السباع ، ومنطقها دائماً منطق الخنافس .

أما الإمام الشافعي - رضوان الله عليه - فإنه يقول عن خصوم سيدنا محبي الدين : « إن حكمهم حكم ناموسة نفخت على جبل تريد إزالته من مكانه وتذهب الريح بأعم من الناموس ، وتبقى الجبال شوامخ راسيات ، بها تثبت الأرض ، وبها يحفظ ميزان الدنيا » اهـ

والرأي الذي لا يتأني غيره من المنصف ، الرأي الحق ، هو ما قاله الإمام الشعراني عن الصوفية عامة ، وعن سيدنا محبي الدين خاصة : « ولعمري » إن عباد الأوثان لم يجرؤوا على أن يجعلوا آلهتهم عين الله بل قالوا : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، فكيف يظن بأولياء الله أن يدعوا الاتحاد بالحق سبحانه ، هذا محال في حقهم ، رضوان الله عليهم » اهـ

فلا بد أن يبلغ الإنسان المستوى ، أو يقارب المستوى ، وحينئذ سيقول كما قال أسلافنا الذين بلغوا المستوى أو قاربوه : رضى الله عن سيدنا محبي الدين ، ورضى الله عن الحلاج ، وعن ابن الفارض ، ونفعنا بهم ، ويكتبهم ، هذا وبالله التوفيق .

الأحاديث ليس هو مجرد الحركة المعروفة ، وإنما هو - مع هذه الحركة - المعنى المبيت في النفس الذي يتمثل فيه جلال الله وعظمته ، ورحمته ووده ، ويتمثل فيه الخضوع ، لهذا الجلال ، وهذه العظمة ، والانقياد المطلق لرحمة الله التي تتمثل في الرسالة الإسلامية ، وأوامرها ونواهيها .

ذلك أن الرسالة الإسلامية ، في تكاليفها سلباً وإيجاباً ، إنما هي رحمة للعالمين يقول الله تعالى ، لرسوله ، صلوات الله وسلامه عليه :

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ .
 فإذا ما كان السجود تعبيراً عن النظام والتذلل - وذلك معناه الصحيح - كان ذلك عبادة ، وخضوعاً لله ، سبحانه وتعالى ، وكان بذلك سبيلاً إلى الجنة ، وإلى أكثر من الجنة وهو القرب من الله يقول الله تعالى في كتابه العزيز :

﴿ واسجد واقترب ﴾ .
 ويقول ، صلوات الله وسلامه عليه ، في هذا المعنى : « أقرب ما يكون العبد من ربه ، وهو ساجد ، ولقيمة السجود الكبيرة . عبر عن الصلاة أحياناً بالسجود فصلاة الضحى ، يسمونها : « سجود الضحى » .

ومن أجل هذه القيمة أيضاً ، مدح الله من يهتدون عن خضوعهم لآياته واستجابتهم لأمره ، يقول الله تعالى :

﴿ إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً ، وسبحوا بحمد ربهم ، وهم لا يستكبرون ﴾ .
 والذين هداهم الله ، واجابهم :

﴿ إذا تلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً ﴾ .

السجود (٥)

يروى الإمام مسلم - رضي الله عنه - في صحيحه : عن أبي فراس ربيعة ابن كعب الأسلمي ، - خادم رسول الله ، ﷺ ، ومن أهل الصفة - رضي الله عنه - قال :

كنت آيت مع رسول الله ﷺ ، فأتيه بوضوئه وحاجته ، فقال : سئني : فقلت : أسألك مرافقتك في الجنة .

فقال : أو غير ذلك ؟
 قلت : هو ذلك .

قال : وأعني على نفسك بكثرة السجود .

والسجود إذن مما يعين على ترويض النفس ، لتتركى ، وهو بذلك من الوسائل التي توصل إلى الجنة .

وفي هذا المعنى ، يروى مسلم أيضاً ، عن أبي عبد الرحمن ، ثوبان مولى رسول الله ، ﷺ ، قال :

« سمعت رسول الله ﷺ يقول : « عليك بكثرة السجود ، فإنك لن تسجد لله سجدة ، إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة » .

والسجود الذي يريده رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - في هذه

(٥) إن موقف الصوفى من التعاليم الدينية هو موقف الساجد لها - ويدون ذلك لا يكون صوفياً . ومن أجل ذلك وضعنا هذه الكلمة في هذا الفصل .

ومن صفات عباد الرحمن ، التي يركبهم الله بها أنهم : ﴿ يسجدوا وقياماً ﴾ .

٢

على أن حادثة من الحوادث قصتها القرآن في غير ما موضع منه كثيراً مما نتحدث به من المعاني الخاصة بالسجود ، تلك هي - والملائكة .

﴿ وإذا قال ربك للملائكة : إني خالق بشراً من صلصال من حر فاذا سويته ونفخت فيه من روحي ، فقعوا له ساجدين ﴾ . بهذا النبأ ، حدث الله الملائكة عن عالم جديد من عوالمه سيبرؤه ، وأمر الملائكة ، أن يسجدوا له .

﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون ﴾ .

لم يشذ منهم أحد .

وكان من بينهم - مختلطاً بهم - إبليس - وهو كائن يختلف عن وعن الإنسان إنه من فصيلة الجن .

وكان يعبد مع الملائكة ، ويسبح معهم ، حتى كان يلقب « العباد » لكثرة عبادته وتفانيه في العبادة ، ولكنه لما سمع الأمر الإلهي باللم يسجد ، لقد أبى ، والإباء ضد السجود واستكبر ، والاستكبار الخضوع .

ويتحدث القرآن عن ذلك في صراحة فيقول :

﴿ إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين ﴾ .

نما جذيرة

وقت ذات

نوا برضوان

أمر إلهي .

في فطرته .

نما لو كانت

الصحيح ،

المحاولة التي

قائلا :

لآدم ، ليس

سب .

بل تعبيرها من

نوما ترشد إليه

﴿ ما من عندك ألا تسجد إذا أمرتكم ﴾ .
ومن الطبيعي أن تكون هذه القورية في كل أمر بما يناسب وضعه الزماني والمكاني .

٧ - والقضية الأخيرة التي نختم بها هذه القضايا ، أو هذه المفاهيم المستجبة من القصة هي أن الله إذا كان قد أمر الملائكة والجن بالسجود للإنسان الأول فليس معنى ذلك ، إلا التصريح الصريح ، بأن طبيعة هذا الإنسان فيها الاستعداد الكافي للوقوف في مدارج السمو الروحي ، درجة فدرجة ، حتى تسو على الملائكة وعلى الجن .

ولا معنى إذن بعد هذا الأمر الإلهي للملائكة والجن بالسجود للإنسان ، أن يختلف علماء الإسلام في الفاضلة بين الإنسان والملاك .

ذلك أن القيوضات الإلهية على الإنسان ، لا تنتهي إلى حد :

« ما وسعني أرضي ولا سمائي ، ولكن وسعني قلب عبدی المؤمن » .

فباب القيوضات الإلهية إذن مفتوح على مصراعيه ، والقرب من الله

ميسور .

وإذا ما سجد الإنسان لله ، رفعه الله إليه ، وقربه منه ، وغمره بروضاته .

أما المبدأ الهام ، الذي نريد أن يجعله كل مؤمن نصب عينيه ، فهو أن الإيمان ليس معرفة وحسب : ذلك أن إبليس كان يعلم علماً يقيناً أن الله موجود ، وقد علم فيما بعد أنه أرسل نوحاً وإبراهيم . . . ومحمداً عليهم الصلاة والسلام .

إنه يصدق بأن لا إله إلا الله ، ويصدق بأن عيسى وموسى وبقية الأنبياء رسل الله ، ومعرفته بهذه المسائل هي من القوة والثبات بحيث تزيد على معرفة

كثير من المؤمنين . . .
ولكنه مع ذلك مطرود من رحمة الله : ذلك أن الإيمان ليس معرفة وحسب ، وإنما هو خشوع واستجابة : إنه سجد ، فإذا لم يأت السجود فلا إيمان^(٦) .

لقد كان سعيد بن جبهر - رضى الله عنه - يقول : « ما آسى على شيء من الدنيا إلا على السجود » .

أما على بن عبد الله بن عباس ، فقد كانوا يسمونه « السجادة » لكثرة سجوده . وقد كان يكثر من السجود - كما هو المتبادر إلى الذهن - ليكون على التقيض من إبليس . ونختم هذه الكلمة بقول الله تعالى ، يصف الذين مع رسول الله - معه في حال حياته . وعلى مبادئه الإلهية بعد وفاته - : ﴿ سيأبهم في وجوههم من أثر السجود ﴾ : إنه النور الذي يشرق على جباههم لسجودهم لله وحده ، وهو الغرر التي ستكون في وجوههم يوم القيامة من أثر خشوعهم لله .

ويتنافى السجود لله مع محاولة تحكيم العقل في أوامره - سبحانه وتعالى - أونواهيه ، وكل محاولة من هذا القبيل ، إنما هي : كبرياء ، وهي إبليسية . وإذا كان لإبليس خلفاء من بنى آدم ، فهم هؤلاء الذين يحاولون أن يقوموا

(٦) يقول الله تعالى : (فلا ورك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلووا تسليماً) .
ويقول ، ﷺ . لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

والإلهاد يانكار الرسالة...

يد أن هؤلاء وأولئك وتلكم يصدق عليهم :

«أرأيت من اتخذ إلهه هواه» ، وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقفيه ، وجعل على بصره غشاوة : فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ؟ » والطريق الذي يتخذ به هؤلاء نفوسهم وفلوسفهم إنما هو المبادرة بالسجود لله لا للهوى الردى ، فيتكشف الله لهم في كل شيء وتظهر لهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . وإن من أحدث اختراعات إبليس في هذا الزمن الحاضر إنما هو المذهب المسمى ، الوجودية ، وهو مذهب يدعو كل إنسان أن يحقق وجوده حسبما يرى ويتبصلاً لا يريد ، غير متقيد بعرف ولا عادات ولا تقاليد ولا دين ولا أوضاع أباً كانت ، وهو إذن يهلم نفسه بنفسه ، لأنه لا يقوم على أسس ثابتة ، ولا ينتهي إلى مبادئ حقيقية ، وأحسن تشبيه للوجودى هو ما قاله أحد كبار الكتاب الغربيين :

«إن الوجودى مثله ، كمثل الكلب الذى يجرى دائراً حول نفسه ليسلك بذنبه ، فلا يدرك ذنبه وهى لعبة تلعبها الكلاب ، حيناً يجلدون الفراخ فيلهون بما لا نتيجة له » .

على أن المذهب الوجودى قديم : إذ أنه المذهب السوفسطائى اليونانى ، وهو مذهب يظهر دائماً في عصور الانحلال ، وفي البيئات المنحلة ولا وجود له في عصور الجهد ولا في البيئات الجادة : ذلك أن المجتمعات الناهضة الجادة ، لا تبيح لأفرادها أن يشتبهوا بالكلاب - حيناً تلهو الكلاب - في الجرى وراء أذنانهم ليمسكوا بها .

فالوجودية ، إذن اختراع إبليس ، لإخراج طائفة من البشر عن نطاق

بدور إبليس في المجتمع الإنسانى ، إنهم هؤلاء الذين يرفضون الروحى الإلهى جملة ، أو يحاولون أن يزنوا الروحى بميزان العقل ، فيرفضوا ويقبلوا ويؤولوا ما شاء لهم الهوى ، ويرفقوا ويلفقوا ، ويرجلوا بمقوطلهم المأرق التى يزعومونها مشكلات نظرية عقلية - ثم يحاولون الفرار منها .

وخلفاء إبليس هم أولاً وبالذات : الملاحدة :

إنهم على نسق التعبير الجارى : إبليسيون أكثر من إبليس : ذلك : أن إبليس لم ينكر وجود الله ، ولم ينكر بعباً ولا رسالة ، ولكن هؤلاء أنكروا كل ذلك ، فناقوا زعيمهم ، ولكنهم بتفوقهم على زعيمهم قد أرسوا غروره ، ذلك أنه خاطب الله قائلاً «هل لأقدمن لهم (بنى آدم) صراطك المستقيم» ثم لأنهم من بين أئديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم ، وعن شائئهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين .

ولقد نجح إبليس نجاحاً تاماً في طائفة الملاحدة .

والإلهاد درجات : وأخص درجات الملحدين لا شك ، إنما هى درجة هؤلاء الذين اعتقدوا - على حد تعبير الثورال - «أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه ، وبلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، كذلك كان ، وكذلك يكون أبداً » .

وإذا ما سألت هؤلاء : «أنخلقوا من غير شيء» ، أم هم المخلوقون ؟ كانت حيرتهم في الإجابة كافية في البرهنة على أنهم لا يتبعون إلا أهواءهم ، وأنهم ليسوا إذن إلا عبيدا لإبليس .

وهناك الإلهاد يانكار البعث ...

السجود لله ، إلى نطاق السجود للأهواء .

وخلفاء إبليس ثانياً هم : طائفة الفلاسفة العقلين الإلهيين .

ذلك أن الفلسفة العقلية - مهما حاول المتفلسفون تزييف أهدافهم وتزيين غاياتها - ليست إلا محاولة لتحكيم العقل فيما أتى به الوحي أو بتعبير أدق هي محاولة لإحلال العقل محل الوحي .

وهي من غير ما ريب تريد أن تختزع عقلياً ما فرغ منه الوحي في قضاياها ومبادئه ، إنها تريد ابتداع دين عقلي يجوار الدين الإلهي ، وهذا الدين العقلي يختلف من فيلسوف إلى آخر ، وهو من أجل ذلك يختلف في هذه القضية أو تلك مع الدين الإلهي .

فإذا كانت البيئة متشعبة بالدين الإلهي : يغمر قلبها الإيمان ، ويغمر وجدانها الهداية ، حاول المتفلسفون - في طريقة إبليسية - أن يوفقوا بين الدين والفلسفة .

ومعنى هذا : أنهم يجعلون موقف اختراعاتهم العقلية بالنسبة للدين ، موقف الند للند ، فيحاولون التوفيق ، فيخططهم التوفيق ، فيما يأتون وما يدعون ، ذلك أنهم قلوبهم وأفئدتهم - هواء

وإذا كان الاتفاق بينهم هم لم يتم ، فإن التوفيق بين أهوائهم ، وظنونهم ، وشكوكهم وأوهامهم ، وبين الوحي والعصمة ، واليقين والهداية ، إنما هو عمل لا يسير في ركابه إلا أتباع إبليس .

والفلاسفة إذن ، لم يسجدوا لله .

أما الطائفة الثالثة التي لم تسجد لله ، إلا شكلاً فإنها ، طائفة المعتزلة من علماء الكلام ، إنهم لم يسجدوا لله سجود خضوع وإذعان ، ومذهبهم قائم على

تحكيم العقل في الدين ، ووصل بهم الأمر إلى أنهم يوجبون على الله بعض الأعمال ، سبحانه وتعالى ، ويحرمون عليه إتيان بعضها ، سبحانه وتعالى ، فوضعوا أنفسهم بعملهم هذا موضع المشرعين لله سبحانه يلزمونه سلباً ، ويلزمونه إيجاباً ، وزين لهم الشيطان أعمالهم ، وصدق فيهم قول الله تعالى : ﴿ أفن زين له سوء عمله : فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، إن الله عليم بما يصنعون ﴾ . ثم إنهم خاضوا فيما نصح الدين بعدم الخوض فيه ، كالذات الإلهية والصفات والقدرة .

وكان لابد وقد اتبعوا - أهواءهم - أن يختلفوا ويتفرقوا ، وتذهب بهم الأهواء كل مذهب : فكانوا فرقاً وأحزاباً شتى ، لا تكاد تدخل تحت حصر . وكل من نهج النهج العقلي - أي تحكيم العقل - في الدين في العصر الحاضر ، إنما هو تابع للمعتزلة ، وكل مدرسة من هذا القبيل في العصر الحاضر إنما هي مدرسة اعتزالية في مبادئها وأصولها ، وهي مدرسة اعتزالية في غاياتها وأهدافها : ذلك أنها تضع قضايا الدين . . في ميزان عقلها فتنتي وتثبت ، حسبما تقتضيه الظروف والملابسات أي حسبما تقتضيه الأهواء والترعات . والمدرسة العقلية في الدين ، أي كانت وفي أي مكان وجدت ، وفي أي زمان نشأت :

لم تسجد لله سجود خضوع وإذعان ، وإنما سجدت للعقل وعبدت العقل فتفرقت إلى ما لا يكاد يحصى من الفرق : ﴿ ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ﴾ .

وسبيل المؤمنين ، إنما هو السجود لله ، وذلك أيضاً سبيل الراسخين في

العلم ، إذ الراسخون في العلم هم دائماً مؤمنون ، ساجدون لأمر الله ، وإليه تشير الآية الكريمة :

﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً ، يحذر الآخرة ، ويرجو رحمة ربه ، قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ إنما يتذكر أولو الألباب﴾ .

ومن البديهي أن المؤمن الحقيقي ، هو وإبليس على طرفي نقيض ويرسم الله سبحانه وتعالى ، صورة المؤمن فيبين تعارضها مع كل الصور الإبلسية على تفاوتها واختلافها ، ويبين جزاءها عنده فيقول سبحانه :

﴿إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً ، وسبحوا بحمد ربهم ، وهم لا يستكبرون . تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ، ومما رزقناهم ينفقون . فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾ .

هذا وبالله التوفيق .

الفصل الثالث

التصوف والمعرفة

- البحث العقلي فيما وراء الطبيعة عبث .
- في وسيلة المعرفة .
- التصوف والشك .
- الشك ومدارج السالكين .
- الإمام الغزالي يرسم طريق المعرفة .
- مشكلة المعرفة الصوفية .

البحث العقلي فيما وراء الطبيعة عبث

لا يمكننا أن نحدد بالضبط تاريخ نشأة الأبحاث في المغنيات ، ولكننا قد لا نعدو الصواب ، إذا قلنا : إنها نشأت منذ نشأة الإنسان ، على ظهر البسيطة .

وقد لا نعدو الصواب أيضاً ، إذا قلنا : إنها على مر الزمن ، قد اختلفت ، فيما يتعلق بمنهاج البحث ، واختلفت فيما يتعلق بالنتيجة .

وقد انتهى الاختلاف إلى النتيجة الحتمية وهي أن يكون شاملاً لكل المساتير ؛ فن إنكار مطلق للألوهية ، وللروح ، إلى إيمان مطلق عام ، يفرق في الوهم ، ويبعد في الضلال ، حتى يصل إلى التخريف بأوسع معانيه .

وبين هذا وذاك ، مذاهب لا يحصى العدد : فن تشبيه مطلق ، إلى تنزيه مطلق ، إلى تشبيه يشويه التنزيه ، أو تنزيه مشرب بالتشبيه ، ومن حلول ، إلى اتحاد ، ومن وحدة الوجود ، إلى التفرقة بين العابد والمعبود ، إلى مذاهب يبعث اختلافها الدوار في الرأس ، وتبعث براهينها الشك في جميعها ، إلا من عصم

طريق السوى ، توفيق من

- عقيدة راسخة ، آمنت

، ومن يرد أن يفضله يجعل صدره

بها البيئات المسيحية - وفيها من أساطين المفكرين ما لا يحصى - منذ ألفي سنة والتشبيه آمن به كثيرون .

ووحدة الوجود بالمعنى الفلسفي ، لها أنصارها المتحمسون لها ، الذين يرون أن ما عداها لغو ، أو ضلال .

ولو درسنا تاريخ العقائد لوجدنا أن كل فرقة تستند إلى منطق ، وكل عقيدة قد سادت في فترة من الزمن ، أو في بيئة من البيئات ، وكل بيئة تعتقد أن ما لديها خير ما أخرج للناس : « وكل حزب بما لديهم فرحون » .

أما الصراع بين أدلة الفرق المختلفة ، فهو صراع دائم ، تنهات فيه الأدلة ، متخنة بالجراح ، ولكنها تأتي - في غطرسة - أن تعترف بالهزيمة ، فتأخذ في تضصيد جراحها ، لتعاود التزال من جديد ، ولتنهار - أيضاً - من جديد . ولو سرنا حقيقة في المنطق إلى غايته ، لوصلنا إلى الحيرة ، والشك في كل ما أنتجته العقول الإنسانية من آراء .

ومع ذلك ، فاليقين موجود ، ومهما حاولت أن تنكر إشراق الشمس - إذا كانت مشرقة - فسوف لا يستجيب لك شخص ما ، وسوف لا تستجيب أنت لنفسك ، وهكذا الأمر في جميع المحسات .

بيد أن ذلك ميدان ، والغيبيات ميدان آخر .

ربما يقال : إنه من الطبيعي : أن يكون الحس طريق المعرفة المادية ؛ وأن يكون العقل طريق المعرفة العقلية ، ومادامت الغيبات من المعقولات ، فالطريق إلى معرفتها ؛ إذن إنما هو العقل ؛ ومادامنا قد وثقنا بالحس في معرفة الماديات ؛ فلنلتزم بالعقل في معرفة الغيبات .

هذا النمط من التفكير يبدو موقفاً ولكنه محض سفسطة ، فالتصور - وهو

أساس المعقولات - لا يقوم إلا على الحس ؛ وقد جردته من المدركات الحسية ، فقد أزلته إزالة لا تترك له من أثر ، ومهما أغرق الشعراء في الخيال ومهما أبعدوا في الوهم ، فابتدعاتهم ، وصورهم المبتكرة ، منتزعة من الواقع والاختراع : تنسيق للمحس على نمط جديد ، ولا فرق مطلقاً بين ذهن العبقري الفذ ، وذهن الجاهل الغبي . في أن كلا منهما يعتمد على الواقع المحس ، في تصوره ، وفي تخيله .

والصورة المبتكرة - من حيث عناصرها - أسطورة من الأساطير ، أو وهم من الأوهام التي لا وجود لها ، ومادام الأمر كذلك ، فالتفكير المجرد عن المحسات معدوم^(٢) ومادامت المساتير لا شأن لها بالحس فكل تفكير فيها لا يؤدي إلى نتيجة .

(٢) منذ سنوات كتبت بحثاً عن التخيل أقتطف منه مايلي ، توضيحاً لفكرة ارتباط التصور والتخيل بالمحسات .

(١) الخيال والواقع إذا نظرنا إلى العناصر التي تكون مادة التخيل . فإتينا لانجد فيها شيئاً جديداً ، وكل ما للتخيل لا يعدو أن يكون تنسيقاً ، فصورة أبي الهول هي وحدها الجديدة أماما تكون منه - نغني جسم الأسد ورأس الإنسان - فليس ذلك بجديد .

وكل ما لم يخضع لحواس الإنسان فإنه لا يمكن الإنسان أن يتخيله إلا إذا شبه بما وقع تحت حواسه ، وماتصور الناس الغول والعنقاء والجن والشياطين إلا على مثال ما سبق أن رأوا .

وحينما أراد المسيحيون أن يصوروا جبريل ، صوروه على صورة رجل له جناحان .

وتورع جمهور المسلمين فيما يتعلق بالله فقالوا : « كل ما خطر ببالك فإله بخلاف ذلك » إذ أن كل ماخطر بالبال لا يمكن إلا أن يكون مادياً محساً ، وكما الله يقتضي تنزيهه عن المادة وعلاقتها .

أما هؤلاء الذين قصر تفكيرهم فإنهم تخيلوا الله - جل وعز - على صورة رجل ضخم .

ولعل الكثير قد قرأ حكاية ذلك الرجل الساذج الذي حضر مجلساً من مجالس المعتزلة ، فسمعهم يتحدثون عن الله ويقولون . « إنه سبحانه ليس بفوق ، ولا تحت ولا يمين ولا شمال ، ولا بخلف ، ولا بأمام ، وليس بمادة ولا بعرض فخرج ثائراً يعلن أن هؤلاء قوم يريدون أن يقولوا : إنه ليس في =

لقد أطال العلماء في بحث الآراء الموضوعية والآراء الذاتية . ورأوا أن الأولى لا تقبل جدلاً : ذلك لأنها تعتمد - الاعتماد كله - على الحس . أما الآراء الذاتية - وهي قائمة على أسس أخرى - : فإنها مجال للأخذ والرد . ولا يمكن الوصول فيها إلى نتيجة حاسمة مهما طال النقاش . وإذا كانت مادة الأخلاق ، هي الميدان الخصب للآراء الذاتية ، فإن الإلهيات - وهي حجب ومساتير - ميدان أخصب لذلك لا يعدو البحث فيها أن يكون « علماً » كلاً ، أو « علماً جديلاً » .

ومهما أشاد المعتزلة بالعقل ، ومهما رفعوا من شأنه : فن البديهي : أن

= السماء إله ، هذا الرجل الساذج لم يمكنه أن يتخيل موجوداً خالياً من المحسات ولم يمكنه أن يعقل ما لم يتخيله « فاعتقد . أن المعتزلة ينكرون الله .

هذا ، وحاول أن يتخيل أنت ما في الجنة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، فإنه سوف لا يخطر لك على قلب ، ذلك أن ما يخطر على القلب ليس شيئاً آخر غير مآثراته العين ، أو سمعته الأذن . ثم إذا كنت قد قرأت ما قبل عن مدينة المستقبل ، وما كتب عن المدينة الفاضلة فقد رأيت أنه برغم إرادة الإغراب أو التجديد - لم تخرج تلك المدينة عما رأيت ، سوى أنه مكون تكويناً جديداً .

لا يفرج الخيال إذن ، في عناصره عن الواقع ، ولا يمكن الإنسان أن يتخيل إلا المحس . (ب) التخيل والبيئة : إذا قرأت تشبيهاً للعب المرأة بماء غير آس ، وللشيتين المتشابهين بأنها كخفي يعبر . فلا أظن أنه من العسير عليك أن تعلم الموطن الذي ينبع منه هذان التشبيهان ، وربما تكون قد قرأت ما أجاب به ابن الرومي ، حينما عاب عليه بعضهم بأنه لا يتخيل كتحليل ابن المعتز ، ضاربين له مثلاً ، تشبيه الهلال « بزورق من فضة أثقلته حمولة من عتير » فأجاب هذا يصف آية بيته .

وأظنك تفر معي أيضاً ، أن البيئة العلمية في العصور الوسطى لم تكن تسمح باختراع الراديو فلم يمتنع هذا وكثير غيره يرشدنا إلى مآل البيئة من أثر على التخيل ، وأن كل إنسان يتأثر بما في بيته من صور طبيعية ، ومن ثروة ثقافية . والأمر لا يقتصر على ذلك ، بل يتغير تخيل الشخص بتغير بيته .

وكما كثرت المثل في بيته ، وكما سمت موازينها الأخلاقية ، كلما كثرت الرشد فيها وابتعد الخيال عن دائرة الآثام .

الميدان الذي يحيط فيه العقل بخط لا نهاية له : إنما هو ميدان ما وراء الطبيعة . ومن الوجه أن مذهب المعتزلة ، على ما فيه من روعة ، ودقة ، وجمال ، وعلى ما أداه من خطرات جليلة ، في ميدان المنطق الديني ، لا يقوم على أساس « معقول » .

قد تقول : إن العقل - وهو أساس مذهب المعتزلة ، ومذهب العقليين عموماً - له مقاييس وله موازينه التي لا يتطرق إليها الخلل . إن المنطق ، القديم منه والحديث : آلة تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في التفكير ، ولقد جاهدت الإنسانية جهاداً طويلاً ، حتى جعلت من الاستقراء والقياس أداتين للفصل بين الهدى والفلال ، والتفرقة بين العاية والعمياء ، والصواب والأصوب . فالاستقراء والقياس - إذن - هما وسيلة العقل ، وهما يفصل التفرقة بين الغي والرشاد ، فن التجنى على المعتزلة وعلى العقليين - وقد اعتمدوا عليهما - أن نصم مذهبهم بمجافاتها للطريق الأقوم .

إن وجهة النظر هذه تبدو ، وكأنه لا غبار عليها . بيد أنها عند النظرة الفاحصة تتزلزل وتنهار .

أما أولاً : فلأن المعتزلة أنفسهم ، والعقليين عامة - مع اعتمادهم على الاستقراء والقياس - قد اختلفوا فرقاً وأحزاباً لا تحصى ، وكل فرقة أو شعبة تتبع رئيساً وصل به « استقراؤه » ووصل به « قياسه » إلى نتائج معينة تختلف - في قليل ، أو في كثير - عن نتائج استقراء آخر وقياس مختلف . وأما ثانياً : فلأن الفكرة - المنطق يعصم الذهن عن الخطأ في التفكير أو المنطق وسيلة التفكير الصحيح - فكرة خرافية ، أكثر منها حقيقية وذلك يحتاج إلى تبيان :

إن المقاييس هي كما ذكرنا : الاستقراء ، والقياس .

أما الاستقراء - وهو أساس المفاهيم العامة والقضايا الكلية - فإنه :
١ - مبنى كله على الحس : إنه استقراء محسّات ، إنه تتبع جزئيات ، لا تخرج عن نطاق المادة ، أما المساتير فهو بعيد عنها كل البعد ، إنها لا تدخل في دائرة اختصاصه : فهو عاجز عن أن يخترق الحجب ليصل إلى ما وراء الطبيعة .
٢ - ثم إن الاستقراء : تام^(٣) وناقص والتام - كما يعترف المناطق لا ثمرة له ، ولا فائدة فيه .

أما الناقص - وهو المهم في نظرهم - فإنه في رأيهم أيضاً - ظني وهو - لذلك عرضة للتغيير ، في كل آونة .

« كل معدن يتمدد بالحرارة تلك قضية من قضايا الاستقراء ، إنها قضية عامة شاملة ، ولكن المعادن لم تكتشف ، بعد ، بأكملها ، ومن الجائز أن يكتشف في الغد معدن لا يتمدد بالحرارة ، إنها إذن قضية مؤقتة ، ظنية يتبرأ منها اليقيني الفلسفي .

« والعلم لا يعرف الكلمة الأخيرة في مسألة من مسائله - وإنما حقائقه كلها إضافية مؤقتة ، لها قيمتها حتى يتكثف البحث عما يزيل هذه القيمة أو يغيرها »^(٤) .

(٣) « الاستقراء : وهو حكم على كلى لوجوده في جزئيات ذلك الكلى إما كلها : وهو الاستقراء التام الذي هو القياس المقسم . وإما أكثرها : وهو الاستقراء المشهور ، ومخالفته للقياس ظاهرة لأنه في القياس يحكم على جزئيات كلى لوجود ذلك الحكم في الكلى ، فالكل يكون وسطاً بين جزأيه ، وبين ذلك الحكم الذي هو الأكبر ، وفي الاستقراء يقلب هذا فيحكم على الكلى بواسطة وجود ذلك الحكم في جزئياته » عن « البصائر النصيرية » .

(٤) مقدمة فجر الإسلام .

وهكذا قضايا الاستقراء ، إنها :

١ - خاصة بالطبيعة ولا شأن لها بما وراءها .

٢ - ظنية لا تعرف اليقين .

أما القياس :

١ - فإنه مبنى على الاستقراء إذ هو منطوق دائماً على كلية استقرائية ، ومادامت قضايا الاستقراء ظنية - كما رأينا - وميدانها المحسّات ، فنتائج القياس ظنية كذلك ، وميدانها المحسّات .

٢ - ثم إن المناطق لا يشترطون في مقدمات القياس ، أن تكون مسلمة ، صادقة في نفسها ، وإنما يشترطون أن يسلمها المتجادلون فحسب وقد تكون - كما يقول : صاحب البصائر النصيرية - « منكراً » كاذبة في نفسها ، وفي هذه الحالة يكون القياس صحيحاً ، ونتيجته باطلة .
وإذا كان الأمر كذلك فما فائدة القياس ؟

ما قيمته إذا كان لا يعول فيه إلا على أن تكون المقدمات مستوفية لشروط الإنتاج ، بحيث تستلزم النتيجة ، وإن لم تطابق النتيجة الواقع ؟

ما قيمته إذا كان لا يحفل بصدق النتيجة أو كذبها .
إنك إذا قلت : الكثير من العلم ، يؤدي إلى الاستقلال الفردي ، وكل ما يؤدي إلى الاستقلال الفردي مضر بالمجتمع ، فالكثير من العلم مضر بالمجتمع ، كان هذا قياساً صحيحاً في نظر المناطق .

وإذا قلت : الكثير من العلم ، يؤدي إلى التماسك الاجتماعي ، وكل ما يؤدي إلى التماسك الاجتماعي مفيد للمجتمع ، فالكثير من العلم مفيد

للمجتمع - كان هذا أيضاً قياساً صحيحاً عند المناظرة ومع ذلك فالنتيجتان متعارضتان !!

٣- ومع كل هذا فالقياس استدلال دورى فاسد ، ذلك أن العلم بالنتيجة في نحو قولنا : « محمد إنسان وكل إنسان ناطق ، فمحمد ناطق متوقف على العلم بالكبرى والعلم بالكبرى متوقف على العلم بالنتيجة ، لأنك لا تستطيع أن تحكم بالناطقة على جميع أفراد النوع الإنساني ، إلا إذا تأكدت من ثبوت الناطقية لمحمد ، ولو كنت في شك من ذلك ، لما استطعت تعميم الحكم بالناطقة على جميع أفراد الإنسان . إذن تكون الكبرى : متوقفة على النتيجة ، والنتيجة متوقفة على الكبرى ، وعلى ذلك يكون القياس : استدلالاً دورياً فاسداً فلا يعول عليه .

٤- وأخيراً ، فالمفروض أن نتيجة القياس جديدة كل الجدة ، إنها استنتاج مجهول هو النتيجة ، من معلوم ، هو المقدمات .

ولكن النتيجة متضمنة في المقدمات ، إنها ليست مجهولة ، والقياس لا يؤدي إذن إلى معرفة جديدة ، أو إلى استنتاج مجهول من معلوم . إنه - إذا أردت الدقة - استنتاج معلوم من ... معلوم .

تلك هي موازين العقل وستر يد الأمر - أمر قصور العقل - إيضاحاً في فصل تال - وهي موازين لا غناء فيها ، ولا جدوى منها . العقل إذن قاصر فيما يتعلق بالأخلاق ، وهو قاصر على الخصوص فيما يتعلق بالإلهيات .

ومن هنا كانت الحكمة في نزول الأديان .

ومن هنا كان السبب في اقتصارها على الأخلاق والإلهيات .

وإذا كانت قد تحدثت في التشريع ، فإن التشريع - وهو في نطاق الأخلاق .

بيد أن الأديان إذا كانت قد اتخذت موقفاً حاسماً في سائر تحديد الخير والشر ، فإنها ، في المغيبات : لم ترهق الإنسان من أمره عسراً فتوضح له ما ليس في مقدوره إدراكه ، أو تبين له ما يسمو عن إدراكه .

أما هذا الذي يسمو عن التبيان ، فإنه ذلك النوع من المعرفة الذي لا يدخل في نطاق المحسوسات ، وبالتالي لا يدخل في نطاق العقليات - سوى : المسابير وإنه ليعجبني في هذا المقام قول ابن عبد البر المتوفى سنة ٤٦٣ هـ إن الله ليس كمثله شيء : فكيف يدرك بقياس أو غيره من نظر .

لذلك رسمت الأديان في هذا المحيط إطاراً عاماً فقط ، وهذا الإطار انعم نفسه مبنى بعضه على الحس ، وهو داخل في نطاق الآيات المحركة التي هي أم الكتاب : ﴿ لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ .

والعامي يقول عن المشاهدة : « المركب التي فيها رئيسان تغرق » .

أما بعضه الآخر فهو المشابهة ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا ﴾ .

وحكمة قدماء المصريين دقيقة كل الدقة إذ تقول :

« محال على من يفنى ، أن يزيل النقاب الذي تنقب به من لا يفنى » . رسمت الأديان إطاراً عاماً ، ولكن هذا الإطار لا يرضى النفوس الطالبة ، التي أبت خطأ - أن تعترف بحدود للعقل ، أو بقصور فيه ، فبحثت داخل هذا الإطار وخارجه ، فكان ما كان من تشعب ، وفرقة واختلاف .

إننا لا نشك في أن رؤساء الفرق الإسلامية - معتزلة كانوا أو أشاعرة ،
وشيعه كانوا أم سلفيين - قد تشبعوا بإيمان راسخ ، وحرارة دينية فائقة ،
وعقيدة لا ترعزها الأعاصير .
وقد اعتمدوا جميعاً على نصوص واحدة ، كتاب الله ، وحديث رسوله .

ذلك إنما هو
شخصي وحده .
الإمام مالك :

آراء تتحد في
نها : « آراء » .
إذا الشخصى :

تصور صفات
معنا : أن ذلك

« والتحقيق بالبرهان علم ، .. »
والقبول مع التسامح والتجربة بحسن الظن : إيمان .
ولكن ذلك ليس معرفة مباشرة .
لا شيء إذن مما سبق من وسائل المعرفة : يصل بنا إلى المعرفة المباشرة في
محيط ما وراء الطبيعة .

وتلك هي النتيجة التي نريد من كل ما سبق الوصول إليها .
وإذا أردنا تلخيص ما نريد أن تنتهى إليه قلنا :
١ - الحس عاجز عن الوصول بنا إلى المفاهيم ؛ فإننا لا نحسها .
٢ - العقل - وهو مبني على الحس - قاصر كذلك .
وإذن فعلم الكلام الذي لا يسير على نهج سلفي - وهو آراء من صنع
البشر - ليس بدعة فحسب ، وإنما هو ضلالة . وهو عبث ، وهو انحراف عن
سواء السبيل

قال الإمام مالك : الكلام في الدين أكرهه ، ولم يزل أهل بلدنا
يكرهونه ، وينهون عنه : نحو الكلام في رأى جهنم ، والقدر ، وما أشبه
ذلك ، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل .
وقال الإمام أحمد : لا يفلح صاحب كلام أبداً ، ولا نكاد نرى أحداً نظر
في الكلام إلا وفي قلبه دغل .
وقال الإمام مالك : أرأيت إن جاءه من هو أجدل منه ، أيدع دينه كل
يوم لدين جديد ؟

هل معنى ذلك : أن المعرفة - فيما يتعلق بالإلهيات - غير ممكنة ؟
هل معنى ذلك : أن الغطاء لا يمكن أن يكشف عن الحجب ؟ وأنه

لا سبيل إلى المعرفة الحقيقية ؟

ذلك ما لا نقول به .

ما السبيل إذن إلى المعرفة ... ؟

في وسيلة المعرفة

سيدنا رسول الله ، صلوات الله عليه وسلامه ، معجزة التاريخ ، وهو
المنارة التي يهتدى بها الإنسان كلما انبهت الأمور ، أو ضلت الآراء .
وحياته قبل البعثة كحياته بعدها - : عظة وعبرة ، وهداية ومثل أعلى لمن
أراد الطريق الأقوم .

إن من يتدبر حياته ، صلوات الله وسلامه عليه ، قبل البعثة ، ولا يكون
عنده فكرة صحيحة عن النبوة ، من حيث إنها لا تكتسب اكتساباً ، وإنما
توهب من الله تعالى : يكاد يعتقد أنه اقتنص اقتناصاً ، واضطره إلى التزول
اضطراراً ، وأنه أبي إلا أن يظفر بما يريد ، فكان له ما أراد .
بيد أن الصواب هو أن الله اصطفاه ، وفضله على العالمين ، عندما حان
الموعد الذي حددته العناية الإلهية لتجلى ، عن طريق اختياره رسولا .
يقول الإمام المراغي رحمه الله :

النبوة هبة لا تنال بالكسب ، لكن حكمة الله وعلمه : قاضيان بأن تمنح
للمستعد لها ، القادر على حملها : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .
ومحمد ، ﷺ : أعد لأن يحمل الرسالة للعالم أجمعه ، أحمره وأسوده ،
إنسه وجنه .

وأعد لأن يحمل رسالة أكمل دين .
ولأن ينحتم به الأنبياء والرسل وليكون شمس الهداية وحده ، إلى أن تنفطر

السماء ، وتنكدر النجوم ، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات (٥) اهـ .
أما هذا الإعداد ، فقد حاطه الله بعنايته التامة ؛ إنه أعده من ناحية
أسرته : أعنى من ناحية الوراثة ، وأعده من ناحية فطرته : أعنى طبيعته
الشخصية .

أما من ناحية أسرته ، فهذا جده عبد المطلب كان « سمح الطبع رضى
النفس » سخي اليد ، حلو العشرة ، عذب الحديث . وكان عبد المطلب أيضاً
قوى الإيمان تملك قلبه ، وتسيطر على نفسه ، نزعة دينية حادة عنيفة ، ولكنها
غامضة ، يحسها ، ويخضع لها ، ولكنه لا يتبينها ، ولا يستطيع لها فيها
ولا تفسيراً (٦) ..

« كان فتى من فتيان قريش ، ولكنه يمتاز من بقية فتيان قريش :
فيه ذكاؤهم وفطنتهم ، وفيه إباؤهم وعزتهم ، ولكن فيه دعة ، لم تكن
مألوفة عندهم ، وفيه شدة من الدين ، قلما كانوا يرضونها ، أو يتسمون بها .
على أن خصلة أخرى ميزته منهم أشد التمييز : فلم يكن يصدر في حياته - كما
كانوا يصدرون - عن الروية والتفكير ، وطول التدبر ، وإنما كانت تدفعه إلى
العمل ، والاضطراب في الحياة ، قوة خفية ، يحسها ، ويأتى عليها ويغلو في
الإباء ، ولكنه يضطر إلى أن يذعن لها ، ويصدر بأمرها (٧) .

وكانت هذه القوة تصدر إليه أمرها في أشكال مختلفة : تدفعه إلى العمل
حيناً وكأنها إرادته الخاصة ، قد ملكت عليه حسه وشعوره ، فهو لا يستطيع

(٥) من مقدمة « حياة محمد » للدكتور هيكل .

(٦) انظر كتاب « على هامش السيرة » .

(٧) انظر كتاب « على هامش السيرة » .

عنها انصرافاً ، ولا يملك لها خلافاً .

وتتمثل له حيناً آخر شخصاً ، واضح الخيال . بين الصوت ، يلم به إذا
اشتمله النوم ، فيأمره أن يأتى كذا وكذا من الأمور .

وكان في هذا الصوت غموض ، وكان في هذا الصوت إبهام .

وكان في هذا الصوت جلال مصدره هذا الغموض والإبهام ، وكان الفتى
بنكره ، ويرتاع له ، وكان الصوت يغمره ويلح عليه . وكان الفتى يخاف هذا
الصوت ويهواه ، وكان هذا الصوت يتجنب الفتى يؤيسه من نفسه ، ويلم به
فيكثر الإلحاح ولم يكن هذا الصوت يقع في أذن الفتى بألفاظ كالتي تقع في آذان
الناس ، إنما كان يصطنع ألفاظاً خاصة ، غريبة الجرس ، غريبة
المعنى (٨) اهـ .

أما والده - عبد الله - فقد كان صورة طبق الأصل من جده ، وكان
شعاره : « أما الحرام فالملات دونه » .

وتقول له فاطمة الخثعمية : إني لأعرف فيك نسك أهلك .

قبيلته : قريش : وأسرته : بنو هاشم ، وجده : عبد المطلب ، سيد قريش
إذ ذاك ، ووالده عبد الله : فكان هو محمداً .

ولقد اختاره الله للرسالة ، ولكنه ، تعالى : اصطنعه لنفسه ، قبل أن يختاره
أجل ! وهذه الفترة من حياته التي سبقت البعثة . كانت فترة جهاد وصراع
روحي هادئ بكل معنى الهدوء ، عنيف أشد العنف ، مستمر لا ينقطع ، فيه
الخوف ، وفيه الرجاء ، وفيه الكثير من الأمل والثواب . الذي يشحذ العزيمة ،
ويسد على اليأس القانط كل منفذ . إن هذه الفترة من حياته كانت - على حد

(٨) انظر كتاب « على هامش السيرة » .

تعبير الجنب في تعريف التصوف - عنوة لا صلح فيها .

كان صلوات الله وسلامه عليه ، يتوج كل عام ، جهاده الروحي المتصل ، بشهر يقضيه في غار حراء : حيث الخلوة الثامة ، وحيث التجرد المطلق أو شبه المطلق . عن كل ما سوى الله ، وهناك في سجوة الليل ، أوفى رائحة النهار : يحاول محمد أن يحطم الحجب ، وأن يخترق المساتير ، وأن ينفذ ببصيرته إلى عالم الغيب فيصل إلى سدره المنتهى ، وإلى قاب قوسين أو أدنى ، حتى يشاهد الجمال في سنائه ، والجلال في عظمته وكبريائه وجلاله .

ها هو ذا الرسول ﷺ ، يبذل مجهوداً جباراً ، لا يكاد الإنسان يتصوره ، فضلاً عن أن يأتي بمثله .

وها هو ذا ، يرى الهدف بعيداً لا يكاد الإنسان يفهمه ، فضلاً عن أن يصل إليه .

ها هو ذا ، يرى الطريق وعثاء ، صلبة المرتقى بيد أن ذلك كله لم يكن إلا ليزيده عزماً على عزم ، وإرادة على إرادة . ونشاطاً مضاعفاً .

إنه الجهاد الأكبر ، على حد تعبير الأثر المشهور ، عن جهاد النفس لتتزكى .

وتمضي السنون ، بطيئة سريعة في آن واحد ، وجهاد الرسول ﷺ ، لا يفتقر حتى أصبح ، أو كاد ، روحاً خالصة ، أوقباً من نور الله ، وانتهى به الأمر إلى قرب ، يقول عنه الإمام الغزالي إنه :

« أول حال رسول الله عليه الصلاة والسلام : حين أقبل على جبل حراء حيث تبثل ، حين كان يخلو فيه بربه ويتعبد ، حتى قالت العرب : « إن محمداً عشق ربه ! » .

ثم كانت الرسالة ، وكانت المعجزة التي غيرت مجرى التاريخ : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ . ويقول الدكتور هيكل :

« وجد محمد فيه (في التحنث) خير ما يمكنه : من الإيمان فيما شغلت به نفسه ، من تفكير ، وتأمل ، كما وجد فيه طمأنينة نفسه ، وشفاء شغفه بالوحدة . يلتبس أثناءها الوسيلة إلى ما لم يبرح شوقه يشتد إليه ، من نشدان المعرفة ، واستلهاهم ما في الكون من أسبابها .

وكان بأعلى جبل حراء - على فرسخين من شمال مكة - غار ، هو خير ما يصلح للانقطاع والحنث ، فكان يذهب إليه طوال شهر رمضان ، من كل سنة ، يقيم به مكثياً بالقليل من الزاد يحمل إليه ، ممعناً في التأمل ، والعبادة ، بعيداً عن ضجة الناس وضوضاء الحياة . ملتصقاً بالحق ، والحق وحده . ولقد كان يشتد به التأمل ابتغاء الحقيقة حتى لقد كان ينسى طعامه وينسى كل ما في الحياة ؛ لأن هذا الذي يرى في حياة الناس مما حوله : ليس حقاً

« وشارف محمد الأربعين ، وذهب إلى غار حراء يتحنث ، وقد امتلأت نفسه إيماناً بما رأى في رؤاه الصادقة ؛ وقد خلصت نفسه . . . وقد أدبه ربه ، فأحسن تأديبه ، وقد اتجه بقلبه إلى الصراط المستقيم ، وإلى الحقيقة الخالدة وقد اتجه إلى الله بكل روحه ، أن يهدي قومه ، بعد أن ضربوا في تيه الضلال ، وهو في توجهه هذا يقوم الليل ، ويرهف ذهنه وقلبه ، ويطلق الصوم ، وتثور به تأملاته ، فينحدر من الغار إلى طريق الصحراء ، ثم يعود إلى خلوته ، ليعود قضية التصوف المثق من الضلال

فيمتحن ما يدور بذهنه ، وما يتبين له في رؤاه .

ولقد طالت به الحال ستة أشهر ، حتى خشي على نفسه عاقبة أمره ، فأسر بمخاوفه إلى خديجة ، وأظهرها على ما يرى ، وأنه يخاف عبث الجن به . فطمأنته الزوجة المخلصة الوفية ، وجعلت تخدثه بأنه الأمين ، وبأن الجن لا يمكن أن تقترب منه ، وإن لم يدر بخاطرها ، ولا بخاطره : أن الله يهيئ مصطفاه بهذه الرياضة الروحية ، إلى اليوم العظيم ، وإلى النبأ العظيم ، يوم الوحي الأول ، ويهيئه بها إلى البعث والرسالة :

وفيما هو نائم بالغاريوماً جاءه ملك وفي يده صحيفة فقال له : « اقرأ » (٩) .

• • •

هذه الحياة التي هداه الله لها - لا علم الكلام ولا الفلسفة العقلية - هي التي رسمت لنا الطريق إلى الله : طريق الكشف ، طريق الإلهام ، طريق البصيرة بل طريق المشاهدة . على ما يرى الصوفية .

وهذه الحياة التي علمناها عن الرسول ﷺ إجمالاً : قد فصلها الصوفية أدق تفصيل ، وبينوها بياناً « سيكولوجياً » غاية في الاحكام : بتدرج مع الإنسان خطوة خطوة ، حتى يصل به إلى درجة - لا نقول : إنها النهاية ، إذ ليس لمعرفة الله نهاية - يكون ما بعدها بعيداً كل البعد عن إدراك الطبائع البشرية العادية ، فلا يمكن التمييز عنه بلسان المقال .

وهذا الطريق سماه الصوفية : معارج القدس ، وسموه : منازل السالكين ، ومدارج السالكين ومنازل الأرواح ، وهو عبارة عن المقامات والأحوال التي يسلم كل مقام منها إلى ما بعده ، وكل حال منها إلى الذي يليه ، حتى يصل

(٩) من حياة محمد (للكور هيكل) .

الإنسان إلى القرب ، والمشاهدة . ويستغرق في ملكوت يسمو على الوصف . يقول الإمام الغزالي : « ومن أول الطريق تبدئ المكاشرات والمشاهدات حتى إنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة ، وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتاً ، ويقتبسون منهم فوائد . ثم يترقى الحال : من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق » .

يقين مطلق من جانب ، وشك عميق من جانب آخر ، اختلاف شاسع ، بل تعارض وتضاد .

ومع ذلك فإن الصوفي ، والشاك ، قد يتفقان في المبدأ الذي بنى عليه كل منهما اتجاهه . أريد أن أقول : إن الحالات التي تؤدي بالصوفي إلى التصوف ، هي - في بعض الأحيان - نفس الحالات التي تؤدي بالشاك إلى رأيه ، هذا من جهة .

ومن جهة أخرى فإن الشك نفسه ربما أدى إلى التصوف .

• • •

كلنا يعلم أن هناك طريقين للمعرفة : هما الحواس ، والعقل : فعرقي بالشئ نتج عن أنى أراه ، وأحسه ، أو أنى أستتجه ، بدليل عقلى . كثير من الناس ، بل الأغلبية الساحقة منهم يأخذون المعرفة الناشئة عن هذين الطريقين قضية مسلمة ، لا تقبل جدلاً ، ولا يحيط بها شك . ولكن في العالم أيضاً ذلك الشخص ، الذي يرى أنه ما دامت الحواس تخطيء فهي ليست أهلاً للثقة إلى أن يرى السراب فأحسبه ماء ، وتسيطر على فكرى صورة من الصور ، وتقوى هذه السيطرة ، فأرى الصورة ممثلة أمامى والمريض يرى خيالات ، لا حقيقة لها ، والخائف يرى أشباحاً ، ويسمع أصواتاً لا وجود لها . إن الأمثلة لا تحصى ، وكل يوم ، بل وكل فترة ، تعطينا دليلاً على خطأ الحواس فهل بعد هذا نثق بمعرفة تأتى عن طريقها ؟ كلا . بقى العقل ولكن ما قيمته ؟ كل ينتسب إليه ، ومع ذلك فلا تجد اثنين على اتفاق تام .

إن هذه المذاهب الفلسفية التي لا تكاد تعد كلها مبنية على العقل ، وكلها

التصوف والشك

يعرف كثير من الناس التصوف : بأنه المذهب القائل بالإلهام ، والبصيرة ، أو إذا شئت فبالعلم اللدنى : أى بهذا النوع من المعرفة اليقينية ، الذى لا يتصور فيه الشك ، ولا تعبت به السفسطة . وإذا كان هذا التعريف غير جامع مانع فإنه - لا ريب - يرينا ما للمعرفة اليقينية من أهمية .

فتصفية الروح ليس غرضاً من أغراض الصوفية إلا أنها تمهد للاتصال بالله ، ولتلقى المعرفة عنه . ولا ريب أن معرفة تأتى عن طريق الإلهام ، هي معرفة لا يتطرق إليها الهدم ، ولا تنهار أمام حجج المطلق ، وأنت تحاول عبثاً ، إذا أردت أن تبعث الشك في نفس الصوفى ، أو أن تحول عن رأيه ، إذ كيف يجيد

ت فيها روحه ،
م عليا سامية ؟
مترف بحقيقة ،
جودها ، وعبثاً
عن رأيه بديلاً
يعطيك على
النهاية ، بأن

مؤسسة عليه ، وقائمة به ، وكلها جذابة أخاذة تغرى بقوة أدلتها . وتستولى عليك بصرامة منطقها ، ومع ذلك فلا تكاد تنفق في شيء ما .

ثم ماذا ؟ ألم يبرهن أحدهم ببرهان عقلي ، منطقي على أن الأرنب لا يلحق بالسلحفاة - مها أسرع في العدو - إذا بدأت السلحفاة قبله وسبقته بمت ، أو مترين ؟

ألم يبرهن أحدهم على أن السهم في سيره لا يتحرك ؟ وأنت نفسك : أليست آراؤك في حالة التشاؤم ، غيرها في حالة أخرى ؟ وفي حالة السرور ، غيرها في حالة الحزن ؟

ثم البراهين ، التي ترى قوتها ، وتعتقد فيها حالة الحلم ليست أقل من أن يقال عنها : إنها براهين عقلية . .

هكذا إذا أخذت في تعداد الأمثلة على أخطاء العقل ، فإنك لا تكاد تقف عند حد .

• • •

أخطأت الحواس فلا ثقة فيها ، وأخطأ العقل فلا ثقة به ، فهل معنى ذلك أن لا سبيل إلى المعرفة الحقيقية ؟

يحيينا الشاك نعم ، وسنمكث إلى الأبد محكوما علينا ، بالجهل ، أو إذا شئت ، بعدم المعرفة الصحيحة .

ولكن الصوفي - بعد أن سار هذه الخطوات ، ووصل إلى الشك في قيمة حوس والعقل . وفي قيمة المعرفة الناشئة عنها - يعود فيثبت المعرفة عن طريق آخر : هو الإلمام ، أو البصيرة ، أو العلم اللدني ، كما يقولون .

إذن : قطع الصوفي ، والشافك المرحلة الأولى معا ، فوصلا إلى الشك ،

فرضي به أحدهما ، واقتنع بأن لا مطمح وراءه ، وخطا الآخر خطوة أخرى ، خطاها لا ليضع لنفسه منطقاً ، أو منهجاً يسير عليه ليعتصم من الزلل الذي توقعه فيه حواسه ، ويوقعه فيه عقله - كما يفعل الفلاسفة - وإنما ليصل إلى معرفة من طريق آخر ؛ لا يتسرب إلى نتائج شك .

لنلق الآن نظرة على النفس الإنسانية ، فنرى أنها لا تحب الإقامة على الشك ، ولا ترغب في اتخاذ الإنكار مذهباً ، وقاعدة ، وأنها - على كثرة حبا للمعرفة ، وشغفها بالاستطلاع - تريد دائماً أن تجعل اليقين قاعدة آرائها ؛ وأعمالها .

ونرى - أيضاً - أن من أشق أوقات الإنسان ، تلك الفترات التي تضطرب فيها نفسه ، وتذبذب آراؤه ، ويختلط عليه الأمر .

هذه الحالة تبعث في النفس الضيق ، والكآبة ، فإذا اشتدت واستمرت سببت أحياناً الانتحار . وأحياناً الجنون ؛ ولكنها - أيضاً في بعض الأحيان ؛ تؤدي إلى التصوف .

نعم ! تؤدي إلى التصوف : حيث يجد الشخص ملجأ تستقر فيه نفسه ، وتهدأ ، وتسكن ، وحيث يجد اليقين ، والإيمان والعلم الثابت :

لقد كان « الحارث بن أسد الخراساني » متعطشاً إلى المعرفة ، والبحث والاطلاع ، وإلى الوصول لرأى لا بعنوره الشك ، إلى رأى يقيني ، ثابت لا يتزلزل .

ولكنه بعد أن بحث ، زاد حيرة - بدل أن يزيد إيماناً - واضطربت نفسه وخشى أن يأتيه الموت فجأة قبل أن يعتصم بحبل الله المستقيم : فكاد وجد ، ثم يش من أن يصل إلى النتيجة .

ولكن الله وفقه في النهاية إلى الاتصال بقوم صالحين فسكن إليهم وأخلد ،
سكن إليهم وأخلد ، لا لأن منطقهم أوجد عنده اليقين ، ولا لأن براهينهم
بعثت في نفسه الاطمئنان ، وإنما لأن سيماهم على وجوههم تبعث الثقة ،
وتهدى إلى الرشاد .

لندع المحاسبي نفسه يصور حالته - والنص الذي نثبته الآن من مخطوط له
بدار الكتب المصرية ، اسمه : « النصائح » (١٠) - وقد تعددت إثبات هذا
النص كاملاً ؛ لما بينه وبين كلام الغزالي في كتابه : « المتقذ من الضلال » من
شبه ، يهيم كل باحث في التصوف معرفته :

قال المحاسبي بعد مقدمة موجزة :

« أما بعد فقد انتهى إلينا أن هذه الأمة تفرقت على بضع وسبعين فرقة ، منها
فرقة ناجية ، والله أعلم بسائرهما ، فلم أزل - برهة من عمري - أنظر في اختلاف
الأمة ، وألتبس المنهاج الواضح والسييل القاصد وأطلب من العلم والعمل
وأستدل على طريق الآخرة بإرشاد العلماء ، وعقلت كثيراً من كلام الله عز وجل
بتأويل الفقهاء .

وتدبرت أحوال الأمة ونظرت في مذاهبها ، وأقاويلها ، فعقلت من ذلك
ما قدر ، ورأيت اختلافهم بجرأ عميقاً ، غرق فيه ناس كثير ، وسلم منه عصابة
قليلة ، ورأيت كل صنف منهم ، يزعم أن النجاة في اتباعهم ، وأن الهالك من
خالفهم .

ثم رأيت الناس أصنافاً : فمنهم العالم بأمر الآخرة ، لقاءه عسير ووجوده
عزيز .

(١٠) طبع الكتاب أخيراً بعنوان « الوصايا » في القاهرة ، (مكتبة صبيح)

ومنهم الجاهل ؛ فالبعد عنه غنيمة .

ومنهم المتشبه بالعلماء مشغوف بدنياء مؤثر لها .

ومنهم حامل منسوب إلى الدين ملتزم بعلمه التعظيم والعلو ، ينال بالدين
من عرض الدنيا .

ومنهم حامل علم لا يعلم تأويل ما حمل .

ومنهم متشبه بالنسك متجر بالخير لا غناء عنده ، ولا بقاء لعلمه ولا معتمد
على رأيه .

ومنهم منسوب إلى العقل والدهاء مفقود الورع والتقى .

ومنهم متوادون ، على الهوى يتفقون ، وللدنيا يتبادلون ورياستها يطلبون .

ومنهم شياطين الإنس ، عن الآخرة يصدون ، وعلى الدنيا يتكالبون ، وإلى
جمعها يهرعون ، وإلى الاستكثار منها يرغبون ، فهم في الدنيا أحياء ، وعن
العرف موتى ، بل العرف عندهم منكر ، والسوء معروف .

فتفقدت في الأصناف نفسى ، وضقت بذلك ذرعاً ، فقصدت إلى هدى
المهتدين ، بطلب السداد والهدى ، واسترشدت العلم . وأعملت الفكر ،
وأطلت النظر .

فتبين لى في كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه وإجماع الأمة ، أن اتباع الهوى
يعمى عن الرشاد . ويضل عن الحق ويظيل المكث في العمى .
فبدأت بإسقاط الهوى عن قلبي .

ووقفت عند اختلاف الأمة مرتاداً لطلب الفرقة الناجية ، حذراً من الأهواء
المردية ، والفرقة الهالكة ، متحذراً من الاقتحام قبل البيان ، والتمس سبيل
النجاة لمهجة نفسى .

ثم وجدت باجتماع الأمة في كتاب الله المنزل ، أن سبيل النجاة في التحمس بتقوى الله ، وأداء فرائضه والورع في حلاله وحرامه ، وجميع حدوده والإخلاص لله تعالى بطاعته ، والتأسي برسول الله ﷺ .

فطلبت معرفة الفرائض والسنن عند العلماء في الآثار ، فرأيت اجتماعاً واختلافاً ، ووجدت جميعهم مجمعين على أن الفرائض والسنن عند العلماء بالله . وأن الفقهاء عن الله العاملين برضوانه ، الورعين عن محارمه ، المتأسين برسوله ﷺ المؤثرين الآخرة على الدنيا : أولئك المتمسكون بأمر الله ، وسنن المرسلين .

فالتمست من بين الأمة هذا الصنف المجمع عليهم والموصوفين ، أقفوا آثارهم ، وأقتبس من علمهم ، فرأيتهم أقل من القليل ، ورأيت علمهم مندرساً كما قال رسول الله ﷺ : « بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغريباء » وهم المنفردون بعلمهم .

فعظمت مصيبتى بفقد الأدلاء الأتقياء ، وخشيت بغتة الموت أن يفجأني على اضطراب من عمرى لاختلاف الأمة .

فانكشيت في طلبى عالماً لم أجده من معرفته بدأ ، لم أقصرني الاحتياط ولم أن (١١) في النصيح .

فقيض لي الرؤوف بعباده ، قوماً وجدت فيهم دلائل التقوى وأعلام الورع ، وإيثار الآخرة على الدنيا ، ووجدت إرشادهم ووصاياهم موافقة لأفاعيل أئمة الهدى : مجتمعين على نصيح الأمة ، لا يرجون أحداً في معصيته ، ولا يقنطون أحداً من رحمته ويوصون كل واحد بالصبر على البأساء والضراء ،

(١١) أفتر ولم أنبئ .

والرضا بالقضاء والشكر على النعماء ، يحببون الله تعالى إلى العباد ، بذكرهم أياديه وإحسانه ، ويحثون العباد على الإنابة إلى الله تعالى ، علماء بعظمة الله تعالى وعظيم قدرته ، وعلماء بكتابه وسننه فقهاء في دينه ، علماء بما يحب ويكره ، ورعين في البدع والأهواء ، تاركين التعمق والإغلاء مبغضين للجدال والمراء ، متورعين عن الاغتياب والظلم والأذى ، مخالفين لأهوائهم ، محاسبين لأنفسهم ، مالكين لجوارحهم ورعين في مطاعهم وملابسهم وجميع أحوالهم ، مجانبين للشبهات ، تاركين للشهوات ، مجتذنين بالبلغة من الأقوات ، متقللين من المباح زاهدين في الحلال مشفقين من الحساب ، وجلين من المعاد مشغولين بيبشهم ، مؤثرين على أنفسهم من دون غيرهم ، لكل امرئ منهم شأن يغنيه .

علماء بأمر الآخرة وأهاوليل القيامة ، وجزيل الثواب وأليم العقاب ، ذلك أورثهم الحزن الدائم والهم المضمي ، فشغلوا ، عن سرور الدنيا ونعيمها . ولقد وصفوا للآداب صفات وحددوا للورع حدوداً ، ضاق لها صدرى وعلمت أن آداب الدين وصدق الورع ، بحر لا ينجو من الغرق فيه شبيهى ، ولا يقوم بحدوده مثلى .

فنبين لي فضلهم ، واتضح لي نصيحهم ، وأيقنت أنهم العالمون بطريق الآخرة ، والمتأسون بالمرسلين ، والمصابيح لمن استضاء بهم ، والهادون لمن استرشد بهم .

فأصبحت راغباً في مذهبهم مقتبسا من فوائدهم ، قابلاً لآدابهم ، محباً لطاعتهم لا أعدل بهم شيئاً ، ولا أؤثر عليهم أحداً .

ففتح الله لي علماً انفتح لي برهانه ، وأنار لي فضله ورجوت النجاة لمن أقر

به أو انتحلته ، وأيقنت بالغوث لمن عمل به ، ورأيت الاعوجاج فيمن خالفه ،
ورأيت الرين متراكماً على قلب من جهله وجحدته ، ورأيت الحججة البالغة لمن
فهمه ورأيت انتحاله ، والعمل بجلوده ، واجباً على واعتقدته في سريري
وانطويت عليه بضميري وجعلته أساس ديني وبنيت عليه أعالي وتقلبت فيه
بأحوالي .

وسألت الله عز وجل : أن يوزعني شكر ما أنعم به علي ، وأن يقويني على
القيام بمحدود ما عرفني به معرفتي بتقصيري في ذلك . وإني لا أدرك شكره أبداً ،
انتهى كلام المحاسبي .

وليس المحاسبي بدعاً في ذلك وإنما يتفق معه الإمام الغزالي ، بل الإمام
الغزالي أوضح وأدق :

حاول أن تصور معي حالة الإمام الغزالي النفسية فستجده متلهفا على المعرفة
محبا للاطلاع والدرس والبحث ، غارقاً في محيط الفلسفة والعلم ، ولكنه مع
كثرة اطلاعه وتنقيبه لم يجد في المذاهب الفلسفية ما يرضيه ولم يجد في الأدلة
العقلية المؤسسة عليها هذه المذاهب ما يقنعه .

ورأى أن من العبث أن يبدأ في تأليف مذهب فلسفي جديد ، إذ مصير
ذلك - حتماً - مصير ما سبق من المذاهب التي وإن أخذت بألباب كثير من
الناس ، فإنها لا تثبت أمام النقد الصارم . والتي تبعث التفرقة :

إذ ليس فيها من القوة البرهانية ما يقنع الجميع .

ليس هناك إلا الشك إذن :

وفي الواقع : لقد شك الإمام الغزالي : شك في الحواس وشك في العقل ،
شك فيما يتتح عنها :

ولكن نفسه اضطربت ونخل جسمه ، وضاق بالحياة ذرعاً ولم يجد ملجأ
ولا عاصماً من هذه الحيرة وهذا الاضطراب إلا التصوف ، فولج بانه واطمأن
إليه .

وكتابه : « المنقذ من الضلال » الذي يقص فيه تطوره الفكري
هذا خير تصوير .

وكما يبدأ المحاسبي بحديث : « ستفترق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة
واحدة » كذلك يبدأ الغزالي بهذا الحديث ، وتكاد بعض جملة
من كلام المحاسبي نصاً : مما دعا بعض المستشرقين إلى أن يذكر
في كتابته لكتابه هذا - تأثر بالمحاسبي في كتابته لمقدمة كتاب
وسواء كان صحيحاً أم غير صحيح فما لا شك فيه أن الإمام
الكتاب ، إذ أنه استشهد ببعضه في « الإحياء » .

والذي يعيننا الآن : هو أن الإمام الغزالي - كما يصور في كتابه
بعدم الاطمئنان حيناً فكرياً هذا الحديث الشريف ، وحيناً
الخلق في الأديان والملل ، ثم اختلاف الأئمة في المذاهب -
وتباين الطرق - بحر عميق : غرق فيه الأكثرون ، وما نجا من
وكل فريق يزعم أنه الناجي ، وكل حزب بما لديهم فرحون

لهذا أخذ الإمام الغزالي في البحث جهد طاقته ، ليصل إلى
ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه بإمكان
ولا يتسع القلب لتقدير ذلك » ثم يقول :
« وعلمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ، ولا أتقنه

البقي ، فهو علم لا ثقة به ، ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه ، فليس بعلم ببقى .

ثم فتشت عن علمي ، فوجدت نفسي عاطلاً من علم موصوف بهذه الصفة إلا في الحسيات والضروريات ولكن :

« انتهى بي طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في الحسيات أيضاً » .

ثم أخذ الإمام الغزالي يذكر أسباب شكك في المحسّات وفي الضروريات وفي العقليات ، وقد ذكرنا طرفاً منه آنفاً .

واستمر الإمام على تلك الحالة حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض ، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين .

ولم يكن ذلك بنظم دليل : أوترتيب كلام ، بل بنور قدّفه الله تعالى في الصدر وذلك النور : هو مفتاح أكثر المعارف ، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة ، فقد ضيق رحمة الله الواسعة .

ولما سئل رسول الله ﷺ عن « الشرح » ومعناه في قوله تعالى :

« فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » قال :

« هو نور يقذفه الله تعالى في القلب » .

فقيل : وما علامته ؟ فقال :

« التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود » ، وهو الذي قال عليه عليه الصلاة والسلام فيه :

« إن الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ، ثم رش عليهم من نوره » .

فمن ذلك النور : ينبغي أن يطلب الكشف ، وذلك النور ينبجس من الجود الإلهي في بعض الأحيان ، ويجب الرصد له كما قال عليه السلام :
« إن لربكم في أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها » .
هذا الشك الذي حدا بالغزالي إلى التصوف ، كما حدا بالمحاسب قبله ، هو شك أتى من البحث وراء الحقيقة .

• • •

ولكننا لا نريد أن نقول : إن هذا النمط من الشك هو وحده : أساس التصوف ، وإنما نريد أن نقول : إن أساس التصوف - في بعض الحالات : هو شك على نحو ما ؛ سواء كان هذا الشك يتصل بالناحية الفكرية ، أو بالناحية الاجتماعية ، أو بالناحية الوجدانية .

فهذا الشخص الذي صدم في عاطفة من عواطفه ، وكثيراً ما تكون عاطفة الحب ، تلك العاطفة القوية ، الجامعة ، التي تهز النفس هزاً ، والتي تؤدي كثيراً إلى الانتحار .

هذا الشخص الذي صدم في تلك الناحية : قد تصل به الصدمة إلى الشك في كل شخص ، أو إلى الشك في أن يجد مثاله الأعلى في هذه الحياة ، فيتجه إلى حياة العزلة والانفراد ، أو يعتكف في مسجد ، أو في بيته عابداً مصلياً طالباً من الله أن يكون عماده ، وأن يكون منجأه ؛ وأن يصرف عنه سوء .

وهذا الشخص الرقيق المزاج ، الذي يرى في كل آونة ظلم الناس ، وفساد الحياة ، والذي لا يجد في نفسه القوة على الجلال والصراع ، والذي يصل به الأمر في النهاية إلى الشك في المجتمع ، وفي أهله ، فيضيق بالحياة ذرعاً : لا يجد

مفرًا من أن يعتكف متأملاً مفكراً في مثل عليا ، أو في حياة أخرى ، أو في ملا
أهل ، صفت فيه النفوس وتطهرت ، وسمت عن كل دنس .
وهكذا إذا بحثنا في حياة الذين أطلق عليهم اسم الصوفية ؛ فإننا نجد عند
البعض نقطة الارتكاز : الشك .

الشك ومدارج السالكين

ولكن تلك الحياة التي يتوجهون إليها تلك الحياة الجديدة التي أخذت من
النفوس كل مأخذ . والتي اتجهوا إليها في تحمس وحرارة . لا تزال من أنفسهم
الشك بجميع ألوانه .

حقيقة إنها تزال من أنفس هؤلاء الذين شكوا من الناحية الدينية : الشك
في تلك الناحية . وتنسى الآخرين : الشك الذي دفعهم إلى حياة التصوف
دفعاً .

ولكن النفس التي تتجه إلى الحياة الدينية في حرارة وتحمس ، إنما تتجه نحو
الكمال من الناحية الدينية ، وهذا الكمال أول ما يبدأ ، يبدأ بالتوبة .
ومن المعقول ، ومن المنطق : أن ذلك الشخص الذي اتجه في تحمس إلى الناحية
الدينية ، يرى في ماضيه كثيراً من الأخطاء ، فلا تهدأ نفسه ، ولا تستقر .
إلا إذا خضع لله ساجداً ، مستغفراً لنفسه ، طالباً من الله الصفح والرضا .
ولكنه لا يكاد يتخطى تلك الفترة ، إلا ويعرض له الشك في كثير مما يتصل
بحياته العادية اليومية ، ويكاد يتساءل في كل لحظة : أهذا حلال أم حرام ؟
طيب أم خبيث ؟ حسن أم قبيح ؟ يرضى الله أم لا يرضيه ؟ ويتحرج في المأكل
والمشرب والملبس ، وهذا هو « الورع » .

ولكنه مهما تحرج في مأكله ومشربه وملبسه ، ومهما تحفظ واحتاط ، فإنه
سيجد دائماً . أن ذلك لا يكفي ويشك في كل لحظة ، وآونة ويندم على ما فات
وتقوى في نفسه الحرارة الدينية ، فيرى أن كل ما يتصل بالحياة الدنيا إن

الإلهو، ولعب وضلال وباطل، وأن خير طريق - إن أراد الهداية أو الرشد - هو «الزهد» في تلك الحياة، التي لا تساوى عند الله جناح بعوضة.

«توبة». ثم «ورع»، ثم «زهد»، تلك هى - بالتتابع - بعض ما يسميه «الصوفية»: مقاماتهم.

ولكن الكمال - كما قلنا، ليس له من غاية، أو من حد. نعم وصل صاحبنا إلى الزهد في تلك الحياة؛ ولكن أهدأ هو المطلوب؟ إنه إنسان؛ وطبيعته الحيوانية - مهما قويت إرادته - تجذبه إلى الحياة الدنيا، وترغبه فيها وتبعث فيه السخط على حياته، ويحصل ذلك الصراع العنيف بين المادة والروح، الذى صور: «الحاسى» في كتابه: «بدء من أناب إلى الله»، وفي كتاب «الرعاية» تصوراً دقيقاً إلى أقصى حد من الدقة.

هذا الصراع. يبحث في نفس الصوفى اضطراباً لا مزيد عليه، بل يبدأ الصوفى يشك في نفسه، وفي قيمته الذاتية، ويكاد يصل به الأمر إلى أن يعتقد في تحلى الموتى؛ أو التوفيق الإلهي عنه، لأنه ليس أهلاً لها: ونجده في تلك الآونة يبكى ويتألم ويتضرع إلى الله أن يمنحه معونته، وأن يصفح عنه، إذا كان قد أخطأ بدون علم منه. ويعترف بأن لا قيمة له في الواقع، أمام تلك القدرة العظيمة وكل ما يرجوه: أو يأمله إنما هو: أن يكون عبداً وأن يمنحه السيد شيئاً من عنايته أو توفيقه أو رضاه.

يستمر صاحبنا كذلك فترة طويلة أو قصيرة، وتثور روحه آونة بعد أخرى على الناحية المادية. تكبح من جراحها، وتهدئ من ثورتها. حتى تصل إلى الرضا.

ولكن أذلك هو الكمال؟

لم يقل الصوفى، ولا يمكن أن يقول: إن معنى الرضا هنا انقطاع كل الرغبات والشهوات، أو زوال الآمال والطموح. كلا! إنما معناه أن تلك الشهوة التي كانت تودى بصاحبنا. وتجعله يعود إلى حياته الأولى هدأت، وانتصرت عليها الناحية الروحية.

وليس السبب في هذا - حسب رأيه - قوة إرادة أو ذاتية، وإنما ذلك توفيق من الله، تلك معونة منه أراد به خيراً: أراد به الهداية والرشد....

فماذا يستحق ذلك الخالق. الذى أعانه من غير أن يكون، سبحانه، في حاجة إليه، والذى هداه من غير أن يكون في تلك الهداية نفع للخالق، جل وعلا؟

إنه إذا لم ينصرف إلى الله انصرافاً كلياً وجزئياً كان مقصراً.

وليس كل التقصير في مرتبة واحدة: فذلك تقصير في حق الإله. الذى منح الحياة. والذى أفاض النعم والذى غمره اطمئنان النفس، وانتشله من الضلال، ورفع إلى مكانة منحه فيها معونته وتوفيقه.

ويبدأ الشك في خلجات نفسه، وفيها يبدو: من دقائق الرياء، ثم ينتهى إلى الانصراف المطلق - في حدود الإمكان - إلى الذات العليا الكاملة.

ولكن هذه الذات، مهما فكر فيها، وتأمل؛ يجد دائماً في نفسه الرهبة منها فيزيده ذلك انصرافاً إليها؛ وتجذ في نفسه الانصراف إلى الله راحة؛ حتى إذا استمر في ذلك؛ منحه الله من فيضه. وتحولت الرهبة شيئاً فشيئاً إلى حب عميق، ثم إلى رؤية الله في كل ناحية؛ وفي كل جانب، أو في كل مكان، ثم إلى الفناء في تلك القوة، التي أخذت عليه سمعه وبصره، فأعلن أو أسر: أأكل شيء ما خلا الله باطل.

أما بعد : فإني أعتقد أني ابتعدت كثيراً في كل ما سبق : في موضوع :
التصوف والشك ، عن النص الآتي ، بل أعتقد أن كثيراً مما سبق ، لم يكن
إلا شرحاً له .

والنص : للسهروردي ، ذكره في كتابه : « عوارف المعارف » في نهاية
الفصل المعنون : « ماهية التصوف » .

قال السهروردي :

وأقوال المشايخ في ماهية التصوف . تزيد على ألف ، ويطول نقلها .
زنذكر ضابطاً يجمع جل معانيها فإن الألفاظ - وإن اختلفت متقاربة
المعاني ، فنقول :

« الصوفي : هو الذي يكون دائم التصفية ، لا يزال يصفي الأوقات عن
شوب الأكدار ، بتصفية القلب عن شوب النفس .

وبعينه على هذه التصفية ، دوام افتقاره إلى مولاه ، فبدوام الافتقار ينقي
من الكدر ، وكلما تحركت النفس ، وظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته
الناقدة وفر منها إلى ربه ، فبدوام تصفيته جمعيته ، وبحركة نفسه تفرقه وكدره
فهو قائم بربه على قلبه ، وقائم بقلبه على نفسه ، قال الله تعالى :

﴿ كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ﴾ وهذه القوامية لله على النفس هي
التحقق بالتصوف :

قال بعضهم : « التصوف كل اضطراب ، فإذا وقع السكون فلا تصوف » .
والسرفيه : أن الروح مجذوبة إلى الحضرة الإلهية ، يعني أن روح الصوفي
منطقة منجذبة إلى مواطن القرب ، وللنفس بوضعها رسوب إلى عالمها وانقلاب
على عقبها .

ولا بد للصوفي من دوام الحركة ، بدوام الافتقار ، ودوام الفرار وحسن
التفقد لمواقع إصابات النفس .
ومن وقف على هذا المعنى يجد في معنى : « الصوفي » جمع المتفرق في
« الإشارات » اهـ .

الإمام الغزالي يرسم طريق المعرفة

١ - إن البحث العقلي في الإلهيات أمر طبيعي بالنسبة للمفكرين الذين نشأوا في أقاليم لا يوجد فيها كتاب مقدس ؛ إنه من الطبيعي أن يوجد في هذه الأقاليم رجال يحاولون ابتداء مذهب فيما وراء الطبيعة : ذلك أن الإنسان بفطرته طلبة ، وهو يحاول دائماً معرفة العلل والأسباب ، وينشوف إلى رؤية المجهول ، إلى الكف عن عالم الغيب .

أما في البيئات التي فيها نص مقدس ، يحتفظ بنصه ولا يشك إنسان في صحته ، فإنه من غير الطبيعي أن ينشأ بجوار هذا النص المعصوم اختراعات ذهنية تتصل بعالم الغيب . ذلك أن ثمرة التفكير الإنساني عرضة للخطأ ، والخطأ في الذات الإلهية أو في الصفات الإلهية ، الخطأ في عالم الغيب على وجه العموم فيه خطورة كبيرة .

الطريق المستقيم إذن : هو ألا ينشأ بجوار النص المقدس اختراع عقلي يتصل بعالم الغيب تلافياً لما عساه أن يكون في نتائج البحث العقلي من أخطاء . التسليم للنص المقدس إذن هو المبدأ السليم عند ذوى العقول الحكيمة ، وقد حدث مرة أن أخذ سقراط ورفقاؤه يتحدثون عن خلود النفس ، ويحاولون إقامة الأدلة على ذلك ؛ فلا يكاد يستقيم لهم الأمر في يقين جازم ، ثم « يسكت سقراط ، ويسكت الجميع وبعد هنيهة يقول « سيمياس » : إن العلم بحقيقة مثل هذه الأمور ممنوع أو عسير جداً في هذه الحياة ، ولكن من الجبن اليأس من البحث قبل الوصول إلى آخر مدى العقل ، فيجب إما الاستيثاق من الحق ،

وإما - إن امتنع ذلك - استكشاف الدليل الأقوى والتذرع به في اجتياز الحياة ، كما يحاظر المرء بقطع البحر على لوح من خشب ما دام لا سبيل لنا إلى مركب آمن وآمن ، أعني إلى وحي إلهي (١٢) » .

المركب الآمن والآمن في رأى « سيمياس » هو الوحي الإلهي ومعنى ذلك - في وضوح لا لبس فيه - : أنه لو كان لدى سيمياس ، أو لو كان في العهد اليوناني نص مقدس صحيح لاستسلم إليه الجميع دون نقاش أو جدل . أما استعمال العقل في عالم الغيب فإنه في أغلب الأحيان مخاطرة لقطع البحر على لوح من خشب ، وهيات أن ينجو من يفعل ذلك !

واستسلم المسلمون الأوائل للنص المقدس متبعين في ذلك الطريق القويم ، ومضى الصدر الأول للإسلام دون جدال في العقيدة ودون محاولة عقلية للاختراع فيما وراء الطبيعة ، أو بتعبير آخر ، دون محاولة عقلية لتحديد ما لا يحد وتقييد ما لا يقيد .

٢ - وكان أول انحراف منظم قوى عن هذا المبدأ السليم هو الطريق الذي سلكه واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد ومدرستها . إنهم لم يتعمدوا انحرافاً ، ولا خروجاً عن الطريق السوى ، وإنما خيل إليهم أن عملهم إنما هو خدمة للإسلام وخدمة للمسلمين ، ولكنهم بعملهم هذا للخطأ في الدين المعصوم ، بل لقد أخذوا في وضع قانون الله سبحانه وتعالى الفروض . لقد أخذوا يوجبون عليه ، سبحانه - على رأيهم يجب عليه أن يفعل كذا . . . ويجب وحكموا ، هكذا عقولهم في الدين وفي الله وما دام عقل

عقل الآخر فقد انقسمت المدرسة الاعتزالية إلى مدارس ومذاهب لا تكاد
نحصر.

وكانت النتيجة لتحكيم العقل في الدين أن بدأ الافتراق والاختلاف العقدي
في البيئة الإسلامية.

لم يستسلم المعتزلة استسلام المؤمن المعترف بعجزه وقصوره تجاه الذات
الإلهية ، كما فعل الصدر الأول ، إنما وثقوا بعقولهم الثقة المطلقة ، فكان من
نتيجة ذلك الشقاق والتفرق .

وحينما بدأ المسلمون في أوائل العصر العباسي يترجمون الثقافات الأجنبية
فإنهم لم يستسيغوا ترجمة الإلهيات والأخلاق ، ذلك أن يقينهم المطلق في نصهم
المقدس جعلهم يستهينون بكل ما عداه مما يتصل بما وراء الطبيعة أو بالأخلاق ،
وكان موقفهم ذلك سليماً كل السلامة ، ذلك أن كل فكرة أو كل رأى متصل
بما وراء الطبيعة يخالف ما أتى به الوحي إما أن يكون خرافة أو يكون ضلالاً
عقلياً ، والحياة الجادة لا تستسيغ إنفاق الزمن في دراسة خرافات أو أضاليل
عقلية .

ولكن « المأمون » ومن ورائه المعتزلة ، فعلوا ما امتنع جمهوره المسلمون عن
فعله ، فترجموا إلهيات اليونان وأخلاق اليونان ، فأصبح بذلك الاختراع العقلي
أو البحث العقلي أو الابتداع العقلي في الدين ، أرستقراطية عقلية يجرى وراءه
الكتيون .

٣- ونشأ الفلاسفة ، وأخضع الفلاسفة كل شيء لعقولهم ، وأخذوا
يرسمون القواعد ويقيمون الأدلة ، ويتعدون كثيراً أو قليلاً عما فهمه المسلمون
من رسولهم ، وعما استشعروه من الروح العامة للإسلام على وجه العموم .

والواقع أن إقامة ما وراء المادة على العقل ، إنما هو شهوة أو هوى ، ذلك
أنه منذ ابتداء العهد اليوناني وهذا النهج من البحث في إخفاق متتابع ، وفي
فشل مستمر وفي تناقض ملازم ، ورجاله يناقض بعضهم بعضاً ، ويهدم كل
ما بناه الآخرون ، وعلى توالى الزمن تنهار الآراء وتنشأ آراء أخرى لا تلبث أن
تنهار ، وهكذا دواليك .

ومع رؤية كل باحث عقلي لهذه النتائج المنهارة باستمزار ، فإن ذلك لم يقم
عظة واعتباراً في نظرهم ، واستمروا على الطريقة العقلية رغم رؤيتهم في وضوح
مآل بحوث سابقهم المتهافة .

٤- ونشأ الإمام الغزالي ، وكان من توفيق الله أن الإمام الغزالي منح طبيعة
طلعة ، وذهناً ثاقباً ، وتفكيراً حكيماً ، وأتيحت له تربية دينية سليمة منذ نشأته
الأولى ، وأخذ تفكيره يحول في جميع المناحى الدينية . فلاحظ أن اختلاف
الخلق في الأديان والملل ، ثم اختلاف الأئمة في المذاهب على كثرة الفرق وتباين
الطرق : بحر عميق غرق فيه الأكثرون ، وما نجا منه إلا الأقلون فاقترح لجنة هذا
البحر العميق ، وخاض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ،
وتوغل في كل مظلمة ، وتهجم على كل مشكلة ، وتفحص كل ورطة ، وتفحص
عن عقيدة كل فرقة . وكان نتيجة ذلك كله أن فقد ثقته في العلم ، ووجد نفسه
عاطلاً عن علم يقيني ، فأراد أن يبدأ من البسائط وأن يجعل أساسه قوياً متيناً
حتى ينتهي إلى اليقين المطلق فيما يعلم .

ولكنه اختبر الثقة في المحسات فلم تسمح نفسه بالتسليم باليقين فيها وامتنح
الثقة بالعقلانيات فانهارت العقلانيات (١٣) .

(١٣) المنقذ من الضلال .

ومر إذن الإمام الغزالي بتجربة قاسية ، هي تجربة الشك في الحسيات والعقليات ، فاستمر على ذلك شهرين هو فيها على مذهب السفسطة « بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال (١٤) » .

ثم شفاه الله تعالى من ذلك المرض « وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثقاً بها على أمن ويقين . ولم يكن ذلك بنظم دليل ، وترتيب كلام ، بل بنور قدفه الله تعالى في الصدر . وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف (١٥) » .

خرج الإمام الغزالي من هذه التجربة على نور من ربه ، وعلى بصيرة من أمره فحاول ما استطاع أن يرسم الطريق الصحيح للشغوفين بالمعرفة ، والمتطلعين إلى الهداية والمستشرقين إلى العلم بالملأ الأعلى .

لقد أراد أن يسلك الطريق الذي يرضى اتباعه الله ورسوله ، أراد أن يرسمه للحيارى والمتطلعين إلى الهدى والشاكين الآملين في اليقين . وللمسترشدين الذين يريدون أن يعتصموا بحبل الله المتين .

أراد أن يرسم هذا الطريق بعد تجربة مر بها ، فرسمه في ثقة المحرب وفي إحكام الخير .

إن الأساس الخادع الذي لا يعدو أن يكون هوة عميقة يتردى فيها الكثيرون إنما هو إرادة تشييد ما وراء الطبيعة على العقل ، فما العقل بالنسبة إلى ما وراء الطبيعة إلا السراب الخادع الذي غرر بكثير من الظالمين إلى معرفة الغيب . ثم إن هذا الاتجاه خطر على الدين نفسه :

إنه من جانب انصراف عن النص الإلهي إلى العقل .

(١٤) المنقذ من الضلال .

(١٥) المنقذ من الضلال .

ومن جانب آخر إقامة مصدر لمعرفة الغيب غير النبوة . وفي ذلك لاشك صرف للناس عن التأمل في النص المقدس كمصدر لمعرفة الإلهيات ، وفيه كذلك تقليل من شأن النبوة .

وهجم الإمام الغزالي بكل ما يستطيع على هذا النهج ، ولم يفرق قط عن مهاجمته منذ أن ألف كتابه القيم : « تهاافت الفلاسفة » إلى أن انتهت به الحياة . ولقد كان كتابه هذا محاولة جريئة كل الجراءة ، موفقة كل التوفيق ، وما كان المقصد الأول والهدف الأساسي لهجومه هو هدم الآراء في نفسها ، إذ أن بعضها صحيح موافق للدين ، وإنما كان هدف الإمام هدم المنهج العقلي الذي استندت إليه هذه الآراء ، فخلود النفس مثلاً رأى يقول به الإمام الغزالي ، ويقول به الفلاسفة ، ولكن الإمام حمل معوله وأخذ يهدم بيد قوية المسلك العقلي الذي أثبت به الفلاسفة خلود النفس : فانهارت أدلتهم وتهاافت .

لقد فعل ذلك مع إيمانه بالخلود .

وهو لم يلتزم في هذا الكتاب « إلا تكدير مذهبهم ، والتغيير في وجوه أدلتهم ، مما يبين تهاافتهم (١٦) » ومقصوده « تنبيه من حسن اعتقاده في الفلاسفة وظن أن مسالكهم نقية عن التناقض ، ببيان وجوه تهاافتهم (١٧) » .

ويقول : « أنا لا أدخل في الاعتراض عليهم إلا دخول مطالب منكر ، لا دخول مدع مثبت ، فأبطل عليهم ما اعتقدوه مقطوعاً بالزمامات مختلفة ، فالزمهم تارة مذهب المعتزلة ، وأخرى مذهب الكرامية ، وطوراً مذهب

(١٦) تهاافت الفلاسفة .

(١٧) المصدر نفسه .

الواقعية ولا أنتهز ذائبا عن مذهب مخصوص (١٨) .

ويقول الأستاذ « بلايس » بحق : « إن الغزالي حينما سمي كتابه : « نهج الفلاسفة » كان يريد أن يمثل لنا أن العقل الإنساني يبحث عن الحقيقة » يد الوصول إليها ، كما يبحث البعوض عن ضوء النهار ، فإذا أبصر شعاعاً يشبه نور الحقيقة انحدر به فرمى نفسه عليه ، وتهاافت فيه ، ولكنه يخطئ .
وإنما بأقيسة منطقية خاطئة فيهلك كما يهلك البعوض .

فكان الغزالي يريد أن يقول : إن الفلاسفة خدعوا بأشياء أسرعوا إليها لا إعمال روية فتهافتوا وهلكوا الهلاك الأبدى (١٩) .

٥ - والمعرفة عند الفلاسفة العقلين مصدرها إذن العقل ، والعقل وحده .
يبدو أن الإمام الغزالي يرى عن تجربة أن وراء العقل طوراً آخر تنفتح فيه عين العبد يبصر بها الغيب وما يكون في المستقبل ، وأموراً أخرى العقل معزول عنها عزل قوة التمييز (٢٠) ، عن إدراك المعقولات وكعزل قوة الحس عن إدراكات التمييز وهناك إذن البصيرة ، وموضوعها الذي ينكشف لها إنما هو الغيب .
« إذا تساءلنا مع الإمام الغزالي عن مراتب المعرفة بالغيب التي هي الإيمان فإننا نجد أنه يحدد ثلاث مراتب :

١ - المرتبة الأولى : إيمان العوام : وهو إيمان التقليد المحض .

٢ - المرتبة الثانية : إيمان المتكلمين ، وهو ممزوج بنوع استدلال ودرجته حسب ما يرى الإمام - قريبة من درجة إيمان العوام .

(١٨) المصدر نفسه .

(١٩) تاريخ الفلسفة الإسلامية ترجمة الدكتور أبوربيعة .

(٢٠) النقد من الضلال .

٣ - المرتبة الثالثة : إيمان العارفين ، وهو المشاهد بنور اليقين .

ولا شأن لنا في حديثنا هذا بالمرتبة الأولى ، أما المرتبة الثانية ، وهي مرتبة المتكلمين ، وهم يدعون أنهم أهل الرأي والنظر ، أو أرباب البحث والاستدلال فإنهم يشاركون الفلاسفة بهذا الاعتبار في منهج البحث ، والإمام الغزالي يرى أن درجتهم قريبة من درجة العوام .

وهو من جانب آخر لا يرى في منهج المتكلمين ما يؤدي إلى كشف الحقائق ، إنه يقول حرفياً عن علم الكلام : « وأما منفعتة فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه ، وهيئات ، فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف . ولعل التخطيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف وهذا إذا سمعته من محدث أو حشوى ، ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا فاسمع هذا ممن خبر الكلام ثم قل له بعد حقيقة الخبرة وبعد التغفل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين ، وجاوز ذلك إلى التعمق في علوم آخر تناسب نوع الكلام ، وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه المسدود (٢١) .
ويرى في موضع آخر أن المتكلم لا يزيد على العامي إلا في صنعة الكلام ولأجله سميت صناعته كلاماً (٢٢) .

أما المرتبة العليا فإنها الهدف الأسمى ، وهي مقصد الطالبين ، ومطمح نظر الصديقين ، إنها مشاهدة روحية ، إنها يقين مطلق ، إنها مشاهدة بنور اليقين .
٦ - ولكن مشاهدة ماذا ؟ ويقين في ماذا ؟ ما هو موضوع هذه المرتبة ؟
إنه - إذا أردنا الإجمال - الغيب .

(٢١) الإحياء ص ١٩٨ .

(٢٢) الإحياء ص ٨٧ .

أما إذا أردنا شيئاً من التفصيل فإنه أمور كثيرة ، كان يسمع العارف من قبل
أسماءها فيتوهم لها معاني مجملة غير متضحة ، فتتضح إذ ذاك ، وتحصل
المعرفة بالله سبحانه وبصفاته الباقيات الثامات وبأفعاله ، وبحكمته في خلق الدنيا
والآخرة ووجه ترتيبه الآخرة على الدنيا .

والمعرفة بمعنى النبوة والنبي ، ومعنى الوحي ، ومعنى الشيطان ، ومعنى لفظ
الملائكة ، وكيفية معاداة الشياطين للإنسان ، وكيفية ظهور الملك للأنبياء ،
وكيفية وصول الوحي إليهم ، والمعرفة بملكوت السموات والأرض ومعرفة
القلب وكيفية تصادم جنود الملائكة والشياطين فيه ، ومعرفة الفرق بين لمة الملك
ولمة الشيطان . ومعرفة الآخرة ، والجنة والنار ، وعذاب القبر ، والصراط
والميزان ، والحساب ومعنى قوله تعالى :

﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ ومعنى قوله تعالى :
﴿ وإن الدار الآخرة لمى الحيران لو كانوا يعلمون ﴾ .

ومعنى لقاء الله عز وجل ، والنظر إلى وجهه الكريم ، ومعنى القرب منه
والتزول في جواره ، ومعنى حصول السعادة بمرافقة الملائكة الأعلى ، ومقارنة
الملائكة والنبیین ، ومعنى تفاوت أهل الجنان حتى يرى بعضهم البعض كما يرى
الكوكب الدرى في السماء ، إلى غير ذلك مما يطول تفسيره (٢٣) .
ذلك بعض موضوع الغيب الذى يتطلع إلى معرفته ، دون جدوى ،
المتكلمون والفلاسفة .

ولأنهم لم يتخذوا إليه السبيل الصحيح فقد اختلفوا فيه .

لقد اختلفوا في معاني هذه الأمور بعد التصديق بأصولها مقامات شتى ،
فبعضهم يرى أن جميع ذلك أمثلة ، وأن الذى أعده الله لعباده الصالحين
ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وأنه ليس مع الخلق
من الجنة إلا الصفات والأسماء .
وبعضهم يرى أن بعضها أمثلة ، وبعضها يوافق حقائقها المفهومة من
ألفاظها .

وكذلك يرى بعضهم أن منتهى معرفة الله عز وجل الاعتراف بالعجز عن
المعرفة .

وبعضهم يدعى أموراً عظيمة في المعرفة بالله عز وجل .
وبعضهم يقول حد معرفة الله عز وجل ما انتهى إليه اعتقاد جميع العوام
وهو أنه موجود عالم قادر سميع بصير متكلم .

اختلف الناس هذا الاختلاف . لأنهم لم يتبعوا النهج الصحيح في معرفة
الغيب ، وهذا النهج الصحيح إنما هو جلاء البصيرة .

ولو اتبعوا الكشف عن البصيرة لارتفع الغطاء حتى تتضح للإنسان جلية
الحق في هذه الأمور اتضحاً يجرى مجرى العيان الذى لا يشك فيه ، وهذا ممكن
في جوهر الإنسان (٢٤)

أهذا ممكن حقاً في جوهر الإنسان ؟

إنها دعوى من الإمام الغزالي تحتاج إلى إثبات ، وهى دعوى ينكرها
الكثيرون .

ولكن الإمام الغزالي يرى أن الدليل القاطع ، الذى لا يقدر أحد على

أحدهما : عجائب الرؤيا الصادقة ، فإنه ينكشف بها الغيب ، وإذا جاز ذلك في النوم فلا يستحيل أيضاً في اليقظة فلم يفارق النوم اليقظة إلا في ركود الحواس وعدم اشتغالها بالمحسّات ، فكمن من مستيقظ غائص لا يسمع ولا يبصر لاشتغاله بنفسه .

والثاني : إخبار رسول الله ﷺ عن الغيب وأمور في المستقبل وإذا جاز للنبي ﷺ ، جاز لغيره ، إذ النبي عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور ، وشغل بإصلاح الخلق فلا يستحيل أن يكون في الوجود شخص مكاشف بالحقائق ولا يشغل بإصلاح الخلق . وهذا لا يسمى نبياً ، بل يسمى ولياً ، فمن آمن بالأنبياء وصدق بالرؤيا الصحيحة لزمه لا محالة أن يقر بالبصيرة أو بتعبير آخر أن يقر بباب للقلب يفتح على عالم الملكوت هو باب الإلهام والتفث في الروح والوحي (٢٥) .

والإمام الغزالي يتشبه بالرؤيا ، كبرهان ودليل ، على أن هناك آلة للمعرفة غير الحس والعقل ، ويردد ذلك في كثير من كتبه ؛ إنه يتحدث في المنقذ عن النبوة فيقول : « وقد قرب الله تعالى ذلك على خلقه بأن أعطاه نموذجاً من خاصية النبوة وهو النوم ، إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب ، إما صريحاً ، وإما في كسوة مثال يكشف عن التعبير ، وهذا ولو لم يجربه الإنسان من نفسه ، وقيل له : إن من الناس من يسقط مغشياً عليه كالميت ويزول عنه إحساسه وسمعه وبصره فيدرك الغيب ، لأنكره وأقام البرهان على استحالة وقال : القوى الحساسة من أسباب الإدراك ، فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها وحضورها

فبالا يدركها مع ركودها أولى وأحق وهذا نوع قياس يكذبه الوجود والملاحظة (٢٦) .

ولكن الغزالي لا يكفي بهذين الوجهين من الاستدلال ، بل يأتي بشواهد الشرع ، ويذكر التجارب والحكايات ، أما الشواهد - فيما يرى - فهي قوله تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبيلاً ﴾ (٢٧) وقوله سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ﴾ (٢٨) . قبل نوراً يفرق به بين الحق والباطل ، ويخرج به من الشبهات ؛ وقوله ﷺ : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » .

وسئل ﷺ عن قوله تعالى : ﴿ أفن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه . . . ﴾ (٢٩) ما هذا الشرح ؟ فقال : هو التوسعة إن النور إذا قذف به إلى القلب اتسع له الصدر وانشرح .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إن من أمتي محدثين ومعلمين ومكلمين ، وإن عمر منهم » .

والمحدث هو الملهم ، والملمم هو الذي انكشف له الحق في باطن قلبه من جهة الداخل ، لا من جهة المحسّات الخارجية .

والقرآن مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف : ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ (٣٠) « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً ، يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ؟ ﴾ (٣١) « أفن شرح الله صدره للإسلام فهو

(٢٩) سورة الزمر آية ٢٢ .

(٣٠) سورة التغابن آية ١١ .

(٣١) سورة الأنعام آية ١٢٢ .

قضية التصوف المنقذ من الضلال

(٢٦) المنقذ ص ١٣٤ .

(٢٧) سورة العنكبوت آية : ٦٩ .

(٢٨) سورة الأنفال آية : ٢٩ .

على نور من ربه ﴿٣٢﴾ ؟

ولم يكن علم الخضر عليه السلام علماً حسيّاً ، أو عقليّاً ، وإنما هو العلم الرباني ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ (٣٢) .
كيف تنجلي البصيرة ؟ كيف يتأتى الكشف والإلهام والنفث في الروح ؟ كيف تتأتى معرفة الغيب معرفة مباشرة ؟

إن الطريق إلى ذلك إنما هو تقديم المجاهدة ، ومحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه المهمة على الله تعالى .

ومها حصل ذلك كان الله هو المتولى لقلب عبده ، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم .

وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور في القلب وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة ، وتلاأت فيه حقائق الأمور الإلهية ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ .

فليس على العبد الاستعداد بالتصفية المجردة وإحضار الهمة ، مع الإرادة الصادقة والتعطش التام والترصد بدوام الانتظار لما يفتح الله تعالى من الرحمة . وهو بفعله يصير متعرضاً لنفحات رحمة الله ، وليس له اختيار في استجلاب هذه النفحات ، وليس له إلا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة ، كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريقة .

وإذا صدقت إرادته ، وصفت همته ، وحسنت مواظبته تلمع لوامع الحق

(٣٢) الإحياء ص : ٤١ ، ٤٣ .

في قلبه ويرتفع الحجاب بلطف خفي من الله تعالى فينكشف له الغيب ويحصل له اليقين (٣٣) .

٧ - هذا النهج الذي رسمه الإمام الغزالي لمعرفة الغيب له آثار عميقة بالنسبة للفرد في خاصة نفسه ، وبالنسبة للمجتمع وبالنسبة للدين .

ولتوضيح ذلك بعض الإيضاح ، ولذكر بعض الآثار التي كانت لهذا النهج نذكر ما كتبه الدكتور محمد إقبال في كتابه : « تجديد التفكير الديني في الإسلام » عن الإمام الغزالي .

يقول الدكتور إقبال : « على أنه لا سبيل إلى إنكار أن الدعوة التي نهض لها الغزالي تكاد تكون دعوة للتبشير بمبدأ جديد ، مثلها في ذلك مثل الدعوة التي قام بها « كانت » في ألمانيا في القرن الثامن عشر ، ففي ألمانيا ظهر المذهب العقلي لأول عهده حليفاً للدين ، ولكن سرعان ما تبين أن جانب العقيدة من الدين لا يمكن البرهنة عليه حسيّاً ، فكان الطريق الوحيد إذن أن تنمحي العقيدة الدينية من سجل المقدسات وقد جاء مع محو العقيدة مذهب المنفعة في فلسفة الأخلاق ، وبذلك مكن المذهب العقلي من سيادة الإلحاد .

تلك كانت الحال في ألمانيا عندما ظهر « كانت » وكشف كتابه المذهب العقلي من قبل ، وصدق عليه القول بأنه كان أجل نعم الله على وطنه ، وإن التشكك الفلسفي الذي اصطنعه الغزالي - على تطرفه بعض الشيء - قد انتهى إلى النتيجة نفسها في العالم الإسلامي ، إذ قضى ذلك المذهب العقلي الذي كان موضع الزهو على الرغم من ضحائته ، وهو المذهب الذي سار في نفس الاتجاه الذي اتجه إليه المذهب لعقلي في ألمانيا قبل « كانت » .

(٣٣) الإحياء ص ١٧ - ١٣٧ .

غير أن هناك farkا هاما بين الغزالي و « كانت » . فإن « كانت » تمشي مع مبادئه تمشيا لم يستطع أن يثبت أن معرفة الله ممكنة . أما الغزالي فعندما خاب رجاؤه في الفكر التحليلي ولّى وجهه شطر الرياضة الصوفية وألقى فيها مكاناً للدين قائماً بنفسه ، وبهذه الطريقة وفق لأن جعل للدين حق الوجود مستقلاً عن العلم ، وعن الفلسفة الميتافيزيقية (٣٤) .

مشكلة المعرفة والصوفية (٣٥)

١

يتسم التاريخ - سياسياً كان أو فكرياً - بفترات ، تبدو فيها ، - الحيوية الجارفة ، وهذه الحيوية ، تتركز في شخص ، أو أشخاص نابغين يلقون بأنفسهم في مجرى الحياة الهادئ الوديع ، فتضطرب الحياة وتموج ، ويعلو موجها وينخفض ، وتضطرب القوتان - قوة الشعب الذي يتبع التقاليد - وقوة المصلحين النابغين - فترة تطول أو تقصر ، ثم تنحصر الأمواج وتهدأ الأمور ، فإذا بالحياة تأخذ لوناً جديداً ، وإذا بالقيم قد تغيرت ، في قليل أو كثير . ومهما يكن من شيء ، فإن عظماء الرجال - على أي وضع قضوا نحبهم - لا يتركون هذا العالم ؛ إلا وقد تركوا أثراً لا ينمحي أبد الدهر . وقد ينشأ النابغة ، فيجد نفسه في ميدان المعركة ، مختاراً أو مضطراً ، وتشرع نحوه الأسنة ، وتتجه إليه السيوف المهنددة ، فيدافع ويهاجم ، ويغلب أو يُغلب ، ويترك على كل حال أثراً مؤثراً .

٢

ونشأ المحاسبي ، وفي العالم الإسلامي قوتان هائلتان تضطرعان :

١ - أهل السنة ويمثلهم الإمام أحمد بن حنبل .

(٣٥) هذه الكلمة كتبها بمناسبة طبع كتاب الرعاية للمحاسبي وهي ، وإن كانت قد كتبت في مناسبة خاصة . فإنها من حيث الفكرة . عامة . فيما يتعلق بالمعرفة الصوفية .

(٣٤) تجديد التفكير الديني في الإسلام ١٠ ، ١١ .

٢- المعتزلة ولم يمثلهم في البصرة، والكوفة، وبغداد.

وهذا الصراع بين المعتزلة، وأهل السنة : صراع طبيعي لا يتخلو من مثله وبين من الأديان :

إنه الصراع الخالد بين النصيين والعقليين.

إنه التراع الأبدى بين الذين يقولون :

إن الدين نص تفسره أسباب التزول، واللغة، والرواية، والذين

يقولون :

إن الدين نص : يفسره العقل ويوضحه.

ويظن بعض الناس - للوهلة الأولى - أنه لا يمكن أن يكون هناك طرف

ثالث في هذه الخصومة.

فالإنسان إما : نصي، وإما عقلي : ولا يحتل الأمر حلالاً ثالثاً.

٣

ونشأ المحاسبي ليعلم هذا الحل الثالث، أو بتعبير أدق، ليدكر بهذا الحل

الثالث :

لقد هاجم المعتزلة هجوماً عنيفاً، وألف كتاباً خاصاً في الرد عليهم، سماه :

« فهم القرآن ».

لقد رأى في نزعتهم العقلية طغياناً، لا يتناسب ومقام العبودية، ورأى أن نزعتهم : تحكم العقل في القرآن، وتجعله يسيطر على النص، ولو كان الأمر كذلك لكان القائد في الحقيقة وواقع الأمر هو : العقل، لا الكتب المقدسة.

وإذا كان المعتزلة قد خدسوا الدين خدمات جليلة، تتمثل في دفاعهم الجيد

٢٣٠

عنه، ورد هجمات أعدائه، وتأييده منطقياً وعقلياً، فإنه مما لا شك فيه. أن العقل لوترك وشأنه لا يمكنه أن يتسلل إلى عالم : « ما وراء الطبيعة »، فيفسر لنا غامضه، ويوضح لنا من أمره ما انهم.

لا بد إذن أن يخضع العقل للنص.

ومذهب المعتزلة، إذن لا يسير في عالم : « ما وراء الطبيعة »، على النهج

الصواب.

٤

هناك، إذن إفراط وتفریط.

والمعبودية الحققة - فيما يرى المحاسبي - : هي النهج الصحيح للوصول إلى

المعرفة الحققة.

ودخل المحاسبي المعركة، وسلاحه فيها : عبودية حققة، وإخلاص لا حد له، وتقوى تغمر كل الجوارح، ومن قبل ذلك ومن بعده : دراسة مستفيضة للدين : وسائله وغاياته، جزئياته وكتلياته.

التقوى والعلم، إذن : كانا سلاحه في المعركة.

واحتدم التراع، وكان لابد من أن يحتدم، وثار الفقهاء على المحاسبي،

وكان لابد أن يثوروا، فقد كان المحاسبي ينهج في درسه نهجاً آخر غير

الطريق العادى التقليدى.

كان يتحدث في الإخلاص، وفي الورع، وفي الزهد، وفي الخشوع

الخالص لله.

وكان يتحدث في محبة الله، والأنس به، والقرب منه.

٢٣١

وكان يتحدث في هيئته وجلاله وعظمته .

وكان حديثه عذبا ، طلقا ، ساميا ، فكانت نخشع له الأفئدة ، وتلين له القلوب ، وتسيل له الدموع ، ويتذكر الناس ما لله من فضل ، فترق قلوبهم ويعاهدون على الاستقامة .

٥

وملأت سمعة المحاسبي أرجاء بغداد ثم عبرتها إلى جميع أرجاء المملكة الإسلامية المترامية الأطراف ، وكلما أخذت شهرته في الازدياد كلما أكثر خصومه وشائنه !!

ولكنه كان يسير في طريقه ، ثابت الخطى لا يعنيه سوى أن يكون الله راضيا عنه !

وتكشفت له الحجب ، وزالت عنه المساتير . ووصل إلى المعرفة الحققة فأعلن طريقها .

وطريقها ليس حسا بخطئ ، وليس عقلا يضل ، وإنما هو : بصيرة وضاعة وروح صاف .

٦

واستمرت الخصومة بين :

النصيين ، ويمثلهم الإمام أحمد .

والبصريين ، ويمثلهم الإمام المحاسبي .

والعقلين ، ويمثلهم المعتزلة .

ومن غريب الأمر : أن أية قوة من هذه القوى ، لم تخر صريعة بل بقيت قوية ، واستمرت في كفاح ونضال ، حتى يومنا هذا .

تسلسلت فكرة المحاسبي ، وتمثلت خير تمثيل في الإمام الغزالي ، ثم في بقية الصوفية من بعده ، حتى كان العصر الحاضر ، فكان يمثلها في أسلوب جديد وتعبير صادق ، المرحوم : « الشيخ عبد الواحد يحيى » الذي توفي منذ سنوات .

وتسلسلت فكرة الإمام أحمد ، فتمثلت في الإمام : « ابن تيمية » الذي وضع لها المنطق ، وأرسى لها القواعد والأصول وانحرف بها إلى الشكل أكثر من الجوهر ، واستمرت قوية إلى عهدنا الحاضر ، وكان يمثلها المرحوم : « الشيخ رشيد رضا » تمثيلا قويا .

وتسلسلت فكرة المعتزلة ، راكدة حيناً ، وقوية حيناً آخر ، حتى كان جبال الدين الأفغانى ، فدفعها قويا إلى عالم الظهور .

وكان « الشيخ محمد عبده » من أهم العوامل في نشرها . ملطفة خفيفة تكاد تخفى ، أو تكاد تلبس ثوب السلفية الأولى الأصيلة التي كانت قبل ابن تيمية والتي لا يمثلها ابن تيمية .

وحمل اللواء من بعده المرحوم : « الشيخ المراغى » والمرحوم : « الشيخ مصطفى عبد الرازق » .

وفكرة « الإمام محمد عبده » تمثل فيها حقيقة ، لا في الشيخ رشيد رضا كما يظن كثير من الناس .

لا تزال تلك القوى الثلاث تتصارع حتى عهدنا هذا ، ونعتقد أنها
ستستمر ، ذلك أنها تمثل نزعات فطرية في بني الإنسان :
بعضهم ، واقعى يتجه إلى النص ، ولا يريد ، أو لا يمكنه أن يسير إلى
أبعد منه .

وبعضهم : يحتفظ بشخصيته قوية جارفة لا تلين ، فهو عقلى أو اعتزالى .
وبعضهم : رقيق الشعور ، مرهف الحس ، ملائكى النزعة ، فهو بصيرى
أو صوفى .

نزعات ثلاث تقوم على فطر مختلفة ، وهذه الفطر تستمر في بني البشر
ما دام على وجه الأرض ، أفراد من النوع الإنسانى ، ومن هنا كان خطأ هؤلاء
الذين يحاربون التصوف ، أو الاعتزال ، أو النصيين على أمل أن يقضوا على
هذه الاتجاهات قضاء تاماً .
وبالله التوفيق .

الفصل الرابع قضية التصوف

- إنكار التصوف .
- تحديد موطن النزاع .
- المشاكل التى يراد حلها .
- الحس ومشاكل ما وراء الطبيعة .
- العقل ومشاكل ما وراء الطبيعة .
- البصيرة ومشاكل ما وراء الطبيعة .
- الطريق إلى المعرفة .
- طريق البصيرة طريق الصواب .
- التصوف أرسقراطية .
- تفاوت الناس في فهم الدين .
- التصوف قوة .
- التصوف ليس دخيلاً على الإسلام .
- التصوف في العصر الحديث .

إنكار التصوف

إن الذين يتكبرون و التصوف ليسوا من رجال العصر الحديث فحسب .
ذلك أن النزاع بين و الفقهاء و و الصوفية قديم قدم و التصوف و نفسه ،
ورجال و الظاهر على وجه العموم ينفرون من و الصوفية و يحاربونهم أينما كانوا
حرماً لا هوادة فيها .

والحرب قائمة أيضاً بين و الصوفية و من يتخذون العقل مقياساً للآراء ،
ويرون أنه وحده المأدب إلى الرشاد .

ولم يبدأ الصراع بين و الصوفية و غيرهم - فقهاء كانوا أو عقلين على مر
الزمن :

ما هي مأخذهم على و التصوف ؟

أولاً : يرى و الفقهاء - و يشاركهم في هذا الرأي كثير من الباحثين : أن
و التصوف دخیل على الإسلام : إذ ليس في الإسلام إلا التقوى ، والورع ،
ونزع من الزهد يشبه أن يكون عفة أو قناعة .

ثانياً : الأدلة على وجود الله و وحدانيته ، وقدرته وإرادته ، موجودة في
القرآن الكريم ، في وضح لا لبس فيه فإذا ما تركناه ، وذهبتا لتنسها في
مناهاة و التصوف ، فإننا لا نأمن أن نقفل في مجاهل الطريق .

ثالثاً : و التصوف ليس في متناول الجميع ، فهو إذن و أرستقراطية
تتألف مع روح الإسلام و الديمقراطية ..

ولأن و التصوف ليس في متناول الناس جميعاً ، فهو إذن تكليف بما

لا يطلق والله سبحانه لا يكلف نفساً إلا وسعها .

رابعاً : « التصوف » ضعف ، والإسلام قوة ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ ، والجهد باب من أبواب الإسلام لا يتلاءم مع صوم النهار وقيام الليل .

أما العقليون : فإنهم يرون أن الله - سبحانه وتعالى - منحنا العقل لنهتدى به إليه ، فإذا ما احتقرناه - كما يفعل « الصوفية » - فقد احتقرنا أجل نعمة وهبها الله لنا .

ويرى « العقليون » أن العقل : هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى اليقين في محيط « ما وراء الطبيعة » ، وهم يبرهنون على وجود الله - عقلياً - ويرون في براهينهم غناء ودقة ، و يقيناً ووضوحاً لا لبس فيه .

وقد حث الله في القرآن على استعمال العقل ، والآيات التي تخاطب العقل وتدعو إلى استعماله كثيرة متعددة .

هذه هي أهم ما يأخذه منكرو التصوف على « التصوف » و « الصوفية » ، وأما ما عداها مما يتهمون به على الأشكال ، والطقوس والعادات التي يلصقونها بـ « التصوف » وليست منه ، فإننا نضرب عنها صفحاً ، ذلك أننا نتحدث عن « التصوف » و « الصوفية » الحقيقيين .

تحديد موطن النزاع

ونريد الآن أن نبين - في إيجاز - بعض ما يراه « الصوفية » في هذه الاعتراضات ، لتبين الحق في هذا الغموض والاضطراب ، والخلط الذي يسود قضية « التصوف » .

إن الاستدلال على وجود الله لا يحتاج - في نظر الصوفية - إلى كد الذهن وإعمال الفكر .

كيف يتأتى أن يخفى الله ، وأن يكون من الخفاء بحيث نحاول جهداً أن نتطلب ما يثبت وجوده من أدلة ؟

إن إثبات وجود الله ليس مشكلة في نظر الصوفي ، وإذن فإنه لا يؤخذ على الصوفي أنه يذهب إلى طرق خفية لينتهي من ورائها إلى الاستدلال على وجود الله . إن الصوفية يرون أن مجرد محاولة إثبات وجود الله إنما هي انتقاص من جلاله سبحانه ، فتنى خفى سبحانه حتى يحتاج إلى دليل يدل على وجوده ، إنه سبحانه أظهر من كل موجود .

ولكن البشرية - شرقية كانت أو غربية ، ومسلمة كانت أو مسيحية ، وقديمة كانت أو حديثة - لا تخلو من طائفة كبيرة تتطلب في إلحاح ، وفي قلق ، وفي تحمس جارف ، ما وراء إثبات وجود الله ؛ النفس الإنسانية هكذا خلقت : فكلما منح الله الإنسان عقلاً كبيراً ، وذكاء جاداً ، ونفساً طليعة ، كان ذلك مدعاة له إلى التوغل في البحث فيما وراء الطبيعة .

إن وجود الله ووحدانيته ، وكونه عالماً ، مريداً ، قادراً ، كل هذه مسائل هينة .

لوقوف عندنا النفوس لما كانت هناك فلسفة .

ولما كان علم الكلام .

ولما كانت الأبحاث النظرية فيما وراء الطبيعة .

ولما كان التصوف .

ولكن النفوس لم تقتصر على ذلك ، ولا يمكنها الاقتصار على ذلك ولن يتأتى لها - عن رغبة أورمية - أن تقتصر على ذلك ! !

المشاكل التي يراود حلها

كيف خلق الله العالم ! أخلقه من العدم المطلق ، فكيف إذن يتبع شيء من لا شيء ؟

إن شيئاً من لا شيء لا يتصوره العقل ، بل إنه يحكم باستحالته .
أم خلقه من مادة كانت موجودة : فالمادة إذن قديمة ، قدم الله نفسه ، وهناك إذن قديمان : الله والمادة .

والله لا نهائي الذات : ومقتضى هذا ألا يخرج عن ذاته متقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، إنه الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو على كل شيء وفي كل شيء . وبهذه النظرة يناط « شلى » الله - سبحانه وتعالى - فيقول :

« إن أصغر ورقة من أوراق الأشجار التي يلاعها النسيم ليست إلا بقصة منك : (جزءاً من أجزاءك) كلا ، ولا أحقر دودة تسكن القبور ، وتسمن من لحوم الموتى أقل مشاركة لك في حياتك السرمدية » .

« ويقول : إن هذه الروح التي توجد في كل مكان ، بها يحيا كل موجود ، وهي هو » ^(١) .

أحق هذا ؟ أم أن ذات الله لا تتضمن أرضاً ولا سماء ، ولا براً ولا بحراً ، فهي ، إذن ، محدودة ، لأنها ما عدا هذا الكون .

(١) عن مبادئ الفلسفة . ترجمة « الدكتور أحمد أمين » .

ثم إن الله - زيادة على ذلك - لا يمكن أن يوجد في كل مكان . والله عالم .

أهو عالم بما كان على أنه كان ؟ وبما سيكون على أنه سيكون ؟ وبما هو كائن على أنه كائن ؟

أم أنه عالم بما كان وبما هو كائن على أنه سيكون ؟

أم أنه عالم بما هو كائن وبما سيكون على أنه كان ؟

أيسطر الزمن على علم الله ؟

أم أن الله فوق الزمن ؟ وأنه في حاضر لا يزول ؟

ولكن كيف يتأتى لنا حقاً أن نفهم أن الله في حاضر لا يزول ؟ مع بدهاة شعورنا بالماضي والحاضر والمستقبل .

والله عالم - كما قلنا - أهو عالم بذاته فحسب لأن علمه في شرفه وسموه وكاله إنما يتعلق بما يناسبه من شرف وكال وسمو ، وليس ذلك إلا ذاته ، سبحانه وتعالى .

أم أن علم الله يتعلق بذاته ، وبالكليات ، ولا شأن له بالجزئيات . لأنها

تافهة لا قيمة لها ، والله منزّه عن أن يتعلق علمه بالتافه ؟

أم علم الله يتعلق بذاته ، وبالكليات ، بالجزئيات ، على الرغم مما في

الجزئيات من نقض وتفاهة ، ومن مناظر تشتمل منها النفس ويعاينها النظر .

والله قادر : أهو قادر على كل شيء ؟ أقادر هو على الجمع بين الضدين

مثلاً ؟ أقادر على أن يجعل الثلاثة أكثر من العشرة ؟ والجزء أكبر من الكل ؟ أم

أن هناك المستحيل بالنسبة إلى قدرة الله .

وإذا كان هناك المستحيل بالنسبة إلى قدرته ، أفيُتصف إذن بالكمال ؟ أم أن

قدرته تتعلق بالمستحيل - كما يقول علماء الكلام - معتقدين أنهم بذلك قد
حلوا الإشكال ؟

والله مرید :

أريد الخير والشر؟ فلم الحساب ، والعقاب أو المثوبة إذن ؟
وكيف يريد الشر؟ مع أن طبيعته خير محض ؟ كيف يريد الشر مع أن إرادة
الشر في بني البشر تعتبر نقصاً .

وإذا لم يكن يريد الشر فهل يحدث الشر في هذا العالم بالرغم عنه ؟
أم أنه يحدث وهو عنه راض وإن لم يكن له مريداً ؟
أيرضى الله عن الشر أم يكرهه ؟
إن رضاه بالشر يتنافى مع كماله .

وإذا كان يكره الشر فكيف يوجد مع كراهيته له ؟
أيجب ، الله أن يعصى ؟ أم أنه يعصى بالرغم عنه ؟

وصفات الله عامة ، مطلقة ، شاملة ، لا نهائية : إنه رحمن رحمة مطلقة
لا نهائية ورحمته وسعت كل شيء ، وهو جبار ذو جبروت لا نهالي ولطف
لاحد للطفه :

فكيف تنسجم الرحمة المطلقة مع الجبروت المطلق ، مع أن البدهاة تقضى
بأن تنق كل صفة منها وجود الأخرى ؟ وإنه لمن الرائع حقاً : أن ما يريد أن يراه
الشاعر « إسماعيل صبرى » حينما خاطب الله قائلاً :

ومر الوجود يشف عنك لكى أرى غضب اللطيف ورحمة الجبار
أيمكننا أن نرى حقاً غضب اللطيف الذى لا نهاية للطفه ؟ ورحمة الجبار
الذى لا نهاية لجبروته ؟

الله عفو ، وعفوه مطلق شامل : إذ أن صفاته كلها مطلقة شاملة ، فهل
يسمى صبرى بحق إذن حينما يقول :

يا رب أين ترى تقام جهنم للظالمين غداً وللأشرار
يا رب عفوك في السماوات العلا والأرض شبراً خالياً للنار
وكيف يلقي الله بالمعرفة إلى رسله ، بأى لغة يخاطبهم ، وكيف ينزل « الملك »
على رسول الله ، فيراه ويسمعه في حين أن من كانوا معه لا يرونه
ولا يسمعونه ؟ !

ومن أين يأتي « الملك » ؟ ، أمن السماء ؟ ولم ؟ مع أن الله في كل مكان !
إن مشكلة الوحي ، هى الأخرى ، من المشاكل التى استنفدت الكثير من
المدد .

وماذا بعد هذه الحياة ؟ أحياء أخرى جسدية ، نأكل فيها ، ونلهو ،
وتلعب ونسرح ونمرح ، ونأخذ بذلك ثمن ما أديناه في حياتنا الدنيا العابرة ، من
عبادة وطاعة ؟

أم أنها حياة روحانية لا صلة لها بالمادة البتة ؟
أم أنها مزيج من الحياة المادية والحياة الروحية ، تأتلف فيها المادة بالروح
اتِّلافاً منسجماً متناغماً ؟

إن الذاهبين الأولين لم يعد منهم أحد ليصف لنا الحالة في دقة دقيقة ، وفي
تحديد محدد .

والقرآن يتحدث عن نعم الآخرة وعذابها ، فيفسر قوم وصفه على أنه حسي
وروحاني ، ويفسر آخرون وصفه على أنه روحاني بحت .
وما هدف الله في إيجاد هذا العالم ! أن خلقه ليعبده : ﴿ وما خلقت الجن

النواب والمقاب إلى مشيئة الله ، وأمثال ذلك .
ويقول : وما حكاة الله من قصة آدم وعصيانه بالآكل من الشجرة فما خفي فيه سر النهي عن الأكل والمراخذة عليه .

الحس ومشاكل ما وراء الطبيعة

هذه المشاكل لم اخترعها اختراعاً ، ولم ابتدعها ابتداءً ، وإنما هي موجودة تصادفك في الفلسفة ، وتصادفك في علم الكلام ، وهي موجودة قديماً ، وموجودة حديثاً ، وهي بعض من كل :
كيف نصل حقيقة إلى الإجابة عنها ؟ ما هو السبيل الصحيح للاطمئنان التام فيما يتعلق بشأنها ؟ هل مرد الأمر فيها إلى الحس والملاحظة ، والتجربة ، والعلم الحديث ، وما فيه من طبيعة وكيمياء ، أو من فلك وطب ؟ اللهم ، لا .

العقل ومشاكل ما وراء الطبيعة

هل مرد ذلك إلى العقل إذن ؟ أيكشف العقل حقاً عن ذلك ؟ أيصل العقل إلى كشف مسانير ما وراء الطبيعة ، واختراق حجب ما وراء المادة ، والعودة إلى الملأ الأعلى ؟
وعقل من ؟ أعقل أنا ؟ أنحنكم إلى عقل وهو - فيما أرى - ناضج ؟ وسجلها دون أن يكون مسيراً بهوي ، أو بهيمية ، أيرضى بمقل حكماً ؟ أم نحنكم إلى عقلك أنت أيها القارئ العزيز ؟ وهو فيما ترى ناضج ؟
وسجلها دون أن يكون مسيراً بهوي ، أو بهيمية .
ولكن إمام « الشيعة » - بحسب نظرهم - معصوم ، وهم يلجئون إليه فيما

والإنس إلا ليعبدون ﴿١﴾ ، أم خلقه ليعرف كما قيل : « كنت كثيراً عجبياً فخالقت الملق ، فبي عرفوني ﴿٢﴾ » .

إن كمال الله غني عن أن يكون في حاجة إلى طاعة البشر ، وأسمى من أن يكون في حاجة إلى أن يعرف : ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغني الحميد ﴾ .

أخلق الله العالم اعتباراً ، أم خلقه لحكمة ؟

إن الله يتبره عن أن يعمل العمل اعتباراً : ﴿ أفحسبتم أننا خلقناكم عبثاً ؟ ﴾ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً !

والحكمة : إنما هي تعبير عن الفرض أو الهدف أو الغاية ، وذلك ينبئ عن الحاجة والله تعالى مبره عن الحاجة .

نعود فتساءل : لم أوجد الله العالم ؟

والشيخ محمد عبده يذكر بعض المشاكل التي أثارت العقل ، وجعلته يشط إلى البحث والنظر ، ويهدمها من المشابه . قال رحمه الله في رسالة التوحيد : « جاء القرآن يصف الله بصفات ، وإن كانت أقرب إلى التنزيه عما وصف به في مخاطبات الأجيال السابقة ، فمن صفات البشر ما يشاركها في الاسم ، أو في الجنس : كالقدرة ، والاختيار ، والسمع ، والبصر .

وعزاً إليه أموراً يوجد ما يشبهها في الإنسان : كالاستواء على العرش ، والوجه ، واليدين .

ثم أفاض في القضاء السابق ، وفي الاختيار الممنوح للإنسان ، وجادل المائلين من أهل المذهبين .

ثم جاء بالوعد ، والوعيد ، على الحسنات والسيئات ، ووكّل الأمر في

ادهم من الأمور، وسوف لا يرضون بغير حكمه بديلا، وهم ملايين عدة،
أنستلهم الرشد في هذه المسائل؟

فيما يرون - معصوم
مثل الدين، أترضى

أما من اختصاص

الأزهر.

عنها : من ذوات
القبعات السود ،
« (٢) »

لنكون الحضر
جاء إذن إلى أهل

ت « مثالي .. ؟

الذكاء متوقد
رضى لنا ذلك

« وابن تيمية » رجل واسع الاطلاع ، حاد الذكاء ، متوقد الذهن فهل تتبعه ؟
أم تتبع شخصية من شخصيات العصر الحديث ؟ فهل تتبع « الشيخ محمد
عبد » ، أو « الشيخ عlish » ؟ إن كلا منهما رجل فاضل ، واسع الاطلاع
ولكنهما لا يكادان يلتقيان في شيء من آرائهما سواء في ذلك الوسائل
والأهداف ، فإلى عقل أيهما نختكم ؟ ..

وبعد كل ذلك أليس رأى « كانت » هو الحكمة كل الحكمة حينما يقول :
« إن عقل الإنسان مركب تركيبا يؤسف له فإنه مع شغفه بالبحث في مسائل
لا تدركها حواسنا ، لم يستطع أن يكشف عن معيياتها » .

أما الإمام « الرازي » فإنه يقول في عجز العقل :

نهاية إقدام العقول عقل وأكثر سعى العالمين ضلال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
ومن كلامه الحكيم : « ولقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية فما
رأيتها تشفى غيلا ، ولا تروى غليلا » .

ويقول في وصيته التي أملاها على تلميذه « إبراهيم بن أبي بكر
الأصفهاني » : « ولقد اخترت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ، فما رأيت
فيها فائدة تساوى الفائدة التي وجدتتها في القرآن العظيم » .

والإمام « الرازي » هذا ، هو الذى يقول فيه صاحب « وفيات الأعيان » :
فاق أهل زمانه في علم « الكلام » و « المعقولات » وعلم « الأوائل » .

وليس « كانت » وليس الرازي إلا مثلين من أمثلة عديدة تتلاقى في النهاية
مع الشاعر الرقيق إسماعيل صبرى فترجو من الله ما يرجو حينما يلجأ إليه قائلا :
يارب أهلنى لفضلك واكفنى شطط العقول وفتنة الأفكار

ومع ذلك فهذه المشاكل تقض مضاجع كثيرين من ذوى الإحساس الدينى الموهب ، وتثوق أعينهم ، وتشغلهم - مصبحين ممسين - ومثلهم فى ذلك مثل إبراهيم - عليه السلام - إذ قال :

﴿ رب أرنى كيف تحيى الموتى ؟ ﴾

قال : أولم تؤمن ؟

قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبى . . . ﴿

فأهى الوسيلة التى يروون عن طريقها غلتهم ، وتشفى صدورهم ، وتطمئن قلوبهم .

إن الدين لم يتعرض لهذه المشاكل ، والحس لا يصل إلى حلها ، والعقل بموازينته ومقاييسه وقواعده : عاجز كل العجز كما رأينا سابقاً عن الوصول إلى حلها ، وليس أدل على عجزه من التجربة الواضحة لكل ذى عينين : إن الفلسفة منذ عهد سقراط تتخبط وتعثّر ، وتتضارب وتتناقض ، وتحل وتعتقد ، ولا تصل البتة إلى نتيجة حاسمة فى أية مسألة من مسائل ما وراء الطبيعة الشائكة .

وعلم الكلام مختلف مضطرب ، يحارب بعضه بعضاً ، بل ويكفر رجاله بعضهم البعض :

إلام تنجه إذن ؟

إننا إذا نفضنا أيدينا من الحس ، فذلك لأننا لم نجد فيه غناء فيما وراء الطبيعة ، وإذا أعرضنا عن العقل ، فليس ذلك احتقاراً له ، لأننا نستعمله معترفين بفضلته فى ميدانه الخاص به ، وإنما كان إعراضنا عنه فيما وراء الطبيعة لأننا لا نريد أن نقحمه فى غير دائرة اختصاصه .

نعود فنقول : إلام تنجه ؟ إن الأمر ليس بهين ! ! وتكشف الطريق الصواب ليس من السهولة بمكان .

البصيرة ومشاكل ما وراء الطبيعة

ولكننا إذا ما لجأنا إلى الله نستلهمه الخير ونستهديه طريق الرشاد . وإذا ما توجهنا إلى القرآن نسترشده فیم ادلهم ونخفى ، فإذا نجد ؟ نجد أن القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، يرشد فى مواطن عدة ، إلى نوع من المعرفة ، ليس طريقه الحس ، وليس طريقه العقل ، ولا يستمد صراحة من الكتب المقدسة ، ذلك النوع فى أبسط صورة وأعمها وأشملها هو الرؤيا . فالقرآن يحدثنا فى سورة يوسف عن عدة رؤى : ﴿ إذ قال يوسف لأبيه : يا أبت ، إني رأيت أحد عشر كوكباً ، والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ﴾ .

ويعتقد والده فى رؤياه ، ويؤمن بها ، ويسدى إليه النصيحة . ﴿ يا بني ، لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ﴾ .

وحينما سجن العزيز يوسف ﴿ ودخل معه السجن فتيان . قال أحدهما : إني أراى أعصر خمراً .

وقال الآخر : إني أراى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه ﴾ .

وذهبا إلى يوسف واستنبأه الأمر ، وطلبا إليه مستعطفين :

﴿ نبشئ بتأويله إنا نراك من المحسنين ﴾ . ونبأهما يوسف بتأويل الرؤى

ولا تقتصر السورة على ذكر ذلك :

﴿ وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان ، يأكلهن سبع عجاف ، وسبع

سبلات خضر ، وأخر يابسات ، يأبى الملائكة أن يروا في رؤيا إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴿٣﴾ .

ويفسر «يوسف» تلك الرؤى ، فيرى أن نفس «الملك» تكشف لها المستقبل ، ورأيت الغيب المحجوب ، وعبرت عنه في صورة رمزية ، ويعبر «يوسف» الرمز فيقول : ﴿ترعون سبع سنين دأباً ، فما حصدتم فذروه في سبله إلا قليلاً مما تأكلون .

ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد ، يأكلن ما قدمت لهن إلا قليلاً مما تحصنون .

ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يفاث الناس وفيه يعصرون ﴿٤﴾ .

ولما اجتمع شمل «يوسف» بأبيه وإخوته وخر له إخوته سجداً .

ذكر «يوسف» أباه برؤيته السابقة وقال : ﴿يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً﴾ .

والحديث الشريف يذكر أن الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة .

ليست الرؤيا معرفة حسية ، وليست معرفة عقلية ، وليست معرفة مصدرها الكتب المقدسة .

ولكن «قد قرب الله تعالى على خلقه بأن أعطاهم أنموذجاً من خاصية النبوة ، وهو النوم ، إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب ، إما صريحاً ، وإما في كسوة مثال يكشف عنه التعبير . وهذا لو لم يحجره الإنسان من نفسه - وقيل له : إن من الناس من يسقط مغشياً عليه كالميت ، ويؤول عنه إحساسه وسمعه وبصره . فيدرك الغيب - لأنكر وأقام البرهان على استحالة وقال : القوى الحساسة سبب الإدراك ، فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها وحضورها

فبألا يدركها مع ركودها ، أولى وأحق .

وهذا نوع قياس يكذبه الوجود والملاحظة (٣) .

والنبوة ، هي الأخرى ليست معرفة حسية ، وليست معرفة عقلية ، إنها ليست تجربة ، وليست منطقاً ، وليست استقراء ناقصاً أو تاماً ، وليست قياساً من الشكل الأول أو الرابع ، ولكنها وحى من الله .

والقرآن غاص بهذا الخط من المعرفة الإلهية . إنه غاص بذكر الأنبياء والرسل الذين كلمهم الله وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو بإرسال الرسل إليهم أعني الملائكة .

والقرآن يحدثنا أيضاً في أسلوب قصص طريف شائق عن العبد الصالح الذي أخذ سيدنا «موسى» في البحث عنه جهده ، حتى وجده وأبدى رغبته في اصطحابه ومرافقته ، فقال له العبد الصالح :

﴿إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ .

وألح «موسى»

وقبل العبد الصالح - في النهاية - على شروط اشتراطها .

ولم يكن فيها رفيقاً «بموسى» أو عطوفاً عليه . .

وساراً فأخذ العبد الصالح يأتي بأعمال لا تنسجم مع العاطفة ، ولا مع المنطق ولا مع العقل ، ولا مع القانون .

ولم يكن موسى ليحتمل الصبر على ما يرى دون تفسير له وتعليل .

وكان من أول شروط العبد الصالح عليه ألا يسأله عن شيء ، ولم يبعث

موسى إلى الصبر سبيلاً ، ولم يجد العبد الصالح - وقد أخل موسى بالشرط

(٣) الغزالي في المنقذ من الضلال .

من أن يعلنها صريحة واضحة ﴿ هذا فراق بيني وبينك ﴾ والقصة كلها
 حرة بأن تذكر بأسلوب القرآن الطريف الشائق :
 ﴿ وإذ قال موسى لفتهاه : لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي
 حيا ، فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما ، فاتخذ سبيله في البحر سرياً . فلما جاوزا
 قال لفتهاه :

آلله غداءنا ، لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا .
 قال : أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة ، فإني نسيت الحوت ، وما أنسانيه
 الا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله في البحر عجباً
 قال : ذلك ما كنا نبغ ، فارتدا على آثارهما قصصا . فوجدا عبدا من
 سادات آتياه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً .

قال له موسى : هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا .
 قال : إنك لن تستطيع معي صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا .
 قال : ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا .
 قال : فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا .
 فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها ،

قال : أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا .

قال : ألم أقل : إنك لن تستطيع معي صبرا .

قال : لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا .

فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله .

قال : أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا .

قال : ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا .

قال : إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني ، قد بلغت من لدني
 عذرا .

فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها
 جدارا يريد أن ينقض فأقامه

قال : لو شئت لتخذت عليه أجرا .

قال : هذا فراق بيني وبينك ، سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا .
 أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها ، وكان
 وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا .

وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقها طغيانا وكفرا ، فأردنا أن
 يبلها ربها خيرا منه زكاة وأقرب رحا .

وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما
 صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كثرهما رحمة من ربك ،
 وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا ﴿^(٤)

هناك إذن طريق للمعرفة ، غير الحس وغير العقل .

ما السبيل إليه ؟

الطريق إلى المعرفة

إن تجارب الصالحين ، منذ عصور متطاولة ، دلت على أن تركية النفس ،
 وتطهيرها والالتجاء إلى الله ، والتقرب إليه ، كل ذلك يسمو بالإنسان إلى عالم
 من الروحانية تستشرف فيه النفس إلى الملأ الأعلى ، فتفيض عليها منه نفعات ،

(٤) سورة الكهف آيات : ٦٠ - ٨٢ .

الإلهامات ، ومعرفة لا تتأتى لذوى النفوس المادية ، الذين شغلوا بالدنيا عن الدين ، وبالمادة عن الله .

طريق البصيرة طريق صواب

ولكن الكثيرين يشكون في هذا الطريق - طريق البصيرة الذى سبيله التواضع والتطهر - الموصول إلى المعرفة ، ويرون أنه أسطورة من الأساطير أو خرافة الخرافات ، ويطلبون في إلحاح الاستدلال على أن هذا الطريق صحيح .

« يرون أن النبوة ، والرسالة ، والعبد الصالح ، كل هذه أمور خارقة ، أرادها الله فكان ما أراد ، ولكن ليس هناك من دليل على أن غيرهم البشر يستطيعون أن يصلوا إلى معرفة إلهامية ، فما الدليل إذن على أن هؤلاء وسيلة من وسائل المعرفة ؟ »

« هؤلاء نقول ما قاله الشيخ « عبد الواحد يحيى » لأمثالهم من المعارضين ، في ساحة « السريون » لأساتذة الجامعة . وعلماء باريس ، حينما دعوهم في « ما وراء الطبيعة » :

« سيتساءل قوم : أمن الممكن أن تتخطى الطبيعة فنصل إلى ما وراءها ؟ لا لا نتردد في أن نجيبهم في وضوح واضح : ليس ذلك ممكنا فحسب ، ذلك واقع موجود . »

يقولون : تلك قضية تفتقر إلى برهان :

« لكن أى برهان يمكن أن يقدمه الإنسان على وقوع هذا الأمر ووجوده ؟ الغريب حقا أن يطلب البرهان على إمكان نوع من المعرفة ، بدلا من أن

يحاول الإنسان أن يصل إليها بتجربته الشخصية ، سالكا إليها ما تتطلبه من سبل .

إن الشخص الذى وصل إلى هذه المعرفة لا يعنيه - في قليل أو كثير - ما يثور حولها من جدل ونقاش .

وإنه لمن البين للواضح أن إحلال « نظرية المعرفة » محل « المعرفة » نفسها إعلان صريح على عجز الفلسفة الحديثة « اهـ .

وهذا رأى نفسه هو ما يراه كثير من كبار المفكرين

إنه رأى الفارابى ، ورأى ابن سينا ، ورأى الشيخ

يقول الأستاذ الإمام في رسالة التوحيد :

« أما أرباب النفوس العالية ، والعقول السامية ، من

مراتبهم من مراتب الأنبياء ، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم

ودعوتهم أمناء ، فكثير منهم نال حظا من الأنس بما يقارن

الاتصال في النوع أو الجنس ، لهم مشاركة في بعض أحوال

الغيب ، ولهم مشاهد صحيحة في عالم المثال لا تنكر عليه

الواقع ، فهم لذلك لا يستبعدون شيئا مما يحدث به عن

وسلامه عليهم - ومن ذاق عرف ، ومن جرم انحراف

ودليل صحة ما يتحدثون به وعنه : ظهور الأثر الد

أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم ، وطهارة فطرهم مما ينك

أو يمجج الذوق السليم ، وانتفاعهم بياعث من الحق

المتلألئ في بصائرهم ، إلى دعوة من يحف بهم إلى ما في

قلوب الخاصة .

ولا يخلو العالم من منسبين بهم ، ولكن ما أسرع ما ينكشف حالهم ، ويسوء مآلهم ، ومآل من غرروا به ، ولا يكون لهم إلا سوء الأثر في تضليل العقول ، وفساد الأخلاق ، وانحطاط شأن القوم الذين رزثوا بهم ، إلا أن يتداركهم الله بلطفه ، فتكون كلمتهم الخبيثة : كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار^(٥) .

التصوف أرستقراطية

١ - مما سبق نتبين : أن « الصوفية » يرون أن الحس وسيلة إلى المعرفة ، له ميدانه .

وأن العقل وسيلة إلى المعرفة ، له ميدانه هو أيضا .

والبصيرة - التي سبيلها تركية النفس - وسيلة إلى المعرفة ، لها ميدانها . ولا صلة لتركية النفس بالعاطفة . و« الصوفية » أقل الناس ، تأثراً بالعواطف ، هلى خلاف ما هو مشهور عادة ، وإذا استعملوا أحياناً كلمة القلب ، فلا يعنون بها ما يتصل من قرب أو من بعد بالعاطفة .

وتركية النفس طريق صعب المرتقى ، وتركيز الانتباه في الله - وهو المقصود بـ « الذكر » - وعمر المسلك ، ولذلك كان طريق التصوف طريقاً خاصاً لا يمكن سلوكه إلا لطائفة قليلة من الناس ، وإذا نظرنا إلى الشروط التي يجب توافرها في السالك ، علمنا أن النفوس الجديرة بسلوك هذا الطريق من الندرة بمكان .

ومن هنا يعترض خصوم « التصوف » قائلين :

(٥) رسالة الشيخ محمد عبده ، في التوحيد ط صبيح ص ٦١ - ٧٠

« التصوف » إذن : « أرستقراطية » .

وهذا اعتراض لا قيمة له : فد « التصوف » حقاً « أرستقراطية » .

وطبيعة الأمور تأتي إلا أن يكون « أرستقراطية » ؛ إنه نظام الصفوة المختارة ، إنه نظام هؤلاء الذين وهبهم الله حُمرهاً ، وذكاء حاداً ، وفطرة روحانية ، وصفاء يكاد يقرب من صفاء « للائكة » ، وطبيعة تكاد تكون مخلوقة من النور .

٢ - وإذا كانت « الديمقراطية » معناه التساوى في كل شيء ، فهي أسطورة من الأساطير : فالتساوى لا يوجد في عالم الطبيعة بحال من الأحوال : إنه لا يوجد بين الحيوانات في الغاب ، ولا يوجد بين بني آدم في المدن أو في القرى .

إن الله لم يسو بين الناس في ألوانهم ، ولا في قوتهم الجسمية ، ولا في ذكائهم ، ولا في دعاتهم ومكرهم ، ولا في أرزاقهم وحظوظهم . . . ونظام « الطبقات » الذي يسود في « الهند » ، والذي نتقده ونشنع عليه إنما هو النظام الواقع فعلاً في جميع أقطار الأرض .

و « الروس » الذين بلغت « الديمقراطية » عندهم حد الفوضى فيهم الرئيس والمرءوس ، والسائد بذكائه وقوته . والمسود بغيبائه وضعفه .

و « الإنجليز » فيهم « الملك » و « الأمراء » و « النبلاء » ، وفيهم « عامة الشعب » .

و « أفلاطون » ؛ وهو « فيلسوف » ناب ، قسم جمهوريته المثالية إلى « طبقات » وذلك بحسب استعداد كل طائفة من الطوائف : ففي « جمهوريته » : طائفة « الإنتاج » وهي الطائفة ذات « المعدة » الشرهة ،

فئة التصوف المتخذ من الضلال

والشهوات الغلابة .

وطائفة « الجند » ذات العاطفة القوية .

وطائفة « القادة » معدن العقل والحكمة ، والبصيرة ، والإشراق .

٣- « التصوف أرستقراطية » وهو في ذلك منسجم مع طبيعة الأمور : وعلى هذا لا يمكن أن يوجه إلى « التصوف » الاعتراض الرخيص ، الذي يقول : لو شمل « التصوف » كل الناس ، لفسد العالم : ذلك أن الناس جميعا لا يمكن أن يصبحوا متصوفين ، فطبيعتهم تأبى ذلك ، وأئمة « التصوف » يعلمون حق العلم أنه لا يمكن أن يطلب من طائفة الإنتاج : طائفة المعدة والشهوة ، أن ينهجوا نهج السادة المختارين : معدن الصفاء والحكمة .

الناس معادن : على حد تعبير الرسول ﷺ - ومعادهم ثابتة لا تتغير فـ « خيارهم في الجاهلية ، خيارهم في الإسلام إذا فقهوا » إن فيهم المعدن الذهبي وفيهم المعدن الفضي ، وفيهم غير ذلك .

ويصور الشيخ محمد عبده ذلك خير تصوير فيقول في رسالة التوحيد : « مما شهدت به البديهة ، أن درجات العقول متفاوتة ، يعلو بعضها بعضا ، وأن الأدنى منها لا يدرك ما عليه الأعلى ، إلا على وجه من الإجمال ، وأن ذلك ليس لتفاوت المراتب في التعليم فقط ، بل لابد معه من التفاوت في الفطر التي لا مدخل فيها لاختيار الإنسان وكسبه ولا شبهة في أن من النظريات : عند بعض العقلاء ما هو بديهي عند من هو أرق منه ، ولا تزال المراتب ترتقي في ذلك إلى ما لا يحصره العد ، وأن من أرباب الهمم وكبار النفوس من يرى البعيد عن صغارها قريبا ، فيسعى إليه ، ثم يدركه والناس دونه ينكرون بدايته ويعجبون لنهايته ، ثم يألفون ما صار إليه ، كأنه من المعروف الذي لا ينازع ،

والظاهر الذي لا يحاحد ، فإذا أنكره منكر ثاروا عليه ثورتهم بادي الأمر على من دعاهم إليه ولا يزال هذا الصنف من الناس على قتلته ، ظاهرا في كل أمة إلى اليوم » (٦) .

والله سبحانه يذكر تمايز الناس فيما ينعم عليهم به ، ويبين أن منهم الأنبياء ، ومنهم الصديقون ، ومنهم الشهداء إلخ . قال تعالى :

﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم : من النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا . ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما ﴾ (٧) .

لا يدعو « الصوفية » إلى أن يكون الناس جميعا متصوفين . و « جل جناب الحق عن أن يكون شرعة لكل وارد ، أو أن يطلع عليه إلا الواحد بعد الواحد » .

إن أهل الحق نادرون ، وهذه فكرة بديهة ، لا تحتاج إلى الاستفاضة ، بيد أن « الصوفية » : إذا كانوا لا يدعون الناس جميعا إلى « التصوف » فإنهم يعملون جهدهم للوصول إلى مجتمع أسمى ، إنهم يريدون أن يسود بين جنابات المجتمع جو من الروحانية والرحمة والمحبة يجعل الناس إخوانا متعاونين ، متكاتفين .

(٦) رسالة التوحيد (للشيخ محمد عبده) ط صبيح ص ٦٧

(٧) سورة النساء ٦٩ ، ٧٠ .

تفاوت الناس في فهم الدين

أما الاعتراض : بأنه إذا كان الإسلام الحق هو « التصوف » فالإسلام إذن دين طائفة محدودة ، لا يتيسر لكل إنسان : فهو اعتراض لا ينسجم مع التزعة العامة عند « الصوفية » .

إن « الصوفية » لا يكفرون من عداهم ، إنهم يرون أن طائفة « الإنتاج » ناجية .

ونحن جميعاً نعلم أن التحقيق الإسلامى ليس بدرجة واحدة عند جميع الناس : إن إيمان « أبى بكر » - رضوان الله عليه - ليس كإيمان غيره ، والرسول ﷺ - يمثل تفاوت الطبائع في الاسترشاد فيقول :

« إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير .

وكان منها أجادب أمسك الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا .

وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان : لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ .
فذلك مثل من فقه في دين الله تعالى ونفعه ما بعثنى الله تعالى به ، فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » .

التصوف قوة

والتصوف قوة : ذلك أن نفوس « الصوفية » هية : عندهم في سبيل الله ، يبذلونها عن رضا لإعلاء كلمة الله ، فهم آمن جشوا أنفسهم بالشاق لنشر الإسلام بين ربوع أفريقيا وأقطارها التى لم تفتحها الجيوش الإسلامية . وقد كان لهم الفضل الأكبر في نشر الإسلام في (أندونيسيا) وغيرها من الأقطار النائية .

وكانوا ينشرونه بالقدوة الطيبة ، والخلق الكريم ، أكثر مما ينشرونه بالدعاية التى قد لا تجدى .

وكان الكثير منهم من المرابطين ، ومعروف أن المرابط هو ذلك الشخص الذى يعيش على الحدود الإسلامية : مكرساً حياته لصد غارة الأعداء . والعبادة والروحانية ، والزهد والورع ، كل ذلك ليس من مظاهر الضعف وإنما هو قوة .

يقول « ابن سينا » عن الصوفى « العارف الشجاع » وكيف لا وهو بمعزل عن تقية الموت .

« التصوف » روحانية ، والروحانية قوة ، ولا يتارى في ذلك اثنان .

التصوف ليس دخيلاً على الإسلام

أما أن « التصوف » دخيل على الإسلام ، فيكفيها في الرد على ذلك أن نذكر ثلاثة آراء .

أولها : للشيخ « عبد الواحد يحيى » ، وهو فيلسوف سني صوفي .
والثاني : للمستشرق الشهير الأستاذ « مسينيون » الذي هو أكبر أعظم باحث
في « التصوف » بين المستشرقين في العصر الحاضر :

والثالث لصاحب كتاب « التبصير في الدين » وهو من شدة عناية بالرد على
كل من يخالف مذهب أهل السنة :

ومؤلفه هو : « الإمام الكامل ، الفقيه الأصولي حرس » الإسفراييني .
ويرى الشيخ « عبد الواحد » أن « التصوف » يكون جزءاً جوهرياً من الدين
الإسلامي ، إذ أن الدين يكون ناقصاً بدونه ، بل يكون ناقصاً من جهته
السامية ، أعني جهة المركز الأساسي ، لذلك كانت فروغاً رخيصة ، تلك التي
تذهب بـ « الصوفية » إلى أصل أجنبي ؛ « يوناني » أو « هندي »
أو « فارسي » ؛ وهي معارضة بالمصطلحات « الصوفية » نفسها ، تلك
المصطلحات التي ترتبط باللغة العربية ارتباطاً وثيقاً :

وإذا كان هناك من تشابه بين « الصوفية » وما يماثلها في البيئات الأخرى
فتفسير هذا طبيعي ، لا يحتاج إلى فرض « الاستعارة » ، ذلك أنه مادامت
الحقيقة واحدة فإن كل العقائد السنية تتحد في جوهرها ، وإن اختلفت فيما
تلبسه من صور^(٨) .

ويقول الأستاذ « مسينيون » : وقد بين « نيكولسون » أن إطلاق الحكم
بأن التصوف دخيل في الإسلام غير مقبول .

والحق أننا نلاحظ منذ ظهور الإسلام أن الأنظار التي اقتصت بها
« متصوفة » المسلمين « نشأت في قلب الجماعة الإسلامية نفسها في أثناء عكوف

(٨) انظر كتاب : الفيلسوف المسلم ، مكتبة الأنجلو المصرية .

المسلمين على تلاوة القرآن ، والحديث وتقرؤها وتأثيرها بما أصاب
من أحداث ، وما حل بالأفراد من نوازل .
ويذكر صاحب كتاب « التبصير في الدين » ما يمتاز به « أهل السنة » عن
غيرهم من « الخوارج » و « الروافض » ، و « القدرية » ، فيذكر أن سادس
ما امتاز به « أهل السنة » هو :

علم « التصوف » ، و « الإشارات » وما لهم فيها من الدقائق والحقائق ، لم
يكن قط لأحد من « أهل البدعة » فيه حظ ، بل كانوا محرومين مما فيه : من
الراحة والحلاوة والسكينة والطمأنينة .

وقد ذكر « أبو عبد الرحمن السلمي » من مشايخهم قريباً من ألف وجمع
إشاراتهم ، وأحاديثهم ، ولم يوجد في جملتهم قط من ينسب إلى شيء من بدع
« القدرية » ، و « الروافض » ، و « الخوارج » .

وكيف يتصور فيهم من هؤلاء ، وكلامهم يدور على التسليم والتفويض ،
والتبري من النفس ، والتوحيد بالخلق والمشيئة .

وأهل البدع ينسبون الفعل ، والمشيئة ، والخلق والتقدير إلى أنفسهم ،
وذلك بمعزل عما عليه أهل الحقائق من التسليم والتوحيد^(٩) .

تعليل الإقبال على دراسة التصوف في العصر الحاضر .

(٩) التبصير في الدين . (لأبي المظفر الإسفراييني) المتوفى سنة ٤١٧ هـ . ط السيد عزت العطار

التصوف في العصر الحديث

لقد كان أتباع « فولتير » في القرن الثامن عشر ، وأنصار « ريتان » في القرن التاسع عشر يسخرون ممن يتجه إلى دراسة « التصوف » وكان تأثيرهما من القوة بحيث كان الناس - شريون وغيرهم - منصرفين عن هذا الميدان ، مقبلين على العلم الحديث ، معتقدين أنه يحل كل مشكلة في الطبيعة وفيها وراءها ، ولكن الناس الآن معنيون بالدراسة الصوفية ، فما الذي غير اتجاههم ؟ إننا ندع الأستاذ الكبير « عباس محمود العقاد » يفسر لنا ذلك بأسلوبه الرصين :

« ما الذي غير اتجاه العقل الإنساني في القرن التاسع الذي غيره هو العلم نفسه ، لأنه عرف حدوده وكفكف اليوم يدعى ويتواضع كثيرا في « دعواه : يدعى أنه يصف ما لا نريد أن نقول : إن العلم أخفق في تعزية الإنسان وتعميق كلاً بل نريد أكثر من ذلك . . . أنه أخفق في دعواه الوحيد أن ينجح فيها ، لأن أصحابه كانوا يسمونه بالعلم « المادى » وهو المادة إلا أنها حركة مجهولة ، في فضاء مجهول .

نعم كل مادة تتركب من ذرات ، وكل ذرة تنفلق فتصبح شعاع هو حركة في « الأثير » . . . وما « الأثير » ؟ . . . شيء كلاً شياً حدود ولا أوصاف ، ولا مقادير يعرفها العلماء .

فالعلم المادى لا يعرف المادة إلا في هذه الحدود ، ومن يتواضع كثيرا ، فلا يحتكر المعرفة ، ولا ينتكر على غيره أن

استطاعوا ، وهذا هو الجديد على العلم الحديث ، إنه لا يعلم كل شيء لأنه مقيد بالحواس . وإذا كانت الحواس لا تعلم جميع الأشياء ، فهل يعلمها الفكر ؟ كلا - أيضا - لأن الفكر محدود ككل شيء في الإنسان .

فلا بد للمعرفة من وسيلة أخرى مع وسائل الحس ووسائل التفكير .

لا بد لها من البصيرة ، أو من البديهة ، أو من الإلهام .

وذلك هو مجال التصوف ، أو مجال الدين . فهذه هي المعرفة التي يتعاون

عليها الحس ، والفكر ، والإلهام « (١٠) » .

• • •

أما بعد : فأرجو أن يكون الحق قد استبان فيما بين الصوفية وغيرهم من

أفئدة نفوس خصومهم من

ليها الصوفية - إخواناً في

الفضل المختار
الإمام الغزالي

- حياته
- نبذة عنه بقلم أحد معاصريه
- كتبه
- نصوص تبين منهجه

حياته

هو : « أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي » . ولد « بطوس » من إقليم « خراسان » عام ٤٥٠ هـ الموافق عام ١٠٥٨ م .
وكان والده - كما يقول « السبكي » في طبقاته - يغزل الصوف ، ويبيعه في دكانه بطوس ، فلما حضرته الوفاة ، أوصى به وبأخيه : « أحمد » ، إلى صديق له متصوف ، وأعطاه ما ادخره من مال يسير ، قائلا :
« إن لي لتأسفاً عظيماً على عدم تعلم الخط ، وأشتى استدراك ما فاتني ، في ولدي هذين » .
وأشرف عليها الوصي الصالح ، وعلمها الخط ، إلى أن فنى ذلك التزوير اليسير ، الذي كان قد خلفه لها أبوها ، وتعذر على الصوفي القيام بقوتها ، فقال لها :
اعلم أني قد أنفقت عليكما ما كان لكما ، وأنا رجل من أهل التجريد ، بحيث لا مال لي فأواسيكما به ، وأصلح ما أرى لكما أن تلجأ إلى مدرسة ، فإنكما من طلبة العلم ، فيحصل لكما قوت ، يعينكما على وقتكما ، ففعلا ذلك ، وكان هو السبب في سعادتهما ، وعلو درجتها .
وكان « الغزالي » يحكي هذا ، ويقول :
طلبنا العلم لغير الله ، فأبى أن يكون إلا الله ^(١) .

(١) من كتاب « إنحاف السادة المتقين » بشرح « أسرار إحياء علوم الدين » ، للعلامة « محمد بن محمد الحسيني الزبيدي » .

وفي عهد الصبا في «طوس» أخذ طرفاً من الفقه، على «أحمد الراذكاني»، ثم سافر إلى «جرجان»، ليأخذ عن الإمام «أبي نصر الإسماعيلي» فسمع منه، وكتب عنه، ثم عاد إلى «طوس»، فكث بها ثلاث سنين، يتأمل ويتدبر، ويحفظ ما حصله «بجرجان».

وبعد ذلك، قدم «نيسابور» ولازم إمام الحرمين، حتى برع في المذهب. (٢)

والخلاف والجدل، والأصلين (٣)، والمنطق، وقرأ الحكمة، والفلسفة، وأحكم كل ذلك، وفهم كلام أرباب هذه العلوم، وتصدى للرد على مبطلهم وإبطال دعاواهم... (٤)

وكان إمام الحرمين يصفه بأنه: «بحر مغرق».

ولما انتهت الحياة بإمام الحرمين (عام ٤٧٨ هـ - ١٠٠٥ م) خرج «الغزالي» إلى العسكر، قاصداً الوزير: «نظام الملك»، إذ كان مجلسه مجلس أهل العلم، ومحط رحالهم، فناظر الأئمة العلماء في مجلسه، وقهر الخصوم، وظهر كلامه عليهم، واعترفوا بفضله، فلقاه صاحب التعظيم، وصار اسمه في الآفاق، واشتهر في الأقطار.

ولما أصبح بهذه المثابة، اختاره نظام الملك للتوجه إلى بغداد، وذلك للتدريس بالمدرسة النظامية بها، فقدمها في سنة أربع وثمانين وأربعمائة، وقد بلغ الرابعة والثلاثين من عمره المبارك. واستقبل في بغداد، استقبالا حافلا فقد سبقته شهرته إليها.

(٤) شرح إحياء علوم الدين للزبيدي.

(٢) مذهب الشافعي رضي الله عنه.

(٣) يعني أصول الدين وأصول الفقه.

وفي بغداد نال من الاحترام، ما يشبه التقديس. لقد غنت حشوته الأمراء والملوك والوزراء، على حد تعبير «السبكي» وصار - على حد تعبير أحد معاصريه، وهو «عبد الغافر الفارسي» - بعد إمامة «حسن» يوم العراق.

• • •

ثم ماذا؟

ها هو ذا؛ قد بلغ قمة المجد، وأنته الدنيا خاضعة ذليلة: تسه من جانبها

المالي.

وأنته من جانبها الذي يتصل بالشهرة، وذبوع الاسم. وأنته من جانبها الذي يتصل بالجلال والنفوذ، حتى إنه ليذكر أن من قرب من الولاة:

«كان يشاهد إلحاحهم في التعلق بي والانكباب عليّ، وإعراض عنهم

وعن الالتفات إلى قولهم» (٥).

واستمع الإمام بكل ذلك فترة، لعلها لم تكن طويلة الأمد...

ثم ماذا؟

ثم كانت انتفاضته العارمة التي انتزعته قسراً وفي عنف، من وسط النعم والأبهة والمجد... إلى حيث الانزواء والعزلة. لقد كان ينعم في الترف الدنيوي، وها هو ذا الآن ذاهب إلى الله. لقد كان يرفل في رياض من النعم المادي، وها هو ذا الآن فار إلى ربه، ومهاجر إليه.

ماذا حدث؟

هل حدث هذا الانقلاب الكلي فجأة ودون مقدمات؟

(٥) المنقذ من الضلال.

لا شك أن ذلك لم يكن انتفاضة فجائية ، كانتفاضة سيدنا « عمر ابن الخطاب » التي اقتلعت - في دقائق - جذور الشرك من أعماقه ، وغرست - في دقائق - أصول التوحيد في سويداء قواده ، فأمن في لحظة وأتاب :

لقد كان الإمام « الغزالي » ، طيلة حياته طلعة ، يجرى وراء المجهول ، وكان كما يقول عن نفسه :

« ولم أزل في عنقوان شبابي - منذ راهقت البلوغ ، قبل بلوغ العشرين إلى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين - أقتحم لجة هذا البحر العميق ^(٦) ، وأخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الخدور ، وأتوغل في كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأتفحم على كل ورطة ، وأنفحص عن عقيدة ، كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع .

لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على باطنيته .
ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته .
ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته .
ولا متكلماً إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته .
ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صفوته .
ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته .
ولا زنديقاً معطلاً إلا وأتحسس وراءه للتنبه ، لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته .

(٦) يقصد بحر المعرفة .

ويقول أيضاً :
« قد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور : دأبي وديدي - من أول أمري وريعان عمري - غريزة ، وفطرة من الله ، وضعتا في جبتي ، لا باختيارى وحيلتي ، حتى انحلت عنى رابطة التمسيد ، وانكسرت على العقائد الموروثة ، على قرب عهد سن الصبا .

ومن أجل ذلك يقول عنه « نبي بور » .
« وقد وهب هذا الفتي عقلاً متوثباً ، قوى الخيال ، لا يرضى بأى قيد يغله » .

ولكن هذا التهم في البحث ، وهذا الاستقصاء في الدراسة ، وهذه العقلية الجريئة النافذة ، كل ذلك : انتهى به إلى الشك ، في ما يرى ، ويسمع ، ويقرأ وفي ما يقول ويعتقد .

وكان هذا الشك عنيفاً ، حاد ، شاملاً ، عاماً ، طيلة شهرين هو فيها :
« على مذهب السفسطة ، بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال » .
ولكن هذا الشك المطلق الشامل العام تبخر وزال ، لا بنظم دليل ، وترتيب كلام ، « بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر » .

• • •

زال ذلك الشك ، ليحل محله شك آخر ، هين سهل . وهذا الشك الثاني إنما هو شك في طريق النجاة ، إنه الآن يؤمن بالله وبالرسالة وبالبعث ولكن ما هي الكيفية التي يتكيف بها الإيمان ، فيما يتعلق بهذه الجوانب الثلاثة ؟ هذه الكيفية ، إذا وضحت : تحدد النهج الذي يجب أن يسير عليه . ودراسته المستفيضة : بينت له أن كل فريق من الباحثين - على كثرتهم

واختلافهم - « يزعم أنه الناجي ، وكل حزب بما لديهم فرحون » .

أى هذه الأحزاب محق ، وأيها مبطل ؟

ذلك هو : ما أخذ الإمام « الغزالي » نفسه باستكشافه .

ورأى أن أوضح طريق وأسهره ، أن يحدّد أصناف الطالبين للحق ، ويدرسهم صنفاً ، صنفاً ، أو فرقة ، فرقة .

وانحصرت الفرق عنده في أربع :

١ - « المتكلمون » : وهم يدعون أنهم أهل الرأي والنظر .

٢ - « الباطنية » : وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم ، والمخصوصون بالاعتباس من الإمام المعصوم .

٣ - « الفلاسفة » : وهم يزعمون ، أنهم أهل المنطق والبرهان .

٤ - « الصوفية » : وهم يدعون أنهم خواص الحضرة ، وأهل المشاهدة والمكاشفة .

هؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق ، والحق إذن ؛ لا يعدو هذه الأصناف الأربعة .

وشمر الإمام « الغزالي » عن ساعد الجدد ، لدراستها ، وابتدأ بعلم الكلام ، فوجده لا يشفي غلته ، ذلك أن أكثر حوض المتكلمين إنما هو :

« في استخراج مناقضات الخصوم ، ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم ، وهذا قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً أصلاً » .

وثنى بدراسة الفلسفة ، وأطلعه الله على منتهى علوم الفلاسفة في أقل من سنتين ، ثم أخذ يفكر فيما انتهى إليه قريباً من سنه ، يعاوده ، ويردده ، ويفتقد غوائله ، وأغواره ، حتى اطلع على ما فيه من خداع وتلبيس ، وتخييل .

فرأى أن مجموع ما صح ينحصر في ثلاثة أقسام :

١ - قسم يجب التكفير به .

٢ - وقسم يجب التبديع به .

٣ - وقسم لا يجب إنكاره أصلاً .

أما هذا الذي لا يجب إنكاره فثل :

١ - العلوم الرياضية .

٢ - المنطقيات .

٣ - العلوم السياسية .

٤ - العلوم الخلقية .

٥ - « أما الطبيعيات » فلا إنكار فيها إلا في مسائل معينة ، ذكرتها في

كتاب « تهافت الفلاسفة » وأكثر أغاليطهم إنما هي في :

٦ - الإلهيات .

ومجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلاً ، يجب تكفيرهم في ثلاثة

منها ، وتبديعهم في سبعة عشر .

وانصرف الإمام الغزالي عن الفلسفة ، لأن العقل :

« ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع

المعضلات » .

فأخذ يدرس مذهب التعليمية ، وهو مذهب يقوم على القول بـ « الحاجة

إلى التعليم والمعلم » وأنه : « لا يصلح كل معلم ، بل لابد من معلم معصوم » .

وقد نقد الإمام « الغزالي » مذاهبهم في قوة ، وفي عنف ، وألف كثيراً من

الكتب في الرد عليهم .

وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه ، والمال ، والأولاد ، والأصحاب .
هـ .

تلفظ الإمام « الغزالي » بلطائف الحيل في الخروج من بغداد ، مظهراً عزم
الخروج إلى مكة ، وهو يدبر في نفسه السفر إلى الشام . وسار يحدوه الأمل
العذب في المعرفة ، ويغمر قلبه الرجاء القوي في الفتح ، يتفضل الله به عليه ،
كما تفضل على من سلف من الأولياء والعارفين .
حتى إذا ما وصل إلى الشام ، أقام به قريباً من ستين ، لا شغل له إلا
العزلة ، والخلوة ، والرياضة ، والمجاهدة : اشتغالا بتركيب النفس ، وتهذيب
الخلق .

ن يدخل كل يوم الصخرة ويغلق
رياضة الحج ، وزيارة الرسول ،

بالتفكير .
حريصاً على الخلوة ، وتصفية
من عشر سنوات ، انكشف له في
ها : وأفاض الله عليه من النور
الحال إلى درجات يضيق عنها نطاق
هذه الفترة .

ولما انتهى من كل ذلك ، أقبل جهده على طريق الصوفية .

وطريق الصوفية : علم وعمل ، وابتدأ بتحصيل علمهم : من مطالعة كتب
أئمتهم ، مثل « قوت القلوب » ، « لأبي طالب المكي » ، رحمه الله ، وكتب
« الحارث المحاسبي » ، والمتفرقات الماثورة عن « الجنيد » ، « والشبلي » ،
« وأبي يزيد البسطامي » ، قدس الله أرواحهم ، وغير ذلك من كلام مشايخهم
هـ .

ولكن طريق الصوفية : لا يتم بالعلم فحسب ، بل إن العلم فيه : أقل
جانب من جوانبه ، أما الجانب الذي يصل بالإنسان إلى النور ، والإشراق ،
واليقين ، إنما هو الجانب العملي ، وهذا النوع يحتاج إلى الإقبال بكنه المهمة على
الله تعالى ، وذلك يقتضي الإعراض عن المال والجاه ،
الصيت ، ويقتضي الخلوة فترة تطول ، أو تقصر ، يتفرغ فيه
كاملاً إلى الله فاراً مهاجراً إليه .

وكان الإمام « الغزالي » إذ ذاك منغمساً في المال ، والجاه ،
الصراع في نفسه بين الشهوات والدنيا من جانب ، وبين
الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود من جانب آخر .
ولم يزل يتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ، ودواعي الآخرة
أشهر ، سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وانتهى الأمر في هذا التجاذب
لسانه عن التدريس ، وغمر قلبه حزن أثر على صحته ، ففض
يحدثنا هو عما فعل حينئذ :

« ثم أحسست بعجزى ، وسقط بالكلية اختياري فالتجأت
التجاء المضطر ، الذي لا حيلة له ، فأجاني الذي يجيب المف

نبذة عن الإمام الغزالي

بقلم أحد معاصريه^(٧)

« محمد بن محمد بن محمد أبو حامد الغزالي » ، حجة الإسلام والمسلمين ، إمام أئمة الدين ، لم تر العيون مثله لساناً وبياناً ، ومنطقاً وخطراً وذكاء وطبعاً ، أخذ طرفاً في صباه بطوس ، من الفقه على الإمام « أحمد الراذكاني » ، ثم قدم نيسابور مختلفاً إلى درس إمام الحرمين في طائفة من الشباب من طوس ، وجد ، واجتهد حتى تخرج في مدة قريبة ، وبز الأقران وحمل القرآن ، وصار أنظر أهل زمانه ، وأوحد أقرانه ، في أيام إمام الحرمين ، وكان الطلبة يستفيدون منه ، ويدرس لهم ، ويرشدهم ويبحث في نفسه ، وبلغ الأمر به إلى أن أخذ في التصنيف ، وكان الإمام - مع علو درجته ، وسمو عبارته ، وسرعة جريه في النطق والكلام - لا يصني نظره إلى « الغزالي » سراً لإيائه عليه في سرعة العبارة وقوة الطبع ، ولا يطيب له تصديه للتصنيف ، وإن كان متخرجاً به منتسباً إليه ، وهذا لا يخفى من طبع البشر ، ولكنه يظهر التبجح به ، والاعتداد بمكانه ، مظهراً خلاف ما يضمرة ، ثم بقى كذلك إلى انقضاء أيام الإمام . فخرج من نيسابور ، وصار إلى العسكر ، واحتل من نظام الملك محل القبول وأقبل عليه صاحب لعلو درجته وظهور اسمه ، وحسن مناظرته ،

(٧) هو عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي الذي توفي سنة ٥٢٩ هـ ، وكان متصلاً بالإمام الغزالي ومصاحباً له .

وجرى عبارته . وكانت تلك الحضرة محط رحال العلماء ، ومقصد الأئمة والفصحاء ، فوقعت للغزالي اتفاقات حسنة من الاحتكاك بالأئمة وملاقاته الخصوم اللد ، ومناظرة الفحول ومناقدة الكبار ، وظهر اسمه في الآفاق وارتفق بذلك أكمل الارتفاق ، حتى أدت به الحال إلى أن رسم للمصير إلى بغداد ، للقيام بالتدريس في المدرسة الميمونة النظامية بها ، فصار إليها : وأعجب الكل لتدريسه ومناظرته ، وما لقي مثل نفسه ، وصار بعد إمامة خراسان إمام العراق . ثم نظر في علم الأصول - وكان قد أحكمه - فصنف فيه تصانيف ، وجدد المذهب في الفقه ، فصنف فيه تصانيف ، وسبك الخلاف ، فجدد فيه أيضاً تصانيف ، وعلت حشمته ودرجته في بغداد حتى كانت تغلب حشمة الأكابر والأمراء ودار الخلافة ، فانقلب الأمر من وجه آخر ظهر عليه بعد مطالعة العلوم الدقيقة وممارسة الكتب المصنفة فيها ، وسلك طريق الزهد والتأله ، وترك الحشمة وطرح ما نال من الدرجة للاشتغال بأسباب التقوى وزاد الآخرة ، فخرج عما كان فيه وقصد بيت الله وحج ، ثم دخل الشام ، وأقام في تلك الديار قريباً من عشر سنين : يطوف ويزور المشاهد المعظمة ، وأخذ في التصانيف المشهورة التي لم يسبق إليها ، مثل : إحياء علوم الدين ، والكتب المختصرة منه ، مثل الأربعين وغيرها من الرسائل التي من تأملها علم محل الرجل من فنون العلم . وأخذ في مجاهدة النفس ، وتدبير الأخلاق ، وتحسين الشاغل ، وتهذيب المعاش فانقلب شيطان الرعونة ، وطلب الرياسة والجاه ، والتخلق بالأخلاق الذميمة ، إلى سكون النفس ، وكرم الأخلاق والفراغ عن الرسوم والترتبات ، وترتياً بزى الصالحين ، وقصر الأمل ، ووقف الأوقاف على هداية الخلق ودعائهم إلى ما يعينهم من أمر الآخرة ، وتبغيض الدنيا والاشتغال بها على

السالكين ، والاستعداد للرحيل إلى الدار الباقية ، والانقياد بكل من يتوسم فيه أوبشم منه رائحة المعونة أو التيقظ بشيء من أنوار المشاهدة ، حتى مرن على ذلك ولان .

ثم عاد إلى وطنه ملازماً بيته مشغلاً بالتفكير ، ملازماً للوقت ، مقصوداً نقياً ، وذخراً للقلوب لكل من يقصده ويدخل عليه ، إلى أن أتى على ذلك مدة وظهرت التصانيف وفشت الكتب ، ولم تبد في أيامه مناقضة لما كان فيه ولا اعتراض لأحد على أمره . حتى انتهت نوبة الوزارة إلى الأجل فخر الملك جبال الشهداء تغمدته الله برحمته ، وترينت خراسان بحشمته ودولته ، وقد سمع وتحقق بمكان الغزالي إلى ودرجته . وكال فضله وحالته ، وصفاء عقيدته ومعاشرته . فتبرك به وحضره ، وسمع كلامه ، فاستدعى منه ألابقى نفائسه وفوائده عقيمة لا استفادة منها ولا اقتباس من أنوارها ، وألح عليه كل الإلحاح وشدد في الاقتراح ، إلى أن أجاب إلى الخروج ، وحمل إلى نيسابور ، وكان الليث غائباً عن عرينه ، والأمير خافياً في مستور قضاء الله ومكنونه ، فأشير عليه بالتدريس في المدرسة الميمونة النظامية ، عمرها الله ، فلم يجد بداً من الإذعان لمولاه ونوى بإظهار ما اشتغل به : هداية الشداة وإفادة القاصدين ، دون الرجوع إلى ما انخلع عنه وتحرر عن رقه ، من طلب الجاه ومماراة الأقران ومكابرة المعاندين وكم قرع عصاه بالخلاف والوقوع فيه ، والطنع فيما يذريه ويأتيه . والسعاية به والتشجيع عليه ! فما تأثر به ، ولا اشتغل بجواب الطاعنين ، ولا أظهر استيحاشاً بغميزة المخلصين . ولقد زرتة مراراً وما كنت أحدث نفسي ما عهدته في سالف الزمان عليه من الزعارة . وإيجاش الناس ، والنظر إليهم بعين الازدراء ، والاستخفاف بهم كبراً وخيلاء ، واغتراراً بما رزق من البسطة

في النطق والخواطر والعبادة ، وطلب الجاه والعلو في منزلة . ثم صار على الضد ، وتصنى عن تلك الكدورات وكنت أظن أنه متفهم بحسب التكلف ، متيمن بما صار إليه . فتحققت ، بعد التروى والتفتير ، الأمر على خلاف المظنون ، وأن الرجل أفاق بعد الجنون ، وحكى لنا في نوال كيفية أحواله ، من ابتداء ما ظهر له من سلوك طريق التأله ، وغلبة الحال عيه . بعد تبحره في العلوم واستطالته على الكل بكلامه ، والاستعداد الذي حصه الله به في تحصيل أنواع العلوم وتمكنه من البحث والنظر ، حتى تبرم من الاشتغال بالعلوم الغربية عن المعاملة وتفكر في العاقبة ، وما يجدى وما ينفع له في الآخرة فابتدأ بصحبة الفارمدى وأخذ منه استفتاح الطريقة ، وأمثل ما كان يشير به عليه من القيام بوظائف العبادات والإيمعان في النوافل ، واستدامة الأذكار ، والجد والاجتهاد ، وطلباً للنجاة إلى أن جاز تلك العقبات ، وتكلفت تلك المشاق ، وما تحصل على ما كان يطلبه من مقصوده .

ثم حكى أنه راجع العلوم ، وخاض في الفنون وعاود الجهد والاجتهاد ، في كتب العلوم الدقيقة واقتنى تأويلها حتى انفتح له أبوابها ، وبقي مدة في الوقائع وتكافؤ الأدلة ، وأطراف المسائل ، ثم حكى أنه فتح عليه باب من الخوف ، بحيث شغله عن كل شيء وحمله على الإعراض عما سواه ، حتى سهل ذلك ، وهكذا إلى أن ارتاض كل الرياضة ، وظهرت له الحقائق ، وصار ما كنا نظن به . تمرساً وتخلقاً . طبعاً وتحققاً ، وإن ذلك أثر السعادة المقدرة له من الله . ثم سألنا عن كيفية رغبته في الخروج من بيته ، والرجوع إلى ما دعى إليه من أمر نيسابور ، فقال معتذراً عنه :

ما كنت أجوز في ديني إلى أن أقف عن الدعوة . . . نفعه الطالبين بالإفادة ،

وقد حق على أن أبوح بالحق ، وأنطق به ، وأدعو إليه . وكان صادقاً في ذلك . ثم ترك قبل أن يترك وعاد إلى بيته ، واتخذ في جواره مدرسة لطلبة العلم ، وخانقاه للصوفية ، وكان قد وزع أوقاته على وظائف الحاضرين من ختم القرآن ، ومجالسة أهل القلوب ، والقعود للتدريس ، بحيث لا تخلو لحظة من لحظاته ، ولحظات من معه عن فائدة . إلى أن أصابته عين الزمان ، وضنت به الأيام على أهل عصره فنقله إلى كسرى جواره بعد مقاساة أنواع من التقصد والمناوأة من الخصوم ، والسعى به إلى الملوك ، وكفاه الله وحفظه ، وصانه من أن تنوشه أيدي المنكيات ، أو ينتهك سردينه بشيء من الزلات ، وكانت خاتمة أمره : إقباله على حديث المصطفى ﷺ ، ومجالسة أهله ، ومطالعة الصحيحين : البخاري ومسلم ، اللذين هما حجة الإسلام ، ولو عاش لسبق الكل في ذلك الفن اليسير من الأيام يستفرغه في تحصيله . ولا شك أنه سمع الأحاديث في الأيام الماضية ، واشتغل بآخر عمره بسماعها ولم تنفق له الرواية ولا ضرر فيما خلفه من الكتب المصنفة في الأصول والفروع ، وسائر الأنواع التي تخلد ذكره ، وتقرر عند المطالعين المستفيدين منها ، أنه لم يخلف مثله بعده . مضى إلى رحمة الله يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الآخرة ، سنة خمس وخمسمائة ، ودفن بظاهر قسبة طابران ، والله تعالى ينحصر بأنواع الكرامة في آخرته ، كما خصه الله بفنون العلم في دنياه بمنه .

ولم يعقب إلا البنات ، وكان له من الأسباب إراثاً وكسباً ما يقوم بكفائته ، نفقة أهله وأولاده ، فما كان يياسط أحداً في الأمور الدنيوية ، وقد عرضت عليه أموال فما قبلها وأعرض عنها ، واكتفى بالقدر الذي يصون به دينه ولا يحتاج معه إلى التعرض لسؤال ومثال من غيره .

ومما كان يعترض به عليه : وقوع خلل من وجهة التحريق في أثناء كلامه ورجع فيه فأنصف من نفسه ، واعترف بأنه مارس ذلك الفن ، واكتفى بما يحتاج إليه في كلامه ، مع أنه كان يؤلف الخطب ، ويشرح الكتب بالعبارات التي تعجز الأدباء والفصحاء عن أمثالها ، وأذن للذين يطالعون كتبه فيعثرون على خلل فيها من جهة اللفظ أن يصلحوه ويعذروه ، فما كان قصده إلا المغاني وتحقيقها ، دون الألفاظ وتلفيقها .

ومما نقم عليه : ما ذكر من الألفاظ المستبشرة بالفارسية في كتاب كيمياء السعادة والعلوم ، وشرح بعض الصور والمسائل ، بحيث لا يوافق مراسم الشرع ، وظاهر ما عليه قواعد الإسلام ، وكان الأولى به والحق أحق ما يقال : ترك ذلك التصنيف والإعراض عن الشرح به فإن العوام ربما لا يحكمون أصول القواعد بالبراهين والحجج فإذا سمعوا شيئاً من ذلك تخيلوا منه ما هو المضر بعقائدهم ، وينسبون ذلك إلى مذهب الأوائل ، على أن المصنف اللبيب إذا رجع إلى نفسه علم أن أكثر ما ذكره ، مما رمز إليه إشارة الشرع . وإن لم يبح به ويوجد أمثاله في كلام مشايخ الطريقة مرموزة ومصرح بها متفرقة وليس لفظ منها إلا وكما يشعر أحد وجوهه بكلام موهم فإنه يشعر سائر وجوهه بما يوافق عقائد أهل الملة . فلا يجب إذن حمله إلا على موافق ، ولا ينبغي أن يتعلق به في الرد متعلق إذا أمكنه أن يبين له وجهاً في الصحة يوافق الأصول ، على أن هذا القدر يحتاج إلى من يظهره ، ويقوم به وكان الأولى أن يترك الإفصاح بذلك كما تقدم ذكره ، وليس كل ما يتفرد ويتمشى لأحد تقديره ينبغي أن يظهره بل أكثر الأشياء فيما يدرى يطوى ولا يحكى . فعلى ذلك درج الأولون من السلف الصالح إبقاء على مراسم الشرع وصيانة الدين عن طعن الطاعنين . وغيره

وقد ثبت أنه سمع سنن أبي داود السجستاني . عن الحاكم أبي الفتح الحاكم الطوسي . وما عثرت على سماعه . وسمع من الأحاديث المتفرقة آلافاً من الفقهاء . فما عثرت عليه ما سمعه من كتاب ، مولد النبي ﷺ ، من تأليف أبي بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم الشيباني . رواية الشيخ أبي بكر أحمد ابن الحارث الأصبهاني الإمام عن أبي محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان ابن المصنف ، وقد سمعه الإمام الغزالي من الشيخ : أبي عبد الله محمد بن أحمد الخواري : خوار طابران ، مع ابنه : الشيخين عبد الجبار ، وعبد الحميد ، وجاعة من الفقهاء .

ومن ذلك ما قال : أخبرنا الشيخ أبو عبد الله بن محمد أحمد الخواري ، أخبرنا أبو بكر بن الحارث الأصبهاني ، أخبرنا أبو محمد بن حيان ، أخبرنا أبو بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم بن إبراهيم بن المنذر الخوارزمي ، حدثنا عبد العزيز بن أبي ثابت ، حدثني الزبير بن موسى ، عن ابن الحويرث قال : سمعت عبد الملك بن مروان . سأل قتات بن أشيم الكتاني : أنت أكبر أم رسول الله ﷺ ؟ فقال : رسول الله ﷺ : أكبر مني . وأنا أسن منه . ولد رسول الله ﷺ . عام الفيل . وتمام الكتاب في جزء مسموع له « نقله الأستاذ عبد الكريم عثمان ، عن الطبقات الكبرى للسبكي ، وفي كتابه النفيس « سيرة الغزالي » .

كتبه

ولقد ألف الإمام الغزالي عشرات الكتب ، عد منها صحب طبقت الشافعية ما يقرب من ستين كتاباً .

وعد منها شارح الإحياء الإمام الزبيدي ما يقرب من ثمانين كتاباً ورسالة :

منها في الفقه : الوجيز ، والوسيط ، والبسيط .

ومنها في علم الكلام : الاقتصاد في الاعتقاد .

ومنها في الفلسفة : مقاصد الفلاسفة ، ونهايت الفلاسفة .

ومنها في التصوف : بداية الهداية ، ومنهاج العابدين ، وكتاب الإحياء .

بيد أننا ، إذا تصفحنا مؤلفات الإمام الغزالي - سواء ما ألف قبل فترة تصوفه وما ألف في أثنائها ، فإننا نجد أن أهمها في نظر الباحث الذي يريد أن يحدد شخصيته ومنهجه واتجاهه ثلاثة :

وهي - فضلاً عن ذلك - تعتبر في نظرنا أهم كتبه على الإطلاق .

ولو لم يؤلف الإمام الغزالي غيرها ، لبقى هو الغزالي العملاق ، الصوفي الفيلسوف بطابعه وسماته وشخصيته ، لا ينقص شيئاً من مكانته ، لما

كان هو الإمام الغزالي صاحب الأثر الخالد

١ - أما أحدها ، فإنه : كتاب المنقذ من

وهو كتاب لا غنى للباحث في تطور حياة الغ

الإمام حياته الفكرية ، في تطورها : من الدراسا

اليقين .

وهلكوا الهلاك الأبدى .

وقد حاول « بلاسيوس » ، أن يجد في عبارات كتاب : « التفاهت » وفي استعمال « ابن رشد » ، لهذه الكلمة ، ما يؤيد افتراضه ^(٨) .

وما لا شك فيه ، أن كتابه هذا : محاولة جريئة كل الجراءة ، موفقة كل التوفيق .

وما كان المقصد الأول والهدف الأساسي ، لهجومه ، هو هدم الآراء في نفسها ، إذ أن بعضها صحيح ، موافق للدين .

وإنما كان هدف الإمام « الغزالي » : هدم المنهج العقلي ، الذي استندت إليه هذه الآراء .

فخلود النفس مثلا : رأى يقول به الإمام « الغزالي » ويقول به الفلاسفة ، ولكن الإمام حمل معوله ، وأخذ يهدم بيد قوية ، المسلك العقلي ، الذي أثبت به الفلاسفة خلود النفس ، فانهارت أدلتهم ، وتهاقت .

لقد فعل ذلك مع إيمانه بخلود النفس .

وهو لم يلتزم في الكتاب إلا تكدير مذهبهم ، والتغيير في وجوه أدلتهم ، بما

يبين تهاقتهم ^(٩) .

ومقصوده : تنبيه من حسن اعتقاده في الفلاسفة ، وظن أن مسالكهم نقية عن التناقض ، ببيان وجوه تهاقتهم .

ويقول :

« أنا لا أدخل في الاعتراض عليهم ، إلا دخول مطالب منكسر ، لا دخول

(٨) من كتاب « تاريخ الفلسفة في الإسلام » . ترجمة الدكتور محمد عبد الحادي أبو ريدة .

(٩) من كتاب « التفاهت » .

ويحدد موقفه من علم الكلام ، ومن مذهب التعليمية ، ومن الفلسفة ثم من التصوف .

وفيه يبين موقفه من مسألة النبوة ، ومن الشكوك التي ترد عليها ، وبين الطريق الصواب ، لإحياء الشعور الديني ، حيثما يفتقر عند بعض الناس . وهو من الكتب التي يندر ما يماثلها في ثقافتنا الشرقية ، إذ أن كبار المفكرين عندنا ، لم يتجهوا إلى تسجيل تدرجهم الفكري ، وانتفاضاتهم الذهنية .

ولم يسبق « الغزالي » - فيما نعلم - في هذا النهج سوى « الحارث بن أسد الحنابلي » في مقدمة كتاب الوصايا : فإنه قص فيه طرفاً من حيرته ، وشكه الهين السهل ، ثم يقينه الذي انتهى إليه ، وقد قرأ الإمام « الغزالي » كتب « الحارث » وانتفع بها ، وربما كانت مقدمة كتاب « الوصايا » من العوامل التي دفعت الإمام « الغزالي » إلى كتابة « المنقذ » .

وقد كتبه الإمام « الغزالي » بعد أن أناف سنه على الخمسين ، كما يذكر هو . ٢ - وأما ثانيها فإنه : « تهاقت الفلاسفة » .

وهو كتاب تدل تسميته على ما يقصد به ، فإن الإمام « الغزالي » ، حينما سمى كتابه : تهاقت الفلاسفة - كما يقول « بلاسيوس » - كان يريد أن يمثل لنا : أن العقل الإنساني ، يبحث عن الحقيقة ، ويريد الوصول إليها ، كما يبحث البعوض عن ضوء النهار ، فإذا أبصر شعاعاً ، يشبه نور الحقيقة ، انخدع به ، فرمى بنفسه عليه ، وتهاقت فيه ، ولكنه يخطئ ، محذوفاً بأقيسة منطقية خاطئة ، فيهلك ، كما يهلك البعض .

فكان الغزالي يريد أن يقول :

« إن الفلاسفة خدعوا بأشياء ، أسرعوا إليها بلا إحمال روية ، فتهاقروا ،

مدع مثبت ، فأبطل عليهم ما اعتقدوه مقطوعاً بالزمامات مختلفة ، فالزمهم تارة ، مذهب المعتزلة ، وأخرى ، مذهب الكرامية ، وطوراً مذهب الواقفية ، ولا أنتهض ذائباً عن مذهب مخصوص .

ولقد وفق الإمام « الغزالي » توفيقاً تاماً ، فيما انتدب نفسه إليه في هذا الكتاب ، وهو : إثبات أن العقل - إذا لم يتخذ الوحي هادياً ومرشداً - عاجز كل العجز ، عن الوصول إلى المعرفة الصحيحة ، فيها وراء الطبيعة .

٣ - أما ثالث الكتب فإنه : « الإحياء » .

وهو أهمها ، وأهم كتب الإمام « الغزالي » عامة ، ولقد قال فيه الإمام « النووي » : « كاد الإحياء يكون قرآناً » .

وقد ألفه الإمام « الغزالي » ، في أوائل الفترة التي اصطحب فيها مع العزلة ، ومما يؤيد ذلك ، ما رواه الإمام « أبو بكر بن العربي » في كتابه : « القواصم والعواصم » من أنه التقى بالإمام بمدرسة السلام ، في جمادى الآخرة ، سنة تسعين وأربعمائة : وكان قد راض نفسه بالطريقة الصوفية من ستة وست وثمانين ، إلى ذلك الوقت نحواً من خمسة أعوام . . فقرأت عليه جملة من كتبه ، وسمعت كتابه الذي سماه : « الإحياء لعلوم الدين . . » .

أما فيما يتعلق بالبواعث التي من أجلها ألف الإمام : « كتاب الإحياء » . وأما فيما يتعلق بالهدف الذي من أجله ألف كتاب « الإحياء » . وأما فيما يتعلق بجوهر موضوعه . فإن ذلك كله يتلخص في كلمة واحدة هي الإخلاص .

ولقد روى « ابن الجوزي » : أن بعض أصحاب « أبي حامد » . سأله قبيل الموت قائلاً : أوصني . فقال له : « عليك بالإخلاص » ولم يزل يكررها حتى الموت .

عليك بالإخلاص ! ! لقد تلفت « أبو حامد » يوماً إلى نفسه ، فوجد أنه متجرد من الإخلاص ، وأن كل همه ، إنما هو الشهرة ، والصيت ، والجاه ، والمترلة عند الناس ، وعند الحكام . . . وانتفض « أبو حامد » انتفاضته ، التي وضع بها نفسه في محيط الإخلاص .

وتلفت « أبو حامد » - بعد ذلك - فيما حوله ، فوجد أن الناس صم ، بكم ، عمى ، عن قوله تعالى :

﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾

وعن قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ .

وغير ذلك من الآيات الكثيرة ، التي تدعو إلى الإخلاص في الدين ، وإلى إخلاص الدين لله وحده ، وهي في دعوتها إلى الإخلاص ، إنما تدعو إلى التوحيد .

ووجد أن الشيطان : قد استحوذ على أكثر الناس ، واستغواهم الطغيان ، وأصبح الدين - في نظر علمائه ، فضلاً عن غيرهم - فتوى حكومية ، أو جدلاً للمباهاة والغلبة والإفحام ، أو سجعاً مزخرفاً ، يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام .

لما رأى « أبو حامد » ذلك ، ألف كتابه النفيس .

وألفه ليستعيد الإخلاص إلى القلوب ، ليستعيد ما درج عليه السلف الصالح : من اتخاذ الإخلاص أساساً ، وشعاراً ، وما من شك في أن إخلاص الدين لله وحده ، هو التوحيد ، وما من شك في أن التوحيد : هو جوهر الدين الإسلامي ، وهو طابعه ، وهو هدفه ، وغايته .

قضية التصوف المنقذ من الضلال

وَألف الإمام كتابه إذن ، ليبين فيه الإخلاص أسساً ، ونتائج ، وأسباباً ،
وغايات .

ورتب الكتاب أقساماً ، والأقسام كتباً ، والكتب أبواباً ، والأبواب
فقرات . . . كل ذلك ليسهل تناوله .

فلما أقسام الكتاب فهي أربعة :

١ - قسم العبادات : يذكر فيه من خفايا آدابها ، ودقائق سننها ، وأسرار
معانيها ، كل ما يحتاج العالم العامل إلى معرفته : من وجوه الإخلاص فيها ،
وإقامتها على الأسس التي يحجبها الله ، سبحانه ، ورسوله ، ﷺ .
٢ - قسم العبادات : يذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق ،
وأغوارها ودقائق سننها ، وخفايا الورع في مجاريها ، وذلك مما لا يستغنى عنه
متدين .

٣ - قسم المهلكات . وهي الأخلاق المذمومة ، التي ورد القرآن بتطهير
القلب منها : يعرف بها ، ويذكر أسبابها ، وما ينشأ عنها من مضار ، ثم يذكر
طرق العلاج منها .

٤ - قسم المنجيات : يذكر فيه كل خلق محمود ، ويشرح الوسائل التي بها
يكتسب ، والثمار التي تجني من التخلق به .

وهو في كل هذه الأقسام : يبتدئ كل موضوع يعالجه بذكر الآيات
القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والآثار عن الصحابة والتابعين ، وأخبار
الصالحين .

تحليل كتاب « الإحياء »

ويفتح كتابه : « بكتاب العلم » فيسير فيه على حسب طريقته المحددة :
« شواهد الآيات ، والأخبار ، والآثار » « وشواهد الشرع والعقل » .

لقد ﴿ شهد الله ، أنه لا إله إلا هو ، والملائكة ، وأولو العلم ، قائماً
بالقسط ﴾ فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه ، وثنى بالملائكة ، وثالث بأهل
العلم . وناهيك بهذا شرفاً ، وفضلاً ، وجلالاً ونبلاً .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه : « العلماء ورثة الأنبياء » ومعلوم أنه
لا رتبة فوق النبوة ، ولا شرف فوق شرف الورثة لتلك الرتبة .
وقال الأحنف رحمه الله : « كاد العلماء يكونون أرباباً » .

والعلم الذي يريده الإمام « الغزالي » ، أوسع دائرة وأعم موضوعاً ، مما
نسميه العلم الآن : إذ أن العلم الذي يريده الإمام « الغزالي » إنما هو : علم
الدين والدنيا ، ولا يحرم الإمام « الغزالي » منه إلا ما يضر المجتمع ، كعلم السحر
مثلاً : فإذا أدى العلم إلى ضرر ما ، إما لصاحبه ، أو لغيره كان مذموماً .
والهدف من العلم . على كل حال : زيادة الهداية ، وغرس الإخلاص .
فإن من ازداد علماً ولم يزد هدى ، لم يزد من الله إلا بعداً .

ولابد للإخلاص من معرفة العقائد الصحيحة ، ولذلك يثنى الإمام
« الغزالي » بكتاب : « قواعد العقائد » وقواعد العقائد تدور حول ثلاث
مسائل :

١ - الله وصفاته . لأساس فيه ، أنه ليس كمثله شيء . وأنه متصف بكل

صفات الكمال : كالحياة والقدرة ، والعلم الشامل ، والإرادة الكاملة ، وغير ذلك من صفات الجلال والجمال .

٢ - وأنه ، سبحانه : بعث محمداً ﷺ ، برسالته إلى كافة العرب والعجم ، فنسخ بشريعته الشرائع ، إلا ما قرره منها ، ومنع كمال الإيمان بشهادة التوحيد - وهي قولك : لا إله إلا الله . ما لم تقتنر بشهادة الرسول ﷺ وهي قولك : محمد رسول الله ، وألزم الخلق تصديقه في جميع ما أخبر به من أمور الدنيا والآخرة .

٣ - والمسألة الثالثة هي الإيمان بالآخرة : البعث ، والحساب ، والنعيم أو العذاب .

وسواء كنا بصدد معرفة وجوده تعالى ، أو معرفة صفاته ، أو معرفة أحوال الآخرة ، أو معرفة صدق الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه . فإن أول ما يستضاء به من الأنوار ، ويسلك من طريق الاعتبار : ما أرشد إليه القرآن في ذلك : فليس بعد بيان الله سبحانه بيان ، وفي القرآن إرشاد ، واستدلال واضح على كل ذلك .

ويتبياً الإنسان للإخلاص بالطهارة ، والطهارة ظاهرية ، وباطنية ، وقد أطال الإمام « الغزالي » في الطهارة الباطنية ، وستحدث عنها فيما بعد إن شاء الله .

أما الطهارة الظاهرية ، فمنها الوضوء فإن : « من توضأ فأحسن الوضوء وصلى ركعتين لم يحدث نفسه فيها بشيء من الدنيا ، خرج من ذنوبه ، كيوم ولدته أمه » .

« والوضوء على الوضوء : نور على نور » بيد أن الوضوء إنما شرع من أجل

الصلوة ، والصلوة إنما هي الباب الذي يدخل منه الإنسان إلى الله ، سبحانه وتعالى ، يناجيه وينغمس في رحابه ، ويستنير بنوره ، وهي من أجل ذلك عماد الدين ، وعصام اليقين ، ورأس القربات ، وغرة الطاعات . ﴿ كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾ ، وإنها لتنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهي كذلك بشرط الخضوع وحضور القلب ، وهذا هو معنى الإقامة في قوله تعالى : ﴿ أقم الصلاة ﴾ .

أما من لم يكن كذلك في صلاته : فإنه يدخل تحت قوله صلوات الله وسلامه عليه : « كم من قائم حظه من صلاته التعب والنصب » وما أراد ، صلوات الله وسلامه عليه ، بذلك إلا الغافل ، أما إذا خشع في صلاته ، فإنه يدخل في دائرة قوله تعالى :

﴿ قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ .
ويقرب الله ، سبحانه ، الزكاة بالصلوة في غير ما موضع : ﴿ أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ وقد جعلها الله تركية ، وبفضلها تركى من عباد الله من تركى ، وقد شدد الله الوعيد على المقصرين فيها فقال : ﴿ والذين يكتزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها في سبيل الله ، فبشرهم بعذاب أليم ﴾ ، ومعنى الإنفاق في سبيل الله : إخراج حق الزكاة ، والزكاة نوع من تجريد الإنسان عن جزء من المادة بعد امتلاكه ، وذلك من أجل الله .

والصوم باب العبادة وباب الإخلاص ، فإذا ما صام الإنسان إيماناً واحتساباً ، باهى الله به ملائكته ، وكانت كل حركاته عبادة حتى نومه . والصوم ثلاث درجات : صوم العموم وهو : كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة ، وصوم الحصر وهو : كف الجوارح عن الآثام ، وصوم

هو وإذا سألتك صادى عنى فإنى قريب ، اجيب دعوة الداع إذا دعان ﴿١﴾ .
ولكن لابد للإجابة من التوبة ، ورد الظالم ، والإقبال بكنه الغمة ، على
الله عز وجل ، فذلك هو السبب القريب فى الإجابة .

وبعد أن ينتهى الإمام والغزالي بذلك من ريع المبادات ، يبدأ فى ريع
المعادات ، فيبين فيه آداب الأكل ، وآداب النكاح ، ثم يبين آداب الكسب
والمعاش ، ويتحدث عن فضيلة العمل ، وعن الآثار الكثيرة : قرآنية ونبوية فى
فضل العمل ، وفى استقامة الحال ، والتجار : فمن الذنوب ذنوب ، لا يكفرها
إلا الهى فى طلب المعيشة ، والتاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين
والشهداء .

ويخلص من ذلك إلى كتاب جليل نفيس هو : « كتاب الحلال والحرام »
والحلال : كله طيب ، ولكن بعضه أطيب من بعض ؛ والحرام كله خبيث ،
ولكن بعضه أخيب من بعض .

وبفصل الإمام كل ذلك ؛ لينتهى إلى « كتاب آداب الألفة والأخوة
والصحة » وأساسه حسن الخلق ، والتأسي فيه بالرسول الذى يقول الله له :
﴿ وإنك لملى خلق عظيم ﴾ وقد بحث ، صلوات الله عليه وسلامه ، لينتم
مكارم الأخلاق .

فإذا ما كان حسن الخلق كانت الأخوة ، وفائدة الأخوة ، كما يريد لها الدين
عظيمة .

ولقد قال صلوات الله عليه وسلامه فى الثناء على الأخوة فى الدين : « من
أراد الله به خيراً رزقه خيلاً صالحاً ، إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه » .
ومن أروع ما قاله صلوات الله عليه وسلامه فى ذلك : « مثل الأخوين ،

خصوص المخصوص وهو : صوم القلب عن المسم الدينية ، والأفكار
الدنيوية ، وكفه عما سوى الله عز وجل ، بالكافية . ويمكن فى فضل الحج
ما رواه الشيخان : البخارى ومسلم : « من حج فلم يرفث ، ولم يفسق ، خرج
من ذنوبه كيوم ولدته أمه » .

والقرآن : كتاب الإسلام المتزل ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من
خلفه ، من تمسك به هُدًى ، ومن عمل به فقد فاز ، ولقد قال صلوات الله
وسلامه عليه :

أهل القرآن أهل الإسلام المرز ، والقرآن : رسائل أنبأ ، من قبل ربنا ،
بمهوره تنديروها فى الصلوات ، ونقف عليها فى المناجاة .

من ذنوبه كيوم ولدته أمه .
وتبيناً
له إذن
فيها فى

تعالى :
﴿ اقرأ ﴾
رأى
سان ،
كار ،

سبحي ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسلياً ﴿٢﴾ .
ومن الذكر : الدعاء ، والدعاء مع العبادة ، يقول الله تعالى :

إذا التقا مثل اليمين : تغسل إحداهما الأخرى ، وما التقى مؤمنان قط ، إلا أفاد الله أحدهما من صاحبه خيراً .

ثم يتحدث عن العزلة والاختلاط ، مبيناً الآراء في كل منها لينتهي إلى أن كلام الشافعي ، رحمه الله ، في هذا الموضوع - وهو فصل الخطاب - إذ قال : « يا يونس ، الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة ، والانبساط إليهم : مجلبة لقرناء السوء ، فكن بين المنقبض والمنبسط » فلذلك يجب الاعتدال في المخالطة والعزلة ، ويختلف ذلك بالأحوال ، وبملاحظة الفوائد والآفات يتبين الأفضل ، هذا هو الحق الصراح ، وكل ما ذكر سوى هذا فهو قاصر ، وإنما هو إخبار كل واحد عن حالة خاصة هو فيها ، ولا يجوز أن يحكم على غير المخالف له في الحال .

والسفر للعظة والاعتبار من أعظم ما يفيد الإنسان في جانبه الروحي ، ولكن السفر قد يكون يسير القلب عن أسفل السافلين إلى ملكوت السموات ، وهو أشرف من السفر بظاهر البدن ، ويجمع السفرين ويحث عليهما قوله تعالى : ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟ ﴾ .

وينتهي الإمام في كتاب « السماع والوجد » بالحكم الرزين المنطقي ، وهو أن سماع الغناء قد يكون حراماً ، وقد يكون مباحاً ، وقد يكون مكرهاً ، وقد يكون مستحباً .

أما الحرام : فهو لأكثر الناس من الشبان ، ومن غلبت عليهم شهوة الدنيا فلا يحرك السماع منهم ، إلا ما هو الغالب على قريهم من الصفات المذمومة . وأما المكروه : فهو لمن لا يتزل على صورة المخلوقين ، ولكنه يتخذ عادة له في أكثر الأوقات على سبيل اللهو .

وأما المباح : فهو لمن لاحظ له من التلذذ بالصوت الحسن .
وأما المستحب : فهو لمن غلب عليه حب الله تعالى ، ولم يحرم السماع منه إلا الصفات المحمودة .

ولابد - لاستمرار الدين حيا في النفوس - من القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون ﴾ .

وبعد أن بين الإمام مواقف العلماء الرائعة ، وجهادهم في سبيل الله ، ختم الفصل بقوله :

فهذه كانت سيرة العلماء وعاداتهم في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر وقلة مبالاتهم بسطوة السلاطين ، لكنهم اتكلموا على فضل الله تعالى ، أن يحرسهم ، ورضوا بحكم الله تعالى ، أن يرزقهم الشهادة ، فلما أخلصوا لله النية ، أثار كلامهم في القلوب القاسية فليتها ، وأزال قسوتها ، وأما الآن فقد قيدت الأطباع ألسن العلماء فكتبوا ، وإن تكلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم ، فلم ينجحوا ، ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لأفلحوا ، ففساد الرعايا بفساد الملوك ، وفساد الملوك بفساد العلماء ، وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه .

ويختتم الإمام « الغزالي » ربيع العادات بكتاب : آداب المعيشة وأخلاق النبوة ، فيبين ما كان عليه الرسول ﷺ ، من خلق : هو كما في القرآن ، ويشرح في استفاضة ما يوضح قول الله تعالى لرسوله : ﴿ وإنك لعلی خلق عظیم ﴾ .

ويبتدئ ربيع المهلكات : بكتاب من انفس الكتب ، لا غنى عنه قطع لمن

يريد أن يعالج التصوف عملياً ، أو أن يقتنع بحقيقته نظرياً ، ذلك هو كتاب :
« شرح عجائب القلب » وأهميته ترجع إلى أن القلب : هو العالم بالله ، وهو
المتقرب إلى الله ، وهو العامل لله ، وهو الساعي إلى الله ، وهو المكاشف بما عند
الله ولديه .

فإذا تساءلت : ما معنى القلب الذي له هذه المترلة ؟ يأتيك الجواب أنه :
« هو لطيفة ربانية ، روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق ، وتلك اللطيفة
هي حقيقة الإنسان ، وهو المدرك ، العالم ، العارف ، وهو المخاطب ، والمعاتب
والمطالب » .

وفي النصوص التي ذكرناها فيما بعد ما يغني عن تلخيص هذا الكتاب .
ويتلو ذلك : كتاب « رياضة النفس ، وتهذيب الأخلاق » .
ومن هذا العنوان وحده تفهم أن « الغزالي » مزج بين رياضة النفس ،
وتهذيب الأخلاق ، أو بتعبير آخر ، جعل رياضة النفس تهذيباً للأخلاق .
والخلق الحسن إنما هو صفة سيد المرسلين ، وأفضل أعمال الصديقين وهو
على التحقيق شطر الدين ، وثمرة مجاهدة المتقين ، ورياضة المتعبدين .
ولقد كان صلوات الله وسلامه عليه يقول : « إن أحبكم إلي ، وأقربكم
منى مجلساً يوم القيامة ، أحاسنكم أخلاقاً » .
وأعظم المهلكات لابن آدم ، شهوة البطن .

فلا بد من كسر هذه الشهوة ، ومما يساعد على كسرها ، ألا يأكل الإنسان
إلا حلالاً ، وألا يجعل الأكل هدفاً وغاية ، والأفضل بالإضافة إلى الطبع
المعتدل ، أن يأكل بحيث لا يحس بثقل المعدة ، ولا يحس بالجوع ، بل
ينسى بطنه فلا يؤثر فيه الجوع أصلاً ، فإن مقصود الأكل بقاء الحياة والقوة على

العبادة ، وثقل المعدة يمنع من العبادة ، وألم الجوع أيضاً يشل القلب ، ويمنع
منها .

ثم يبحث الإمام عن « آفات اللسان » .
وما من شك في أن اللسان من نعم الله العظيمة ، ولطائف صنعه الغريبة .
ولكن الناس تساهلوا في الاحتراز عن آفاته وغوائله ، وهي كثيرة ، وما من
شك في أن من أسباب النجاة : ما نصحه به الرسول ﷺ في قوله : « أمسك
عليك لسانك » .

والكذب ، والغيبة ، والخبيمة . والاستهزاء ، والسخرية ، كل ذلك : من
آفات اللسان . والمثل العربي يقول : « مقتل الرجل بين فكيه » .
والطريقة المثلى : ألا يتحدث الرجل بما يغضب الله .
ومن الآفات التي تفسد على الناس أمورهم « الغضب » . وقد روى
أبو هريرة أن رجلاً قال : يا رسول الله مرني بعمل وأقلل ، فقال له صلوات الله
وسلامه عليه : « لا تغضب » ، فعد الرجل السؤال . فقال له : « لا تغضب » .
مما يزيل الغضب ، الجلوس إذا كان الإنسان قائماً ، والاضطجاع إذا كان
جالساً .

ومما يزيل الغضب الوضوء . والغتسال .

ومما يزيله السجود .

« ألا إن الغضب جمة في قلب ابن آدم ، ألا ترون إلى حمرة عينيه ،
وانتفاخ أوداجه ؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليصق خده بالأرض » وهذه إشارة
إلى السجود .

وحب الدنيا رأس كل حنة ، ولا يزال ابن آدم يجري وراءها في جشع

ول تكالِب فتستعبده إلى أن يالك : والمؤمن يستعبد الدنيا . فتذل له ،
ليصلها مطية للآخرة .

ومحب الدنيا بخيل ؛ لأنه متكالب عليها ، وقد روى بسند صحيح عن
رسول الله ﷺ :

« إن الله ، عز وجل ، يقول : إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ولو
كان لابن آدم واد من ذهب ، لأحب أن يكون له ثان ، ولو كان له الثاني ،
لأحب أن يكون له ثالث ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله
على من تاب » .

أما المقياس الصحيح فهو قوله تعالى :

﴿ ومن يوق شح نفسه ، فأولئك هم المفلحون ﴾ .

وحب الجاه ، والرياء والكبر ، والعجب ، والغرور : كلها : من الآفات
التي يجب أن يتخلى عنها المؤمن ، إذا أراد أن يخلص لله نيته وقصده .
أما إذا وصلنا إلى ريع المنجيات ، فقد وصلنا إلى درة التاج ، وإلى النور
الهادي ، وإلى صفاء الصفاء ! !

ويتبدى هذا القسم ، أول ما يتبدى به « التوبة » فإن التوبة عن الذنوب
بالرجوع إلى ستار العيوب ، وعلام الغيوب ، مبدأ طريق السالكين ، ورأس
مآل الفائزين ، وأول أقدام المريدين ، ومفتاح استقامة المائلين ، ومطلع
الاستصفاء والاجتباء للمقربين .

ووجوب التوبة : ظاهر بالأخبار والآيات ، وهو واضح بنور البصيرة عند
من انفتحت بصيرته ، وشرح الله بنور الإيمان صدره :

﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توباً نصوحاً ﴾ .

أما وجوب التوبة على الفور ، فلا يستتراب فيه .

ومهما يكن من شيء ف﴿ إن الله يحب التوابين ، ويحب المتطهرين ﴾ ،
ويقول ، صلوات الله وسلامه عليه :

« لله أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل في أرض دوية ، مهلكة ومعه
راحلته ، عليها طعامه وشرابه ، فوضع رأسه فنام نومة ، فاستيقظ وقد ذهبت
راحلته فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش ، أو ما شاء الله قال : أرجع إلى
مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده ليموت ،
فاستيقظ فإذا راحلته عنده ، عليها زاده وشرابه ، فالله تعالى ، أشد فرحاً بتوبة
العبد المؤمن من هذا براحلته » .

والإيمان « نصفان » نصف صبر ، ونصف شكر ، لقد وردت بذلك الآثار
وشهدت به الأخبار ، وقد وصف الله الصابرين ، وأضاف أكثر الدرجات
والخيرات إلى الصبر ، وجعلها ثمرة له ، فقال تعالى :

﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ وقال صلوات الله وسلامه
عليه :

« الصبر نصف الإيمان » وقال :

« الصبر كثر من كنوز الجنة » .

ونعم الله على المرء لا تحصى ، وواجب الإنسان نحو المنعم بهذه النعم هو
الشكر ، والشكر نفسه : سبب في زيادة النعم ، يقول تعالى :

﴿ لنن شكرتم لأزيدنكم ﴾ .

والرجاء والخوف : جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود ،
ومطيتان بهما يقطع من طريق الآخرة كل عقبة كثود .

فالمعمل بغير نية عطاء ، والنية بغير إخلاص ، رياء ، وهو للفتاق كفاء ، ومع العصيان سواء ، والإخلاص من غير صدق وتحقيق ؛ هباء . وقد قال الله تعالى في كل عمل كان بإرادة غير الله مشوباً مغموراً :

﴿ وقدّمنا إلى ما عملوا من عمل ، فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه :

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ؛ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

ومن راقب الله فاز ؛ ومن حاسب نفسه نجأ .

وقد وردت السنة : بأن تفكر ساعة خير من عبادة سنة . وكثر الحث في كتاب الله تعالى ، على التدبر والاعتبار ، والنظر والافتكار ، ولا يخفى أن الفكر هو مفتاح الأنوار ، ومبدأ الاستبصار ، وهو شبكة المعلوم ، ومصيدة الممارف والفهوم .

وقد أمر الله تعالى بالتفكير والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى ، وأثنى على المتفكرين ، فقال تعالى :

﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الأبصار ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض : ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فقلنا عذاب النار ﴾ .

وقد روى أن رسول الله ﷺ : بكى حينما نزلت هذه الآية وقال :

« ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها » .

وما يعين - على وجه العموم - التفكير في الموت وما بعده ، « والكيس من »

ويقرب الإيمان « النزال » الفقر بالزهد . . . والزهد في الدنيا ، مقام شريف من مقامات السالكين ، وهو تحقيق لقوله تعالى :

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ، وأموالهم ، بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله ، فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا ، في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا بيمينكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

والزهد إذن قوة ؛ لأنه يبع النفس والمال لله ، وتجرد في سبيله .

والتوكل ، منزل من منازل الدين ، ومقام من مقامات المؤمنين ، بل هو من معالي درجات المقربين ، وهو ثمرة من ثمار التوحيد ، فمن وحد الله حق توجيده توكل عليه :

﴿ أليس الله بكاف عبده ؟ ﴾ .

أما محبة الله ، فإنها النغمة القصوى من المقامات ، والذروة العليا من الدرجات ، ومن ثمارها : الشوق ، والأنس ، والرضا ، وليس قبل المحبة مقام ، إلا وهو مقدمة من مقدماتها : « كالتوبة ، والصبر ، والزهد ، وغيرها » . فهي واسطة المقد ، ودرة القلادة :

« والذين آمنوا أشد حبا لله » .

لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله ، أحب إليه مما سواها .

وقد انكشف لأرباب القلوب ، بصيرة الإيمان ، وأنوار القرآن : أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة .

« فأناس كلهم : هلكي إلا العالون ، والعالون كلهم : هلكي إلا المالمون ، والمالمون كلهم : هلكي إلا المخلصون ، والمخلصون كلهم هلكي إلا المخلصون ، والمخلصون : على خطر عظيم » .

دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت » ، يقول ، صلوات الله وسلامه عليه :
« كفى بالملوت واعظاً » .

ويختم الإمام الغزالي كتابه بقوله :

« وروى أنه وقف صبي في بعض المغازي ينادي عليه - لبيعه - فيمن يزيد في يوم صائف شديد الحر - فبصرت به امرأة في خباء القوم ، فأقبلت تشدد ، وأقبل أصحابها خلفها حتى أخذت الصبي ، وألصقته إلى صدرها ، ثم ألقت ظهرها على البطحاء ؛ وجعلته على بطنها تقيه الحر ، وقالت : ابني ، ابني » فبكى الناس وتركوها على ما هم فيه ، فأقبل رسول الله ﷺ ، حتى وقف

رحمة الله
لينا بما هو

لقد شرح
بحم الكثير
الحية ،

ومخطوطاته ، التي بمكتبات العالم ، لانكاد تحصر ، وقد طبع في القاهرة وحدها ما يقرب من عشرين طبعة ، وطبع في الهند ، وفي تركيا ، وفي فارس . ولا يزال الكتاب للآن في العالم الإسلامي مصدر إلهام ونور ، ودراسة تختلف نتائجها ، لاختلاف نزعات الدارسين . ولا يزال في القطر المصري جماعات تعقد حلقات أسبوعية ، تخصصها لقراءة « الإحياء » والتعبد بشرح ما فيه من حكم ومواعظ .

تقدير العلماء لكتاب « الإحياء » :

أما تقدير العلماء ، لهذا الكتاب : فتصوره الآراء التالية :
يكاد الناقدون يجمعون على كلمة : « أبي المظفر » سبط « أبي الفرج ابن الجوزي » في قوله :
« ووضعه على مذاهب الصوفية ، وترك فيه قانون الفقه ، فأنكروا عليه ما فيه ، من الأحاديث التي لم تصح » .
وفكرة الأحاديث التي لم تصح ، أذاع بها كثيرون من أعداء الإمام « الغزالي » ، وتحدثوا عنها مقبلين ومدبرين ، قائمين وقاعدتين ، ولكن ها هو ذا المولى « أبو الخير » يقول :
« أما الأحاديث التي لم تصح ، فلا ينكر عليه إيرادها ، لجوازه في الترغيب والترهيب » .

والواقع ، أن الإمام « الغزالي » لم يأت بهذه الأحاديث التي لم تصح ، لإثبات حكم ، أو للاستدلال على مبدأ ، ذلك أنه يذكر الآيات القرآنية التي يثبت بها ما تؤدي إليه من أحكام ، وقواعد ، وهي على هذا الوضع كافية

للإثبات والاستدلال ، ثم يأتي بعد ذلك بالأحاديث ، وبأقوال الصحابة والتابعين .

وإذا كان الأمر كذلك فإننا حينما نستبعد الأحاديث الضعيفة من الإحياء ، فإن كل المبادئ والقواعد والعظات والعبر التي أتى بها الإمام « الغزالي » في هذا الكتاب ، تحتفظ بقيمتها ، من ناحية الإثبات ، والاستدلال .

ويتبين من هذا ، أنه لا قيمة لهذا الاعتراض . لا شكلاً ولا موضوعاً . على أنه قد قام العالم الثبت الحجة « الحافظ »^(١٠) « العراق » الذي قال فيه شيخه : « إن ذهنه لا يقبل الخطأ » بتخريج أحاديث هذا الكتاب ، فأصبحت السنة واضحة ، وأصبح الطريق أبلج .

وشيء آخر عن هذا الاعتراض له أهمية ، وهو أن كثيراً من الأحاديث التي قال عنها الإمام « العراق » « لا أصل لها » بين الإمام « الزبيدي » شارح الإحياء أصلها ، وكثيراً من الأحاديث التي قال عنها الإمام « العراق » إنها ضعيفة ، بين

(١٠) الحافظ العراقي : هو زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي ولد بمصر في جمادى الأولى سنة ٧٢٥ هـ .

أما نسبته إلى العراق : فترجع إلى أن أصل أبيه من العراق . وتوفى والده وهو في الثالثة من عمره ، ولكن عناية الله أحاطت به ، إذ وهبه الله فطرة ممتازة : ذكاء خارقاً ، وذهناً صافياً ، وهمة عالية في طلب العلم : ويسرت له عناية الله الجوانب الثقافية ، فأخذ من كل العلوم الإسلامية بحظ وافر ، ولكنه تخصص في « علم الحديث » وظهرت فيه مواهبه ، وكان من توفيق الله : أن منحه ذاكرة قوية حافظة . فلقبه شيوخه « بحافظ الوقت » .

ومن أجل الحديث قام « الحافظ العراقي » بعدة رحلات ، سائراً في ذلك على طريق الأئمة السابقين الذين كانوا يقطعون مئات الأميال في طلب الحديث الشريف .

لقد سافر العراقي إلى الشام ، متنقلاً بين حواضرها ، وسافر إلى مكة والمدينة . وانتهت حياته في شعبان سنة ٨٠٦ هـ . وقد بلغ من العمر إحدى وثمانين سنة ، خدم فيها الحديث خدمة جليلة .

الإمام « الزبيدي » أنها ضعيفة ، من الوجه الذي رواها به الإمام « العراقي » ولكنها هي نفسها حسنة ، أو قوية من وجه آخر ، وبين الإمام « الزبيدي » هذا الوجه الآخر .

قال الحافظ « العراقي » عن كتاب « الإحياء » : « إنه من أجل كتب الإسلام ، في معرفة الحلال والحرام ، جمع فيه بين ظواهر الأحكام ، ونزع إلى سرائر دقت عن الأفهام ، لم يقتصر فيه على مجرد الفروع والمسائل ، ولم يتبحر في اللغة ، بحيث يتعذر الرجوع إلى الساحل ، بل مزج فيه علمي الظاهر والباطن ، ومزج معانيها في أحسن المواطن ، وسبك فيه نفائس : اللفظ وضبطه ، وسلك فيه من النمط الأوسط ، مقتدياً بقول « على » كرم الله وجهه : خير هذه الأمة النمط الأوسط ، يلحق بهم التالى ، ويرجع إليهم الغالى » .

وقال « الزبيدي » شارح « الإحياء » : « وأنا لا أعرف له نظيراً ، في الكتب التي صنفها الفقهاء ، الجامعون في تصانيفهم بين النقل ، والنظر ، والفكر ، والأثر » .

وقال « ابن السبكي » : « وهو من الكتب التي ينبغي للمسلمين الاعتناء بها ، وإشاعتها ، ليهتدى بها كثير من الخلق ، وقل من ينظر فيه إلا وينفط به في الحال » . وقال الشيخ « عبد القادر العيدروس » في كتاب « تعريف الأحياء بفضائل الإحياء » .

اعلم أن فضائل « الإحياء » لا تحصى ، بل كل فضيلة له باعتبار حيثياتها لا تستقصى ..

وكان « عبد الله العيدروس » رضى الله عنه ، يكاد يحفظه ، وروى عنه أنه قال : « مكثت أطلع كتاب الإحياء ، كل فصل وحرف منه ، وأعاوده ، وأتدبره ، فيظهر لى منه فى كل يوم علوم ، وأسرار عظيمة ، ومفاهيم غزيرة ، غير التى قبلها ؛ ولم يسبقه أحد ، ولم يلحقه أحد » ومن كلامه : عليكم يا إخوانى بمتابعة الكتاب والسنة : أعنى الشريعة المشروحة فى الكتب الغزالية ، خصوصاً كتاب ذكر الموت ؛ وكتاب الفقر والزهد ؛ وكتاب التوبة ؛ وكتاب رياضة النفس .

وقد أزم الشيخ « عبد الله العيدروس » أخاه قراءة الإحياء ، فقرأه عليه مدة حياته خمساً وعشرين مرة .

ونختم هذه التقديرات ، برأى أعتقد أنه فيصل الحق ، فى موضوع « كتاب الإحياء » وهو رأى فضيلة العالم الجليل الأستاذ الأكبر الشيخ « محمد الخضر حسين » شيخ الأزهر الأسبق ، وهو عالم لا يتهم بعصبية ، والآراء مجمعة على أنه من العلماء الذين حاولوا جاهدين أن يكون كل ما يصدر عنهم إنما يراد به وجه الله ، يقول :

« وإذا وجد العلماء فى كتاب الإحياء مأخذ معدودة ، فإنه من صنع بشر غير معصوم من الزلل ؛ وكفى بكتاب الإحياء ، فضلاً وسمو منزلة أن تكون درر فوائده فوق ما يتناوله العد ، وأن يظفر منه طلاب العلم ، وعشاق الفضيلة بما لا يظفرون به من كتاب غيره . »

﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ﴾ .

النصوص (١١) التى تبين منهج الغزالي

النص الأول : الطريق (١٢) :

الطريق : تقديم المجاهدة ، ومحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه المهمة على الله تعالى ، ومهما حصل ذلك ، كان الله هو المتولى لقلب عبده ، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم . وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور فى القلب ، وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة ، وتلاأت فيه حقائق الأمور الإلهية ، فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة ، وإحضار المهمة ، مع الإرادة الصادقة ، والتعطش التام ، والترصد بدوام الانتظار ، لما يفتحه الله تعالى من الرحمة ، فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر ، وقاض على صدورهم النور ، لا بالتعلم والدراسة ، والكتابة للكتب ، بل بالزهد فى الدنيا ، والتبرى من علائقها ، وتفريغ القلب من شواغلها ، والإقبال بكنه المهمة على الله ، تعالى ، فمن كان لله ، كان الله له .

وزعموا أن الطريق فى ذلك أولاً : بانقطاع علائق الدنيا بالكلية ؛ وتفريغ القلب منها ، وبقطع المهمة عن الأهل ، والمال ، والولد ، والوطن ، وعن العلم والولاية والجاه ، بل يصير قلبه إلى حالة يستوى فيها وجود كل شيء وعدمه ، ثم يخلو بنفسه فى زاوية ، مع الاقتصار على الفرائض والرواتب ، ويجلس فارغ

(١١) أخذنا هذه النصوص من طبعة « السراوى » ، وهى مرقمة بحسب صفحاتها فى هذه الطبعة .

(١٢) الإحياء ص ١٣٧٧ .

القلب ، مجموع الهمم ، ولا يفرق فكره بقراءة قرآن ، ولا بالتأمل في تفسير ، ولا يكتب حديثاً ولا غيره بل يجتهد ألا يخطر بباله شيء سوى الله تعالى . فلا يزال بعد جلوسه في الخلوة قائلاً بلسانه : الله ، الله ، على الدوام مع حضور القلب ، حتى ينتهي إلى حالة يترك تحريك اللسان ، ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه .

ثم يصبر عليه إلى أن يمحي أثره عن اللسان ، ويصادف قلبه مواظباً على الذكر .

ثم يواظب عليه إلى أن يمحي عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة ، ويبقى معنى الكلمة مجرداً في قلبه ، حاضراً فيه ، كأنه لازم له ، لا يفارقه . وله اختيار إلى أن ينتهي إلى هذا الحد ، واختيار في استدامة هذه الحالة بدفع الوسواس . وليس له اختيار في استجلاب رحمة الله تعالى ، بل هو بما فعله صار متعرضاً ، لنفحات رحمة الله .

فلا يبقى إلا الانتظار ، لما لله من الرحمة ، كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريق .

وعند ذلك ، إذا صدقت إرادته ، وصفت همته ، وحسنت مواظبته ، فلم تجاذبه شهواته ، ولم يشغله حديث النفس بعلاق الدنيا ، تلمع لوامع الحق في قلبه .

ويكون في ابتدائه : كالبرق الخاطف ، لا يثبت ، ثم يعود ، وقد يتأخر ، وإن عاد فقد يثبت ، وقد يكون مختطفاً . وإن ثبت فقد يطول ثباته ، وقد لا يطول ، وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق ، وقد يقتصر على فن واحد . ومنازل أولياء الله تعالى ، فيه لا تحصر ، كما لا يحصى تفاوت خلقهم

وأخلاقهم ، وقد رجع هذا الطريق إلى تطهير محض من جانبك ، وتصفية ، وجلاء . ثم استعداد ، وانتظار فقط .

وأما النظر وذوو الاعتبار : فلم ينكروا وجود هذا الطريق وإمكانه ، وإفضاءه إلى هذا المقصد ، على التدور ، فإنه أكثر أحوال الأنبياء ، والأولياء ولكن استوعروا هذا الطريق ، واستبطنوا ثمرته ، واستبعدوا استجماع شروطه ، وزعموا أن محو العلائق إلى ذلك الحد كالمستعذر .

• • •

النص الثاني : بيان شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف في اكتساب المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد (١٣) .

اعلم : أن من انكشف له شيء ، ولو الشيء اليسير ، بطريق الإلهام والوقوع في القلب ، من حيث لا يدري ، فقد صار عارفاً بصحة الطريق ، ومن لم يدرك بنفسه قط ، فينبغي أن يؤمن به ، فإن درجة المعرفة فيه عزيزة جداً ، ويشهد لذلك شواهد الشرع والتجارب والحكايات .

أما الشواهد فقول ، تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ فكل حكمة تظهر من القلب ، بالمواظبة على العبادة من غير تعلم ، فهي بطريق الكشف والإلهام .

وقال ﷺ : « من عمل بما علم ، ورثه الله علم ما لم يعلم ، ووقفه فيما يعمل ، حتى يستوجب الجنة ، ومن لم يعمل بما يعلم ، تاه فيما يعلم ولم يوفق فيما يعمل ، حتى يستوجب النار » .

وقال الله تعالى : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ﴾ من الإشكالات

(١٣) الإحياء : ص ١٣٨٥ .

وقال ﷺ : « اتقوا فريسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله تعالى » .
وإليه يشير قوله تعالى : ﴿ إن في ذلك آيات للمتوسمين ﴾ . وقوله تعالى

﴿ قد بينا الآيات لقوم يوقنون ﴾ .

وروى «الحسن» عن رسول الله ﷺ ، أنه قال :

« العلم علان ، فعلم باطن في القلب ، فذلك ، هو العلم النافع . إلخ » .

وسئل بعض العلماء عن العلم الباطن : ما هو ؟ فقال هو : سر من أسرار

الله تعالى ؛ يقذفه الله تعالى في قلوب أجابه ، لم يطلع عليه ملكاً ولا بشراً .

وقد قال ، ﷺ : « إن من أمتي محدثين ، ومعلمين ، ومكلمين ، وإن

عمر منهم » .

وقرأ ابن عباس ، رضي الله عنهما : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول

ولا نبي ﴾ ولا محدث : يعني الصديقين .

والمحدث هو الملمم ، والملمم : هو الذي انكشف له في باطن قلبه من جهة

الداخل ، لا من جهة المحسات الخارجة . والقرآن مصحح : بأن التقوى مفتاح

الهداية والانكشف ، وذلك علم من غير تعلم .

وقال الله تعالى : ﴿ إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات

والأرض آيات لقوم يعقلون ﴾ خصصها بم .

وقال تعالى : ﴿ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾ .

وكان «أبو يزيد» وغيره يقول : ليس العالم الذي يحفظ من كتاب ، فإذا

نسى ما حفظه صار جاهلاً ، وإنما العالم يأخذ عمله من ربه أي وقت شاء ، بلا

حفظ ولا درس ، وهذا هو العلم الرباني ، وإليه الإشارة بقوله تعالى :

﴿ وعلمناه من لدنا علماً ﴾ مع أن كل علم من لدنه ، ولكن بعضه بوسائط

والشبه : ﴿ وبرزقه من حيث لا يحسب ﴾ قيل : يعلمه علماً من غير تعلم ،
ويقطعه من غير تجربة .

وقال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ﴾ قيل

نورا يفرق به بين الحق والباطل ، ويخرج به من الشبهات .

ولذلك كان ، ﷺ ، يكثر في دعائه من سؤال النور ، فقال عليه الصلاة

والسلام :

« اللهم أعطني نوراً ، وزدني نوراً ، واجعل لي في قلبي نوراً ، وفي قري

نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وفي بصري نوراً » حتى قال : « في شعري وفي بشري ،

وفي لحمي ودمي . وعظامي » .

ول الله تعالى ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام ، فهو

أهذا الشرح ؟ فقال :

« النور إذا قذف به في القلب اتسع له الصدر وانشرح »

س : « اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل »

عنه : ما عندنا شيء ، أسره النبي ﷺ ، إينما إلا أن

فهما في كتابه . وليس هذا بالتعلم .

تعالى : ﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ﴾ إنه الفهم في كتاب

همناها سليمان ﴿ خص ما انكشف باسم الفهم

يقول : المؤمن من ينظر بنور الله ، من وراء ستر

يقذفه الله في قلوبهم ، ويخبره على ألسنتهم .

وقال بعض السلف ، ظن المؤمن كهانة .

تعليم الخلق ، فلا يسمى ذلك علماً لدنيا ، بل اللدنى : الذى يفتح فى سر القلب من غير سبب مألوف من خارج . فهذه شواهد النقل .
ولو جمع كل ما ورد فيه من الآيات والأخبار والآثار لخرج عن الحصر .
وأما مشاهدة ذلك بالتجارب ، فذلك أيضاً خارج عن الحصر . وظهر ذلك على الصحابة والتابعين ومن بعدهم .

وقال « أبو بكر الصديق » ، رضى الله عنه ، « لعائشة » ، رضى الله عنها ، عند موته إنما هما أخواك وأختاك . وكانت زوجته حاملاً ، فولدت بنتاً . فكان قد عرف قبل الولادة أنها بنت . وقال « عمر » رضى الله عنه فى أثناء خطبته : يا سارية الجبل ، إذ انكشف له أن العدو قد أشرف عليه ، فحذره لمعرفته ذلك ، ثم بلوغ صوته إليه من جملة الكرامات العظيمة .

وعن « أنس بن مالك » ، رضى الله عنه قال ؛ دخلت على « عثمان » رضى الله عنه - وكنت قد لقيت امرأة فى طريق ، فنظرت إليها شزراً ، وتأملت محاسنها - فقال عثمان رضى الله عنه ، لما دخلت : يدخل على أحدكم ، وأثر الزنى ظاهر على عينيه ! ! أما علمت أن زنى العينين النظر ؟ لتورن أو لأعزرنك ، فقلت : أوحى بعد النبى ؟ فقال لا ، ولكن بصيرة وبرهان ، وفراصة صادقة .

وعن أبى « سعيد الخراز » قال : دخلت المسجد الحرام ، فرأيت فقيراً عليه خروقتان ؛ فقلت فى نفسى :

هذا وأشباهه كل على الناس ، فنادانى وقال :

« والله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه » فاستغفرت الله فى سرى ، فنادانى

وقال :

« وهو الذى يقبل التوبة عن عباده » . ثم غاب عني ولم أره .
وقال زكريا بن داود : دخل أبو العباس بن مسروق على أبى الفضل الهاشمى ، وهو عليل ، وكان ذا عيال ، ولم يعرف له سبب يعيش به ، قال : فلما قلت فى نفسى : من أين يأكل هذا الرجل ؟ قال فصاح بى ، يا أبا العباس ، رد هذه المهمة الدنية ، فإن الله تعالى أظافاً خفية :

النص الثالث : دليل الكشف^(١٤)

والدليل القاطع على الكشف الذى لا يقدر على جحده أمران :
أحدهما : عجائب الرؤيا الصادقة ، فإنه ينكشف بها الغيب . وإذا جاز ذلك فى النوم ، فلا يستحيل أيضاً فى اليقظة . فلم يفارق النوم اليقظة إلا فى ركود الحواس ، وعدم اشتغالها بالحسرات ، فكم من مستيقظ غائص ، لا يسمع ولا يبصر ، لاشتغاله بنفسه .

الثانى : إخبار رسول الله ﷺ عن الغيب ، وأمور المستقبل ، كما اشتمل عليه القرآن . . . وإذا جاز ذلك للنبي ﷺ ، جاز لغيره : إذ النبى عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور وشغل بإصلاح الخلق فلا يستحيل أن يكون فى الوجود شخص مكاشف بالحقائق ، ولا يشتغل بإصلاح الخلق ، وهذا لا يسمى نبياً ، بل يسمى ولياً .

فمن آمن بالأنبياء ! وصدق بالرؤيا الصحيحة ، لزمه لا محالة ، أن يقرباً القلب له بابان : باب إلى الخارج ، وهو الحواس ، وباب إلى الملكوت من داخل القلب : وهو باب الإلهام والنفث فى الروح ، والوحى .

(١٤) الإحياء ص ١٣٨٩ .

فإذا أقر ، بهما جميعاً لم يمكنه أن يحصر العلوم في التعلم ، ومباشرة الأسباب المألوفة ، بل يجوز أن تكون المجاهدة سبيلاً إليه .

فهذا ما ينبه على حقيقة مذكرناه : من عجيب تردد القلب بين عالم الشهادة وعالم الملكوت .

وأما السبب في انكشاف الأمر في المنام بالمثال المحجج إلى التعبير ، وكذلك تمثل الملائكة للأنبياء والأولياء بصور مختلفة ، فذلك أيضاً من أسرار عجائب القلب ، ولا يليق ذلك إلا بعلم المكاشفة ، فلنقتصر على ما ذكرناه ، فإنه كاف للاستحاث على المجاهدة ، وطلب الكشف منها ، فقد قال بعض المكاشفين : ظهر لي الملك ، فسألني أن أملئ عليه شيئاً من ذكرى الخلق ، عن مشاهدتي من التوحيد ، وقال : ما نكتب لك عملاً ، ونحن نحب أن نصعد لك بعمل تتقرب به إلى الله عز وجل ، فقلت : ألسنا تكتبان الفرائض ؟ قالوا : بلى ، قلت : فيكفيكما ذلك .

وهذه إشارة إلى أن الكرام الكاتبين ، لا يطلعون ، على أسرار القلب ، وإنما يطلعون على الأعمال الظاهرة .

النص الرابع : الفرق بين العلم النظري والعلم الكشفي (١٥) .

فهما ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ ، رأى الأشياء فيه ، وتفجر إليه العلم منه ، فاستغنى عن الاقتباس من داخل الحواس ، فكون ذلك كتفجر الماء من عمق الأرض . ومهما أقبل على الخيالات الحاصلة من المحسات ، كان ذلك حجاباً له عن مطالعة اللوح المحفوظ . كما أن الماء إذا اجتمع في الأنهار ،

(١٥) الإحياء ص ١٣٨١ .

منع ذلك من التفجر في الأرض ، وكما أن من نظر إلى الماء الذي يحكي صورة الشمس لا يكون ناظراً إلى نفس الشمس .

فإذن للقلب بابان : باب مفتوح إلى عالم الملكوت ، وهو اللوح المحفوظ ، وعالم الملائكة . وباب مفتوح إلى الحواس الخمس ، المتمسكة بعالم الملك والشهادة وعالم الشهادة والملك أيضاً ، يحاكي عالم الملكوت نوعاً من المحاكاة . فأما انفتاح باب القلب إلى الاقتباس من الحواس ، فلا يخفى عليك . وأما انفتاح بابه الداخل إلى عالم الملكوت ، ومطالعة اللوح المحفوظ : فتعلمه علماً يقينياً : بالتأمل في عجائب الرؤيا ، وإطلاع القلب في النوم على ما سيكون في المستقبل ، أو كان في الماضي ، من غير اقتباس من جهة الحواس . وإنما يفتح ذلك الباب لمن انفرد بذكر الله تعالى .

قال ﷺ : « سبق المفردون » .

قيل : ومن هم المفردون يا رسول الله ؟

قال : المنتزهون بذكر الله تعالى ، وضع الذكر عنهم أوزارهم ، فوردوا القيامة خفافاً .

ثم قال في وصفهم إخباراً عن الله تعالى : « ثم أقبل بوجهي عليهم ، أترى من واجهته بوجهي يعلم أحد أي شيء أريد أن أعطيه ؟ »
ثم قال تعالى : « أول ما أعطيهم أن أقذف النور في قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبر عنهم » .

ومدخل هذه الأخبار هو الباب الباطن .

فإذن الفرق بين علوم الأولياء والأنبياء ، وبين علوم العلماء والحكماء هذا وهو أن علومهم تأتي من داخل القلب ، من الباب المنفتح إلى عالم الملكوت

وعلم الحجة يانى من ابواب الحواس ، المنشوحة إلى عالم الملك .

النص الخامس : الجود الإلهي (١٦) .

علوم الله - سبحانه - لا نهاية لها ، وأقصى الرتب رتبة النبي ، الذي تنكشف له الحقائق ، من غير اكتساب ولا تكلف ، بل بكشف إلهي في أسرع وقت .

وبهذه السعادة يقرب العبد من الله تعالى ، قرباً بالمعنى والحقيقة والصفة ، لا بالمكان والمسافة .

ومراقى هذه الدرجات هي : منازل السائرين إلى الله تعالى ، ولا حصر لتلك المنازل ، وإنما يعرف كل سالك منزله الذي بلغه وسلوكه ، فيعرفه ويعرف ما خلفه من المنازل . فأما ما بين يديه ، فلا يحيط بحقيقته علماً ، لكن قد يصدق به إيماناً بالغيب ، كما أنا تؤمن بالنبوة ، والنبي ، ونصدق بوجوده ، ولكن لا يعرف حقيقة النبوة إلا النبي .

وكما لا يعرف الجنين حال الطفل ، ولا الطفل حال المميز ، وما يفتح له من العلوم الضرورية ، ولا المميز ، حال العاقل ، وما اكتسبه من العلوم النظرية ، فكذلك لا يعرف العاقل ما افتتح الله على أوليائه من مزايا لطفه ورحمته : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة ، فلا ممسك لها ﴾ .

وهذه الرحمة مبذولة بحكم الجود والكرم ، من الله سبحانه وتعالى غير مضمون بها على أحد ، ولكن إنما تظهر في القلوب المتعرضة ، لنفحات رحمة الله تعالى ، كما قال ﷺ :

(١٦) الإحياء : ١٣٥٩ .

« إن لربكم في أيام دهركم لنفحات ، ألا فتعرضوا لها » .

والتعرض لها بتطهير القلب ، وتركته من الخبث والكدورة ، الحاصلة من الأخلاق المذمومة ، كما سيأتي بيانه :

وإلى هذا الجود الإشارة بقوله ﷺ :

« ينزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول هل من داع ، فأستجيب له » ؟
وبقوله عليه الصلاة والسلام ، حكاية عن ربه عز وجل :

« لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي ، وأنا إلى لقائهم أشد شوقاً » .
وبقوله تعالى في الحديث القدسي : « من تقرب إلى شبراً ، تقربت إليه ذراعاً » .

كل ذلك إشارة إلى أن أنوار العلوم لم تحتجب عن القلوب ، لبخل ، ومنع من جهة المنع ، تعالى عن البخل والمنع علواً كبيراً .

ولكن حجبت لخبث وكدورة ، وشغل من جهة القلوب ، فإن القلوب كالأواني ، فما دامت ممتلئة بالماء لا يدخلها الهواء ، فالقلوب المشغولة بغير الله ، لا تدخلها المعرفة بجلال الله تعالى . وإليه الإشارة بقوله ﷺ : « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء » .

ومن هذه الجملة يتبين أن خاصية الإنسان : العلم والحكمة .
وأشرف أنواع العلم : هو العلم بالله وصفاته وأفعاله ، فيه كمال الإنسان ، وفي كماله سعاداته وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال .

• • •

النص السادس (١٧) : شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى :

(١٧) الإحياء ص ٢٥٨١ .

اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ، ولرسوله ﷺ فرض ، وكيف يفرض ما لا وجود له ؟ وكيف يفسر الحب بالطاعة ، والطاعة تبع الحب وثمرته ، فلا بد وأن يتقدم الحب ، ثم بعد ذلك يطيع من أحب .
ويدل على إثباته الله تعالى قوله عز وجل : ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ وقوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ .

وهو دليل على إثبات الحب ، وإثبات التفاوت فيه .
وقد جعل رسول الله ﷺ ، الحب لله من شرط الإيمان في أخبار كثيرة ، إذ قال أبو رزین العقيلي : يا رسول الله ، ما الإيمان ؟ قال : « أن يكون الله ورسوله ، أحب إليك مما سواهما » .

وفي حديث آخر :
« لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » .
وفي حديث آخر :
« لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين » .
وفي رواية « ومن نفسه » .

كيف وقد قال الله تعالى : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ، فتركبوا حتى أتى الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ (١٨) .
وإنما جرى ذلك في معرض التهديد والإنكار . وقد أمر رسول الله ﷺ ، بالحببة فقال :

« أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه ، وأحبوني لحب الله إياي » .
ويروى ، أن رجلا قال يا رسول الله : إني أحبك فقال ﷺ « استعد للفقر » فقال إني أحب الله تعالى . فقال : « استعد للبلاء » .
وعن عمر رضى الله عنه ، قال : نظر النبي ﷺ ، إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تمنطق به ، فقال النبي ﷺ : « انظروا إلى هذا الرجل الذى نور الله قلبه لقد رأيته بين أبويه يغذونه بأطيب الطعام والشراب ، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون » .
وفي الخبر المشهور ، أن إبراهيم عليه السلام ، قال لملك الموت إذ جاءه لقبض روحه :

« هل رأيت خليلا يميم خليله ؟ فأوحى الله تعالى ، إليه : هل رأيت محبا بكره لقاء حبيبه ؟ فقال : يا ملك الموت الآن فاقبض » .
وهذا لا يجده إلا عبد يحب الله بكل قلبه . فإذا علم أن الموت سبب اللقاء اتزعج قلبه إليه . ولم يكن له محبوب غيره حتى يلتفت إليه .
وقد قال نبينا ﷺ في دعائه :

« اللهم ارزقني حبك ، وحب من أحبك ، وحب ما يقربني إلى حبك ، واجعل حبك أحب إلى من الماء البارد » .
وجاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، متى الساعة ؟ قال : « ما أعددت لها » فقال : ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام إلا أنى أحب الله ورسوله . فقال له رسول الله ﷺ : « المرء مع من أحب » . قال أنس : فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك .

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : « من ذاق من خالص محبة الله تعالى قضية التصوف المقصد من الضلال

شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر .

وقال الحسن : « من عرف ربه أحبه ، ومن عرف الدنيا زهد فيها ، والمؤمن لا يلهو ، حتى يغفل ، فإذا تفكر حزن » .

وقال أبو سليمان الداراني : « إن من خلق الله خلقاً ما يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه ، فكيف يشتغلون عنه بالدنيا ؟ » .

ويروى : « أن عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر ، وقد نخلت أبدانهم ، فقال : ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ فقالوا : الخوف من النار ، فقال : حق على الله أن يؤمن الخائف ، ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين ، فإذا هم أشد نحولا وتغيرا ، فقال : ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ قال : الشوق إلى الجنة ، فقال : حق على الله أن يعطيكم ما ترجون ، ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين . فإذا هم أشد نحولا وتغيرا كأن على وجوههم المرابي من النور ، فقال ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ قالوا : نحب الله عز وجل ، فقال : أنتم المقربون ، أنتم المقربون ، أنتم المقربون » .

وقال : عبد الواحد بن زيد : مررت برجل قائم في الثلج ، فقلت : أما تجد البرد فقال : من شغله حب الله ، لم يجد البرد .

وعن سري السقطي قال : تدعى الأمم يوم القيامة بأنبيائها عليهم السلام ، فيقال يا أمة موسى ، يا أمة عيسى ، يا أمة محمد ، غير المحبين لله تعالى ، فإنهم ينادون يا أولياء الله ، هلموا إلى الله سبحانه ، فتكاد قلوبهم تنخلع فرحاً .
وقال هرم بن حيان : المؤمن إذا عرف ربه عز وجل ، أحبه وإذا أحبه أقبل إليه ، وإذا وجد حلاوة الإقبال إليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ، ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفتنة ، وهم تحسره في الدنيا ، وتروحه في الآخرة .

وقال يحيى بن معاذ : عفوهُ يستغرق الذنوب فكيف رضوانه ؟ ! ورضوانه يستغرق الآمال ، فكيف حبه ؟ وجهه يدهش العقول ، فكيف وده ؟ ووده ينسى ما دونه فكيف لطفه ؟

وفي بعض الكتب : عبدى : أنا - وحقك - لك محب ، فبحق عليك كن لى محبا .

وقال يحيى بن معاذ : « مثقال خردلة من الحب أحب إلى من عبادة سبعين سنة بلا حب » .

وقال يحيى بن معاذ أيضا : « إلهى إني مقيم بفنائك ، مشغول بشنائك ، صغيراً أخذتني إليك ، وسر بلتني معرفتك ، وأمكنتني من لطفك ، ونقلتني في الأحوال ، وقلبتني في الأعمال : سترًا وتوبة ، وزهداً ، وشوقاً ، ورضاً ، وحباً . . . تسقينى من حياضك ، وتهملنى فى رياضك . . ملازماً لأمرك ، ومشغولاً بقولك ، ولما طر شاربى ، ولاح طائرى ، فكيف أنصرف اليوم عنك كبيراً ، وقد اعتدت هذا منك صغيراً ، فلى ما بقيت حولك دندنة ، وبالضراعة إليك هممة ، لأننى محب وكل محب بحبيبه مشغوف ، وعن غير حبيبه مصروف ، وقد ورد فى حب الله تعالى ، من الأخبار والآثار ، ما لا يدخل فى حصر حاصر ، وذلك أمر ظاهر ، وإنما الغموض فى تحقيق معناه . فلنشتغل به » .

الفصل السادس المنقذ من الضلال

- توطئة
- مدخل السفسطة
- أصناف الطالبين (علم الكلام ، الفلسفة ، أصناف الفلاسفة ، أقسام علومهم ، مذهب التعليم ، طرق الصوفية)
- حقيقة النبوة
- سبب نشر العلم

توطئة

الحمد لله ، الذي يفتح بحمده كل رسالة ومقالة ، والصلاة على محمد
المصطفى ، صاحب النبوة والرسالة ، وعلى آله ، وأصحابه ، المهادين من
الضلالة .

أما بعد : فقد سألتني أيها الأخ في الدين ، أن أثبت إليك غاية العلوم ،
وغائلة المذاهب أغوارها .

وأحكي لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق مع
تباين المسالك والطرق . وما استجرات عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد ،
إلى يفاع^(١) الاستبصار .

وما استفدته أولاً من علم الكلام .
وما اجتويته^(٢) ثانياً : من طرق أهل التعليم ، القاصرين لدرك الحق على
تقليد الإمام .

وما ازدريته ، ثالثاً : من طرق التفلسف .
وما ارتضيته ، آخراً : من طريقة التصوف :
وما انجلى لي في تضاعيف تفتيشي عن أقاويل الخلق ، من لباب الحق .
وما صرفني عن نشر العلم ببغداد ، مع كثرة الطلبة .
وما ردني إلى معاودتي ، « بنيسابور » بعد طول المدة .

(١) اليفاع : ما ارتفع من الأرض .

(٢) تقول : اجتويت البلد إذا كرهت المقام به وإن كنت في نعمة .

فابتدرت لإجابتك إلى مطلبك ، بعد الوقوف على صدق رغبتك ، وقلت مستعيناً بالله ، ومتوكلاً عليه ، ومستوقفاً منه ، وملتجئاً إليه :

اعلموا - أحسن الله ، تعالى ، إرشادكم ، وألان للحق قيادكم - : أن اختلاف الخلق في الأديان والملل ، ثم اختلاف الأمة في المذاهب مع كثرة الفرق وتباين الطرق . بحر عميق ، غرق فيه الأكثرون ، وما نجا منه إلا الأقلون ، وكل فريق يزعم أنه الناجي ، و﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ . وهو الذي وعدنا به سيد المرسلين ، صلوات الله وسلامه عليه ، وهو الصادق المصدوق ، حيث قال : « ستفترق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة الناجية منها واحدة ^(٣) » ؛ فقد كان ما وعد أن يكون .

ولم أزل في عنفوان شبابي - منذ راهقت البلوغ ، قبل بلوغ العشرين ، إلى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين - : أقترح لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الجذور : أتوغل في كل

(٣) روى هذا الحديث على اختلاف في متنه ، في عدة كتب ، بعدة أسانيد ولكنه لم يرو في « صحيح البخاري » ولا في « صحيح مسلم » .

وقد قال « ابن حزم » عنه ، إنه لا يصح أصلاً من جهة الإسناد . وقال « ابن الوزير » في العواصم والقواصم : « إياك أن تغتر بزيادة كلها في النار إلا واحدة : فإنها زيادة فاسدة ، ولا يبعد أن تكون من دسيس الملاحدة .

على أنه قد روى هذا الحديث بالختامة الآتية الثمان وسبعون في الجنة . وواحدة في النار » وقال المقدسي في « أحسن التقاسيم » إن الحديث على هذا الوضع ، أصح إسناداً .

ومع ذلك ، فقد أخذ مؤرخو الأديان أمثال « الشهرستاني » يعدون الفرق التي في النار ، ويتكلمون الوصول بها إلى « اثنتين وسبعين فرقة » ، مع أن تشعب الفرق واختلاف المذاهب والآراء لا ينتهي حتى تقوم الساعة .

انظر مقدمة كتاب ، « التبصير في الدين » التي كتبها « الشيخ زاهد الكوثري » رحمه الله تعالى .

مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأنفحم كل ورطة ، وأنفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع .

لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على بطائه .

ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته .

ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته .

ولا متكلماً إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته .

ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صفوته .

ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته .

ولا زنديقاً معطلاً إلا وأتحسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته ، في تعطيله وزندقته .

وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور : دأبي ، وديدي ، من أول أمري . وريعان عمري : غريزة . وفطرة من الله . وضعنا في جبلتي لا باختيارى وحيلتي ، حتى انحلت عني رابطة التقليد ، وانكسرت على العقائد الموروثة ، على قرب عهد سن الصبا ، إذ رأيت :

صبيان النصراني : لا يكون لهم نشوء إلا على التنصر ، وصبيان اليهود ، لا نشوء لهم إلا على التهود : وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام ، وسمعت الحديث المروى عن رسول الله ﷺ حيث قال :

« كل مولود يولد على الفطرة : فأبواه يهودانه ، وينصرانه ، ويمجسانه » . فتحرك باطني إلى حقيقة الفطرة الأصلية ، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأستاذين ، والتمييز بين هذه التقليدات ، وأوائلها تلقينات ، وفي تمييز

الحق منها عن الباطل اختلافات .

فقلت في نفسي : أولاً ، إنهما مطلوبي : العلم بحقائق الأمور ، فلا بد من طلب حقيقة العلم : ما هي ؟

فظهر لي : أن العلم اليقيني : هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبق معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارناً لليقين ، مقارنة أو تحدى بإظهار بطلانه - مثلاً - من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً ، لم يورث ذلك شكاً وإنكاراً ، فإني إذا علمت ، أن العشرة : أكثر من الثلاثة فلو قال لي قائل ، لا بل الثلاثة أكثر ، بدليل أتى أقرب هذه العصا ثعباناً ، وقلبها ، وشاهدت ذلك منه . لم أشك - بسببه - في معرفتي ، ولم يحصل لي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه .

فأما الشك فيما علمته ، فلا .

ثم علمت : أن كل مالا أعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ، ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه ، فليس بعلم يقيني .

مدخل السفسطة

ثم فتشت عن علومي ، فوجدت نفسي : عاطلاً من علم موصوف بهذه الصفة ، إلا في الحسيات والضروريات .

فقلت : الآن بعد حصول اليأس ، لا مطمع في اقتباس المشكلات إلا من الجليات ، وهي الحسيات ؛ والضروريات : فلا بد من إحكامها أولاً ، لأتيقن أن ثقتي بالمحسّات ، وأمانى من الغلط في الضروريات : من جنس أمانى الذي كان من قبل في التقليدات ، ومن جنس أمانى أكثر الخلق في النظريات ، أم هو أمان محقق لا غدر فيه ، ولا غائلة له .

فأقبلت بجد بليغ ، أتأمل في المحسّات والضروريات ، وأنظر : هل يمكنني أن أشكك نفسي فيها ؟ فأنتهى بي طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسّات أيضاً ، وأخذ يتسع هذا الشك فيها ، ويقول : من أين الثقة بالحواس ؟ وأقواها حاسة البصر ، وهي تنظر إلى الظل ، فتراه واقعاً غير متحرك ، وتحكم بنفي الحركة ، ثم بالتجربة والمشاهدة - بعد ساعة - تعرف : أنه متحرك ، وأنه لم يتحرك دفعة بغتة ، بل على التدريج ذرة ، ذرة ، حتى لم تكن له حالة وقوف .

وتنظر إلى الكوكب ، فتراه صغيراً في مقدار دينار ، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار .

هذا ، وأمثاله ، من المحسّات يحكم فيها حاكم الحس ، بأحكامه ، ويكذبه حاكم العقل ، ويخونه ، تكديماً لا سبيل إلى مدافعته .

فقلت : قد بطلت الثقة بالمحسّات أيضاً ، فلعله لا ثقة إلا بالعقليات ، التي هي من الأوليات ، كقولنا : العشرة أكثر من الثلاثة ، والنفي والإثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد ، والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً : موجوداً معدوماً ، واجباً محالاً .

فقالت الحواس : بيم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات ، كثفتك بالمحسّات وقد كنت واثقاً بي ، فجاء حاكم العقل فكذبني ، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي ، فلعل وراء إدراك العقل حاكماً آخر ، إذا تجلّى كذب العقل في حكمه ، كما تجلّى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه ، وعدم تجلّي ذلك الإدراك ، لا يدل على استحالته !

فتوقفت النفس في جواب ذلك قليلاً ، وأيدت إشكالها بالمنام ، وقالت : أما تراك تعتقد في النوم أموراً ، وتنخيل أحوالاً ، وتعتقد لها ثباتاً ، واستقراراً ، ولا تشك في تلك الحالة فيها ، ثم تستيقظ فتعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل ، وطائل ؟

فبم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده في يقظتك ، بحس أو عقل ، هو حق بالإضافة إلى حالتك التي أنت فيها ، لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها إلى يقظتك : كنسبة يقظتك إلى منامك ، وتكون يقظتك نوعاً بالإضافة إليها ! فإذا وردت تلك الحالة ، تيقنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها .

ولعل تلك الحالة ما تدعيه الصوفية : أنها حالتهم ، إذ يزعمون أنهم يشاهدون في أحوالهم التي لهم إذا غاصوا في أنفسهم ، وغابوا عن حواسهم ، أحوالاً لا توافق هذه المعقولات .

ولعل تلك الحالة هي الموت إذ قال رسول الله ﷺ :
« الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا » .

فلعل الحياة الدنيا نوم بالإضافة إلى الآخرة ، فإذا مات ظهرت له الأشياء على خلاف ما يشاهده الآن ، ويقال له عند ذلك :
﴿ فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ .

فلما خطرت لي هذه الخواطر ، وانقدحت في النفس ، حاولت لذلك علاجاً فلم يتيسر ، إذ لم يكن دفعه إلا بالدليل ، ولم يكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية ، فإذا لم تكن مسلمة ، لم يمكن تركيب الدليل .
فأعضل هذا الداء ، ودام قريباً من شهرين ، أنا فيها على السفسطة بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال .

حتى شفى الله تعالى ، من ذلك المرض ، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة ، موثوقاً بها على أمر ويقين . ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله ، تعالى ، في الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ، فمن ظن أن الكشف : موقوف على الأدلة المحررة ، فقد ضيق رحمة الله الواسعة ، ولما سئل رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ، عن « الشرح » ومعناه في قوله تعالى :

﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ . قال :
« هو نور ، يقذفه الله تعالى ، في القلب » .

ف قيل : وما علامته ؟

قال : « التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود » وهو الذي قال : عليه السلام ، فيه :

« إن الله تعالى : خلق الخلق في ظلمة ، ثم رش عليه من نوره .
فمن ذلك النور : ينبغي أن يطلب الكشف .

وذلك : النور ينبجس من الجود الإلهي في بعض الأحيان ، ويجب التردد
له ، كما قال عليه السلام : « إن لربكم في أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا
لها » .

والمقصود من هذه الحكايات : أن يعمل في كمال الجد في الطلب ، حتى
ينتهي إلى طلب مالا يطلب . فإن الأوليات ليست مطلوبة ، فإنها حاضرة ،
والحاضر إذا طلب نفر واختفى . ومن طلب مالا يطلب لا يتم بالتقصير في طلب
ما يطلب .

أصناف الطالبين

ولما شفى الله تعالى ، من هذا المرض بفضل ، وسعة جوده ، انحصرت
أصناف الطالبين عندى في أربع فرق :

- ١ - المتكلمون : وهم يدعون أنهم أهل الرأى ، والنظر .
- ٢ - الباطنية : وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم ، والمخصوصون
بالاقتباس من الإمام المعصوم .
- ٣ - الفلاسفة : وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان .
- ٤ - والصوفية : وهم يدعون أنهم خواص الحضرة ، وأهل المشاهدة
والمكاشفة .

فقلت في نفسى : الحق ، لا يعدو هذه الأصناف الأربعة ، فهؤلاء هم
السالكون سبل طلب الحق ، فإن شذ الحق عنهم ، فلا يبقى في درك الحق
مطمع ، إذ لا مطمع في الرجوع إلى التقليد بعد مفارقتها ، إذ من شرط المقلد ألا
يعلم أنه مقلد ، فإذا علم ذلك انكسرت زجاجة تقليده ، وهو شعب^(٤) لا
يرأب^(٥) وشعث^(٦) لا يلم بالتلفيق والتأليف ، إلا أن يذاب بالنار ، وتستأنف
له صنعة أخرى مستجدة .

فابتدرت لسلوك هذه الطرق ، واستقصاء ما عند هذه الفرق :

(٤) الشعب : من الأضداد وهو هنا بمعنى الشق .

(٥) يرأب : يصلح .

مبتدئاً بعلم الكلام ،
ومشياً بطريق الفلسفة ،
ومثلثاً بتعليم الباطنية ،
ومربعاً بطريق الصوفية .

• • •

علم الكلام : مقصوده وحاصله :

ثم إنى ابتدأت بعلم الكلام ، فحصلته ، وعقلته ، وطالعت كتب المحققين منهم .

وصنفت فيه ما أردت أن أصنف .

فصادفته علماً وفيّاً بمقصوده ، غير واف بمقصودى .

وإنما مقصوده . حفظ عقيدة أهل السنة ، وحراستها عن تشويش أهل البدعة (٧) .

(٧) نرى أن الإمام الغزالي - مع هدمه في النهاية لعلم الكلام - كان مجاملاً للمتكلمين ، ويسرنا أن نذكر هنا رأى السلف في شيء من الاستفاضة .

قال ابن عبد البر ، المتوفى سنة ٤٦٣ في كتاب « جامع بيان العلم وفضله » : نهى السلف - رحمهم الله - عن الجدل في الله ، جل ثناؤه ، في صفاته ، وأسمائه . وأما الفقه فأجمعوا على الجدل فيه ، والتناظر لأنه علم يحتاج فيه إلى رد القروع إلى الأصول للحاجة إلى ذلك ، وليس الاعتقادات كذلك ، لأن الله ، عز وجل : لا يوصف عند الجماعة - أهل السنة - إلا بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ﷺ ، أو أجمع الأمة عليه . وليس كمثل شيء فيدرك بقياس أو إنعام نظر ، وقد نبينا عن التفكير في الله ، وأمرنا بالتفكير في خلقه الدال عليه . وعن مصعب بن عبد الله الزبيري ، قال : كان مالك بن أنس يقول : الكلام في الدين أكرهه ، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه ، ويهون عنه ، نحو الكلام في رأى جهنم . والقدر ، وما أشبه ذلك ، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل .

وقال أيضاً في الكتاب نفسه : « وقال أحمد بن حنبل : لا يفلح صاحب كلام أبداً ولا تكاد نرى أحداً »

= نظر في الكلام إلا وقى قلبه دغل .

وقال مالك ، أرايت إن جاءه من هو أجدل منه ، أيدع دينه كل يوم ، لدين جديد ؟ قال أبو بكر : « تناظر القوم وتجادلوا في الفقه . ونهوا عن الجدل في الاعتقاد لأنه يؤدي إلى الانسلاخ من الدين . ألا ترى إلى مناظرة بشر . في قوله ، عز وجل : (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) حين قال : هو بذاته ، في كل مكان . فقال له خصمه : فهو في قلنسوتك ، وفي حشك ، وفي جوف حمار ، تعالى الله عما يقول . حكى ذلك وكيع رحمه الله ، وأنا والله أكره أن أحكى كلامهم . . . فمن هذا وشبهه نهى العلماء . »

من كتاب « التمهيد » للمرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق :

وقد جاء فيه أيضاً عن شيخ الإسلام الهروي المتوفى سنة ٤٨١ هـ

وأخرج عن طريق عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، قال : « خرج رسول الله ﷺ ، على أصحابه ذات يوم ، وهم يتراجعون في القدر ، فخرج مغضباً حتى وقف عليهم ، فقال : يا قوم بهذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم ، وضرهم الكتاب بعضه ببعض وإن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض . ولكن نزل القرآن ، فصدق بعضه بعضاً ، ما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه فآمنوا به . » وأخرج عن أبي هريرة قال : « خرج علينا رسول الله ﷺ ، ونحن نتنازع في القدر ، فغضب ، حتى احمر وجهه ، ثم قال : أبهذا أمرتم ، أم بهذا أرسلت إليكم ؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في الأمر . عزمتم عليكم ألا تنازعوا . »

وأخرج عن أبي الدرداء ، وأبي أمامة ، وأنس بن مالك ، ووائل بن الأسقع قالوا : « خرج إلينا رسول الله ﷺ ، ونحن نتنازع في شيء من الدين ، فغضب غضباً شديداً ، لم يغضب مثله . ثم انتهرنا ، قال : يا أمة محمد ! لا تيجوا على أنفسكم ثم قال : أبهذا أمرتكم ، أو ليس عن هذا نهيتمكم ؟ إنما هلك من كان قبلكم بهذا . ثم قال : ذروا المراء لقله خيره ، ذروا المراء ، فإن نفعه قليل ، ويبعج العدواة بين الإخوان . ذروا المراء ، فإن المراء لا تؤمن فتته . ذروا المراء ، فإن المراء يورث الشك ، ويحبط العمل ، ذروا المراء فإن المؤمن لا يمارى ، ذروا المراء ، فكفى بك إثماً : ألا تزال ممارياً ، ذروا المراء فإن الماري لا أشفع له يوم القيامة ، ذروا المراء ، فأنا زعيم بثلاثة آيات في الجنة في وسطها ، ورضها ، وأغلاها لمن ترك المراء ، وهو صادق ، ذروا المراء ، فإنه أول ما نهى الله عنه بعد عبادة الأوثان ، وشرب الخمر ، ذروا المراء فإن الشيطان قد يش من أن يعبد ، ولكن رضى بالتحريش ، وهو المراء في الدين ، ذروا المراء ، فإن بنى إسرائيل : افترقوا على إحدى وسبعين فرقة ، والنصارى على اثنتين وسبعين فرقة =

فقد ألقى الله تعالى ، إني عباده على لسان رسوله عقيدة هي : الحق ، على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم ، كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار .

ثم ألقى الشيطان في وسوس المبتدعة أمورا مخالفة للسنة ، فلهجوا بها ، وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها .

فأنشأ الله تعالى ، طائفة المتكلمين ، وحرك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب ، يكشف عن تلبيسات أهل البدعة المحدثنة على خلاف السنة الماثورة ، فنه نشأ علم الكلام وأهله (٨) .

« وإن أمتي ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلهم على الضلالة ، إلا السواد الأعظم ، قالوا : يا رسول الله ، ومن السواد الأعظم ؟ قال : من كان على ما أنا عليه وأصحابي ، ثم قال : إن الإسلام بدأ غريباً ، وسيعود غريباً فطوبى للغريباء ، قالوا : يا رسول الله ، ومن الغريباء ؟ قال : الذين يصلحون إذا فسد الناس ، ولا يمارون في دين الله اهـ .

(٨) تحدث الإمام الغزالي عن علم الكلام غير مرة في كثير من كتبه ، وتحدث في « الإحياء » عن الآراء في كونه حلالاً أم حراماً ، ثم قال .

وإلى التحريم ذهب الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أهل الحديث من السلف . قال ابن عبد الأعلى رحمه الله : سمعت الشافعي ، رضي الله عنه ، يوم ناظر حفصاً الفرد ، وكان من متكلمي المعتزلة يقول : لأن يلقى الله عز وجل ، العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بشيء من علم الكلام . ولقد سمعت من حفص كلاماً لا أقدر أن أحكيه .

وقال أيضاً : قد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننته قط ، ولأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ماعدا الشرك ، خير له من أن ينظر في الكلام .

وحكى الكرايسي : أن الشافعي رضي الله عنه سئل عن شيء من الكلام فنفض ، وقال : سل عن هذا حفصاً الفرد وأصحابه أغزاهم الله .

ولما مرض الشافعي رضي الله عنه ، دخل عليه حفص الفرد : فقال له من أنا ؟ فقال حفص الفرد : لاحفظك الله . ولأرعاك حتى تتوب مما أنت فيه .

وقال أيضاً : لو علم الناس ما في الكلام من الأهواء ، لفروا منه فرارهم من الأسد .

وقال أيضاً : إذا سمعت الرجل يقول : الاسم هو المسمى أو غير المسمى فاشهد بأنه من أهل الكلام ولادين له .

فلقد قام طائفة منهم بما ندبهم الله تعالى إليه ، فأحسنوا الذب عن السنة ، والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة ، والتغيير في وجه ما أحدث من البدعة .

ولكنهم اعتمدوا في ذلك على مقدمات تسلموها من خصومهم ،

قال الزعفراني : قال الشافعي : حكى في أصحاب الكلام ، أن يضرخوا بالجريد ويطاف بهم في القبائل والعشائر ، ويقال : هذا جزء من ترك الكتاب والسنة ، وأخذ الكلام .

وقال أحمد بن حنبل : لا يفلح صاحب الكلام أبداً ، ولا تكاد ترى أحداً نظراً في الكلام إلا وفي قلبه دغل . وبالحق في ذمه حتى هجر الحارث المحاسبي مع زهده وورعه بسبب تصنيفه كتاباً في الرد على المبتدعة ، وقال له : أأنت تحكي بدعتهم أولاً ثم ترد عليهم ! أأنت تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة ، والتفكر في تلك الشبهات ، فيدعوهوم ذلك إلى الرأي والبحث .

وقال أحمد ، رحمه الله : علماء الكلام زنادقة .

وقال مالك ، رحمه الله : رأيت إن جاءه من هو أجدل منه ، أيدع دبه كل يوم لدين جديد ؟ يعني أن أقوال المتجادلين لن تتفاوت .

وقال مالك رحمه الله أيضاً : لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء .

فقال بعض أصحابه في تأويله : إنه أراد بأهل الأهواء أهل الكلام ، على أي مذهب كانوا .

وقال أبو يوسف : من طلب العلم بالكلام ترندق .

وقال الحسن : لا يجادلوا أهل الأهواء ، ولا تجالسوهم ، ولا تسمعوا منهم . وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا .

ولا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات فيه .

وقالوا : « ما سكت عنه الصحابة - مع أنهم أعرف بالحقائق ، وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم - إلا لعلمهم بما يتولد منه من الشر ، لذلك قال النبي ﷺ :

« هلك المتنطعون ، هلك المتنطعون ، هلك المتنطعون ، أي المتعمقون في البحث والاستقصاء جدلاً . واحتجوا أيضاً بأن ذلك لو كان من الدين ، لكان ذلك أهم ما يأمر به رسول الله ﷺ ، ويعلم طريقه ، ويشتق عليه وعلى أربابه ، فقد علمهم الاستنجاة ، وندبهم إلى علم القرائض ، وأثنى عليهم ، ونهاهم عن الكلام في القدر وقال : أمسكوا عن القدر ، وعلى هذا استمر الصحابة رضي الله عنهم فالزيادة على الأستاذ طغيان وظلم ، وهم الأستاذون والقُدوة ، ونحن الأتباع ، والتلامذة .

واضطربهم إلى تسليمها : أما التقليد ، أو إجماع الأمة ، أو مجرد القبول من القرآن والأخبار .

وكان أكثر خوضهم في استخراج مناقضات الخصوم ، ومؤاخذاتهم بلوازم مسلماتهم وهذا قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً أصلاً . فلم يكن الكلام في حق كافياً . ولا لدالي الذي كنت أشكوه شافياً^(٩) .

نعم ، لما نشأت صناعة الكلام ، وكثر الخوض فيه ، وطالت المدة تشوق المتكلمون إلى محاولة الذب عن السنة بالبحث عن حقائق الأمور ، وخاضوا في البحث عن الجواهر والأعراض وأحكامها ، لكن لما لم يكن ذلك مقصود علمهم ، لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى ، فلم يحصل منه ما يمحو بالكلية ظلمات الحيرة ، في اختلافات الخلق .

ولا أبعد أن يكون قد حصل ذلك لغيري ، بل لست أشك في حصول ذلك لطائفة ، ولكن حصولاً مشوباً بالتقليد في بعض الأمور التي ليست من الأوليات .

والغرض الآن : حكاية حالي ، لا الإنكار على من استثنى به ، فإن أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء ، وكم من دواء يتنفع به مريض ويستضره آخر .

(٩) وتحدث الإمام الغزالي في الإحياء أيضاً عن منفعة علم الكلام وفائدته معبراً بهذا النص عن رأيه الخاص فقال :

وأما منفعته فقد يظن أن فائدته ، كشف الحقائق ، ومعرفة ما هي عليه وهيات ، فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف ، ولعل التخطيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف ، وهذا إذا سمعته من محدث ، أو حشوى ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا ، فاسمع هذا من خير الكلام ثم قل له بعد حقيقة الخبرة وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين وجاوز ذلك إلى التعمق في علوم آخر تناسب نوع الكلام وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه محدود .

الفلسفة :

أحاصيلها : ما يذم منها ، وما لا يذم . وما يكفر قائله ، ولا يكفر ، وما يبدع فيه ، وما لا يبدع ، وبين ما سرقوه : من كلام أهل الحق ، ومزجوه بكلامهم لترويج باطلهم في درج ذلك ، وكيفية حصول نفرة النفوس من ذلك الحق ، وكيفية استخلاص صراف الحق الخالص من الزيف والبهرج : من جملة كلامهم .

ثم إنى ابتدأت - بعد الفراغ من علم الكلام - بعلم الفلسفة ، وعلمت يقيناً : أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم ، من لا يقف على منتهى ذلك العلم ، حتى يساوى أعلمهم في أهل ذلك العلم ، ثم يزيد عليه ، ويجاوز درجته ، فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم ، من غوره وغائله ، وإذا ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساد حَقّاً .

ولم أر أحداً من علماء الإسلام صرف عنايته واهته إلى ذلك .

ولم يكن في كتب المتكلمين من كلامهم - حيث اشتغلوا بالرد عليهم - إلا كلمات معقدة مبددة ظاهرة التناقض والفساد لا يظن الاغترار بها بعقل علمي ، فضلاً عن يدعي دقائق العلوم . فعلمت : أن رد المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه : رمي في عمية .

فشمرت عن ساق الجدل في تحصيل ذلك العلم من الكتب ، بمجرد المطالعة ، من غير استعانة بأستاذ ، وأقبلت على ذلك في أوقات فراغي من التصنيف والتدريس في العلوم الشرعية ، وأنا مُمنر^(١٠) بالتدريس والإفادة

(١٠) مبتلى .

وإذا كان الإلحاد الفلسفي شذوذاً. فإن ذلك لا يثنى أنه حقيقة موجودة وأن له ممثلين باستمرار، وهم - على حد تعبير الإمام الغزالي - جحدو الصانع المدير العالم القادر وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه، وبلا صانع، ولم يزل الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان، كذلك كان، وكذلك يكون أبداً.

وديموقريطس في العهد اليوناني هو الذي حاول بكل جهده أن يقيم من الإلحاد مذهباً! وكانت فكرته هي:

الذرات: دائمة التحرك في
مر الأمر من الأزل، وسيبقى

هياً في العصور الحديثة وإن

الذرة أو تفتيتها، اللهم إلا

وكانت حججهم، من الدقة

المذاهب الإسلامية...

المتبصر! كأنه يقول:

فقت في كيفية صدور الفعل

عالم هذا النظام العجيب،

اجتمعت تلك الأجزاء؟

ت على تألفها؟ وكيف

إلى غاية الالتباس وعدم

هذا العمرى، كمثل من وضع حروف المعجم في ظروف، أو صندوق ثم جعل يحركها يوماً بعد يوم، طمعاً منه أنها تتألف من تلقاء نفسها، فيتركب منها قصيدة بليغة، أو رسالة عميقة في المنطق أو كتاب في الهندسة دقيق!!

أليس ذلك من السفه البين، فإنه لو دام على تحريكها السنين والدهور لما حصل من كده إلا على حروف!!

فكيف يتصور حدوث هذا الوجود (العالم) بما هو عليه من الإتقان والإحكام وتضافر الأجزاء، وعجيب مناسباتها بعضها لبعض. من حركات اتفافية في خلاه لانهائية له؟!!

قال أرسطو في كتاب: (سمع الكيان)

(إن كل نظام يدل على وجود العقل).

(ب) وفضلاً عن هذا فإن ما يحصل اتفاقاً لا يحصل إلا مرة واحدة. ولا يتكرر ولا يسوغ بناء حكم عقلي عليه، ولا يقبل القياس. بخلاف ما شهدت به التجربة في عالمنا من الثبوت. ولولا هذا لما أمكن إنشاء علم من العلوم الرياضية والطبيعية.

(ج) هذا، وإذا فرضنا وجود مجرد الطبيعة، ولا شيء سواها، فمن أين هذه القوة العقلية التي يبعدها كل واحد من نفسه؟!!

وهي - مع ما فيها، من العجز والقصور وكثرة الخطأ - من أظهر هذه الشواهد على وجود ما يخالف مجرد المادة في هذا العالم.

ولا سبيل من المادة إلى الأفعال العقلية، لما بينها من المغايرة الأصلية. فوجود هذه القوة يستدعي وجود جوهر يحانسها ويمثلها، ليكون أصلاً لها ومركزاً. هل يحتمل، مانشاهده من تصور المعقولات، والكشف عن الكليات وتفريق القضايا وتركيب القياسات، ليس هو في نفس الأمر، إلا اصطكاك جزء من المادة بجزء آخر!!

هل يحتمل، أن ما تضمته عقولنا، من الأبحاث الدقيقة، والمآخذ العميقة كالمطلق، والرياضيات والإلهيات، وما فتئت به القلوب، من الشعر الرائق والمطرب من الألحان، وسحر البيان، أصله من تلك الأجزاء؟!!

وكانت النار من اصطكاك الحجر وذلك في خصوص النار إذ ليس بين مادة النار ومادة الحجر فرق كبير.

(د) إن المادة غير قادرة على أن تكون علة نفسها فمن باب أخرى وأولى أنها لا تكون علة لما هو أعلى منها مكاناً وأهم شأنًا في درجة الوجود، وإلا كان الأخس أصلاً لما هو أرفع، وهذا ما تبعده وتأنفه

بنفسه ، وبلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، كذلك كان ، وكذلك يكون أبداً . وهؤلاء هم الزنادقة (١٣) .

والصنف الثاني : الطبيعيون : وهم قوم أكثروا بحثهم : عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات .

وأكثروا الخوض في علم تشريح أعضاء الحيوانات .

فأروا فيها من عجائب صنع الله تعالى ، وبدائع حكمته ، ما اضطروا معه إلى الاعتراف بفاطر حكيم مطلع على غايات الأمور ومقاصدها ، ولا يطالع التشريح وعجائب منافع الأعضاء مطالع ، إلا ويحصل له هذا العلم الضروري

الفطرة السليمة .

(١٣) يقول سطلانا أيضا :

« من تبصر في عواقب الأمور تحقق ، أن مثل هذا الرأي لا يفضى في كل زمان إلا إلى إنكار الحقائق وهدم دعائم العقل كيف لا ومن قال : إنه ليس في الوجود إلا الحس ولا شيء سواه ، كيف يمكن له أن يحكم بالوجود ؟ »

وقد أصاب المحقق ناصر الدين الطوسي في شرح المحصل حيث قال نقلا عن أرسطو وسيره : الحس إدراك فقط .

والحكم تأليف بين مدركات بالحس ، أو بغير الحس .

وليس من شأن الحس التأليف الحكيم ، لأنه إدراك فقط فلا شيء من الأحكام محس أصلا ، فإذا كل ماهو محس لا يمكن أن يوصف من حيث كونه محساً . بكونه يقينياً أو غير يقيني أوحقاً أو باطلاً أو صواباً أو غلطاً فإن جميع هذه الأوصاف من لواحق الأحكام . وهو واضح لمن تحقق ماهية الحس وأنه مقصور بالضرورة على خصوص المدرك لا يتعداه .

على أن المدرك والمدرك لا زالا يتغيران فكيف يحكم به على غيره ، وكيف نبني عليه حكماً عقلياً ، وكيف نبني على حقيقته إذ كل ذلك موقوف على ماهو غير الحس ، فإني إذا تصورت مثلا أني قد سمعت الصوت فقد تجاوزت حد الإدراك الحسي ، وأدخلت فيه حكماً عقلياً ليس له بالحس تعلق .

فكل فلسفة مقصورة على مجرد الحس لا يكون منها حينئذ إلا الشك في الحقائق ، كما وقع في اليونان في أثناء القرن الرابع قبل الميلاد .

بكمال تدبير الباني لبنية الحيوان ، لا سيما بنية الإنسان .

إلا أن هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة - ظهر عندهم - لاعتدال المزاج - تأثير عظيم في قوام قوى الحيوان به . فظنوا أن القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه أيضاً ، وأنها تبطل ببطلان مزاجه فينعدم . ثم إذا انعدم ، فلا يعقل إعادة المعدوم ، كما زعموا . فذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود ، فجحودوا الآخرة ، وأنكروا الجنة ، والنار ، والحشر ، والنشر ، والقيامة ، والحساب ، فلم يبق عندهم للطاعة ثواب ، ولا للمعصية عقاب ، فأنحل عنهم اللجام ، وانهمكوا في الشهوات انتهك الأنعام .

وهؤلاء أيضاً زنادقة ، لأن أصل الإيمان هو : الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر ، وإن آمنوا بالله وصفاته .

الصنف الثالث : الإلهيون : وهم المتأخرون منهم مثل « سقراط » (١٤) وهو

(١٤) سقراط من أشهر فلاسفة الإغريق ومؤسس فلسفة الأخلاق وإلى مدارسه الأخلاقية التي شادها تلاميذه من بعده ترجع أكثر الفكر الأخلاقية التي عرفتها فلسفات العصور حتى عصرنا هذا . عاش في القرن الخامس قبل الميلاد وجاهد في سبيل الحق حتى لقي مصرعه على أيدي حاسديه من أنصار الباطل . فكان مصرعه مأساة دامية لا تزال حتى اليوم تثير أشجان أنصار الحق في كل زمان ومكان وتوحى إلى أنفسهم بأسمى مثل البطولة والشجاعة والثبات على الحق . ومنهجه في البحث مشهور . والحديث التالي يعطينا صورة منه وقد جرى بينه وبين أرسطو ديموس الذي كان يتنكر الإله ، ومنه نستبين أيضاً بعض أفكاره .

قال سقراط : أفي الناس من يعجبك براعته في الصنائع ؟ فقال :

نعم . وسمى من الشعراء والمصورين ممن كان يعدده أبرع من غيره .

فقال سقراط : أيها عندك أرفع شأناً ؟ أم يصنع التماثيل العارية عن الحركة والعقل ؟ أم من يصور الأشباح الحية المتحركة ؟

فقال : من يصنع الصور الحية . اللهم إلا إذا كانت تلك الصور من عمل المصادفة والاتفاق . لا من عمل العقل . قال سقراط : إذا فرضنا أشياء لا يظهر المقصود منها ، وأشياء أخرى بينة القصد والمنفعة ، فما

أستاذ « أفلاطون » و « أفلاطون » أستاذ « أرسطاطاليس » .

و « أرسطاطاليس » هو الذي رتب لهم المنطق ، وهذب لهم العلوم ، وحرر لهم ما لم يكن محرراً من قبل ، وأنضح لهم ما كان فجاً من علومهم . وهم يحملتهم ، ردوا على الصنفين الأولين من الدهرية ، والطبيعية ، وأوردوا في الكشف عن فضائهم ما أغنوا به غيرهم ، وكفى الله المؤمنين القتال بتقاتلهم .

ثم رد أرسطاطاليس على أفلاطون^(١٥) وسقراط ومن كان قبله من الإلهيين ، ردّاً لم يقصر فيه حتى تبرأ عن جميعهم ، إلا أنه استبقى أيضاً من

قولك في تلك الأشياء ؟ ما هي التي عندك من فعل العقل ، وما هي التي عندك من فعل الاتفاق ؟ قال : لاشك أن مظاهر قصده ومنفعته من فعل العقل .

قال سقراط : أولست ترى أن صانع الإنسان في أول نشأته جعل له آلات الحس لما في تلك الآلات من المنفعة الظاهرة ؟ فأعطاه البصر ، والأذنين ؛ ليصير ويسمع ما يكون لعيشه صادقاً . وما فائدة الروائح لو لم تكن لنا الحياشيم وكيف ندرك المطاعم ونفرق بين المر والحلو والمر ، لو لم يكن لسان ندوق به . إن بصرنا معرض للآفات : أولست ترى كيف اعتنت القدرة الإلهية بذلك ؟ فجعلت الأجفان كالأبواب لمنع ما يصبب البصر ، وجعلت الأهداب كالمناخل لتقيها من اضطراب الرياح ، وما قولك في آلة السمع ، وهي تقبل جميع الأصوات ولا تختلئ أبداً ؟ أما رأيت الحيوانات ، كيف ربت أسنانها للمقدمة ؟ وأعدت لقطع الأشياء فتلقبها إلى الاضرار فتدقها دقا ؟

فإذا تأملت في ترتيب ذلك أيمكنك أن تشك : هل هي من فعل الاتفاق أو من فعل العقل ؟ قال أرسطو ديموس : نعم إذا تفكرنا في ذلك ، لانشك في أنها من فعل صانع حكيم كثير العناية بمصنوعاته من مخطوط « ستلانا » .

(١٥) فيلسوف يوناني ولد سنة ٤٢٩ . وتوفي سنة ٣٤٧ ق م ويطلق عليه (أفلاطون الإلهي) ذلك أن الروحانية : تمحل من فلسفته المركز الرئيسي .

ونظريته في (المثل) وعلى رأسها (مثال الخير) مشهورة وقد ترجم من كتبه إلى العربية حديثاً بعض المحاورات وكتاب (الجمهورية) .

ردائل كفرهم وبدعتهم ، بقايا لم يوفق للتزوع عنها ، فوجب تكفيرهم ، وتكفير شيعتهم من المتفلسفة الإسلاميين كابن سينا و الفارابي وأمثالهما .

على أنه لم يقم بنقل علم : أرسطاطاليس^(١٦) أحد من متفلسفة الإسلاميين كقيام هذين الرجلين ، وما نقله غيرهما ليس يخلو عن تحبيط وتخليط ، يتشوش فيه قلب المطالع ، حتى لا يفهم : وما لا يفهم : كيف يرد أو يقبل ؟ ومجموع ما صح عندنا من فلسفة أرسطاطاليس ، بحسب نقل هذين الرجلين ، ينحصر في ثلاثة أقسام :

١ - قسم يجب التكفير به .

٢ - وقسم يجب التبديع به .

٣ - وقسم لا يجب إنكاره أصلاً ، فلنفضله .

أقسام علومهم :

اعلم : أن علومهم - بالنسبة إلى الغرض الذي نطلبه ستة أقسام : رياضية ، ومنطقية ، وطبيعية ، وإلهية ، وسياسية ، وخلقية .

١ - أما الرياضية : فتتعلق بعلم الحساب ، والهندسة ، وعلم هيئة العالم ، وليس يتعلق شيء منها بالأمور الدينية نفيّاً وإثباتاً ، بل هي أمور برهانية ، لا

(١٦) أرسطو (٣٨٤ - ٢٢٢ ق م) هو أعلم فلاسفة اليونان الأقدمين ويعدّه بعض الناس أعظم شخصية فلسفية وجدت حتى الآن وهو مقدوني الأصل : رحل إلى أثينا وتلمذ على أفلاطون ولازمه ويسمى أتباعه (بالمشائين) ويلقب هوبه « المعلم الأول » لأنه أول من رتب المنطق ونظمه وكونه علماً له حدوده وأهدافه وقد طلب إليه الملك فيليبس المقدوني تعليم ابنه الإسكندر فأخذ يعلمه ثلاث سنوات وقد ترجم إلى العربية حديثاً من كتبه كتاب « الأخلاق » و « الكون والفساد » و « السياسة » ترجمها الأستاذ أحمد لطفى السيد وترجم له الأستاذ الاهواني كتاب النفس .

سبيل إلى مجادلتها بعد فهمها ، ومعرفتها .
وقد تولدت منها آفتان :

الآفة الأولى : أن من ينظر فيها يتعجب من دقائقها ، ومن ظهور براهينها : فيحسن بسبب اعتقاده في الفلاسفة ، فيحسب أن جميع علومهم في الوضوح ، وفي وثاقة البرهان ، كذا العلم . ثم يكون قد سمع من كفرهم ، وتعطيلهم ، وتناوهم بالشرع ، ما تداولته الألسنة ، فيكفر بالتقليد الخف ، ويقول ، لو كان الدين حقاً ، لما اختلف على هؤلاء مع تدقيقهم في هذا العلم ! فإذا عرف بالتسامع ، كفرهم وجحدهم ، فيستدل على أن الحق : هو الجحد والإنكار للدين . وكـم رأيت من يضل عن الحق بهذا القدر ولا مستند له سواه !

وإذا قيل له : الحاذق في صناعة واحدة ليس يلزم أن يكون حاذقاً في كل صناعة ، فلا يلزم أن يكون الحاذق في الفقه ، والكلام ، حاذقاً في الطب ، ولا أن يكون الجاهل بالعقليات جاهلاً بالنحو ، بل لكل صناعة أهل بلغوا فيها رتبة البراعة والسبق . وإن كان الحق والجهل قد يلزمهم في غيرها ، فكلام الأوائل في الرياضيات برهاني ، وفي الإلهيات تخميني ، لا يعرف ذلك إلا من جربه وخاض فيه ، فهذا إذا قرر على هذا الذي اتخذ بالتقليد لم يقع منه موقع القبول ، بل تحمله غلبة الهوى وشقوة البطالة ، وحب التكايس على أن يصـر على تحسين الظن بهم في العلوم كلها .

فهذه آفة عظيمة ، لأجلها يجب زجر كل من يخوض في تلك العلوم (١٧) ،

(١٧) إن الرياضيات الآن لم تعد ثابتة للفلسفة ، أو علماً من علومها ، وإنما هي مادة مستقلة لا تخفى عنها للمجتمع الإنساني ، وهي حينئذ تدرس لا يفكر المدارس لما في أمور الدين ولا في مبادئه ولعل وضما

فإنها وإن لم تتعلق بأمر الدين ، ولكن لما كانت من مبادئ علومهم ، يسرى إليه شرهم وشؤمهم فقل من يخوض فيها ، إلا وينخلع من الدين ، وينحل عن رأسه لجام التقوى .

الآفة الثانية : نشأت من صديق للإسلام جاهل ، ظن أن الدين ينبغي أن ينصر بإنكار كل علم منسوب إليهم ، فأنكر جميع علومهم وادعى جهلهم فيها ، حتى أنكر قولهم في الكسوف ، والخسوف ، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع ، فلما قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع ، لم يشك في برهانه ، لكن اعتقد أن الإسلام مبني على الجهل ، وإنكار البرهان القاطع ، فازداد للفلسفة حباً ، وللإسلام بغضاً .

ولقد عظمت على الدين جناية من ظن أن الإسلام ينصر بإنكار هذه العلوم ، وليس في الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفي ، والإنبات ، ولا في هذه العلوم تعرض للأموور الدينية . وقوله عليه السلام :

« إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى ، لا ينخسفان لموت أحد ، ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله تعالى ، وإلى الصلاة » .
ليس في هذا إنكار علم الحساب ، المعروف بمسير الشمس ، والقمر ، واجتماعها ، أو مقابلتها على وجه الخصوص .

أما قوله ، عليه السلام : « لكن الله إذا تجلى لشيء خضع له » فليس توجد هذه الزيادة في الصحاح أصلاً .

فهذا حكم الرياضيات وآفتها .

في أيام الإمام الغزالي كان غير وضعا الآن وما من شك في أن الإمام الغزالي - وهو واسع الأفق مستير - لو عاش بيتا الآن لما قال ذلك .

٢- وأما المنطقيات : فلا يتعلق شيء منها بالدين ، نفيًا وإثباتًا ، بل هو النظر في طرق الأدلة والمقاييس ، وشروط مقدمات البرهان ، وكيفية تركيبها .
وشروط الحد الصحيح ، وكيفية ترتيبه .
وأن العلم : إما تصور ، وسبيل معرفته الحد ، وإما تصديق وسبيل معرفته البرهان .

وليس في هذا ما ينبغي أن ينكر ، بل هو من جنس ما ذكره المتكلمون ،
الاستطلاحات ، وبزيادة

ب) ، لزم أن بعض
ض الحيوان إنسان ،
ثية . وأى تعلق لهذا
إنكاره - عند أهل
ي يزعم أنه موقوف

ل للبرهان شروطاً يعلم
للمقاصد الدينية ، ما
ل .

واضحاً فيظن أن ما
استعجل بالكفر قبل

٣- وأما علم الطبيعيات فهو بحث عن عالم السموات ، وكواكبها ، ونحوها من الأجسام المفردة : كالماء ، والهواء ، والتراب ، والنار ، ومن الأجسام المركبة : كالحیوان ، والنبات والمعادن ، وعن أسباب تغيرها ، واستحالتها ، وامتزاجها ، وذلك يضاهي بحث الطب عن جسم الإنسان ، وأعضائه الرئيسية والخادمة ، وأسباب استحالة مزاجه ، وكما أنه ليس من شرط الدين إنكار علم الطب ، فليس من شرطه أيضاً إنكار ذلك العلم ، إلا في مسائل معينة ، ذكرناها في كتاب : « تهافت الفلاسفة » وما عداها مما يجب المخالفة فيها ، فعند التأمل يتبين أنها مندرجة تحتها .

وأصل جملتها : أن تعلم أن الطبيعة مسخرة لله تعالى ، لا تعمل بنفسها ، بل هي مستعملة من جهة فاطرها ، والشمس ، والقمر ، والنجوم ، والطبائع مسخرات بأمره ، لا فعل لشيء منها بذاته عن ذاته .

٤- وأما الإلهيات : ففيها أكثر أغاليطهم فما قدرُوا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه في المنطق ، ولذلك كثرت الاختلاف بينهم فيها .
ولقد قرب مذهب أرسطاطاليس فيها من مذاهب الإسلاميين ، على ما نقله الفارابي (١٨) .

(١٨) الفارابي : (٢٦٠ - ٣٢٩) ولد في فاراب . وهو إقليم فارسي في تخوم بلاد الترك رحل إلى بغداد ثم استقر به المقام في كتف سيف الدولة يعيش عيشة الزهد ، موجهاً كل همه إلى الدراسة والتأمل . يقول ابن خلكان : وكان مدة مقامه بدمشق لا يكون - غالباً - إلا عند مجتمع ماء ، أو مشبك رياض ، ويؤلف هناك كتبه ، ويتناوبه المشتغلون عليه .

وكان الفارابي يحسن الموسيقى تلحيناً وتوقيماً ، حتى ليحكى ابن خلكان أن الآلة الموسيقية : القانون إنما هي من وضعه ، وقد أطلق عليه المسلمون المعلم الثاني ، كما أطلق على أرسطو : المعلم الأول .
وتقدير المؤرخين متفاوت ، فمنهم من يقدمه على ابن سينا ومنهم من يقدم ابن سينا عليه .

قضية التصوف المنقذ من الضلال

ولكن مجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلاً يجب تكفيرهم في ثلاثة منها ، وتبديعهم في سبعة عشرة .

ولإبطال مذهبهم في هذه المسائل العشرين ، صنفنا كتاب « التهاوت » .
أما المسائل الثلاث ، فقد خالفوا فيها كافة المسلمين ، وذلك في قولهم :

١ - إن الأجساد لا تحشر (٢٠) ، وإنما المثاب ، والمعاقب هي الأرواح المجردة ، والمثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية .

(١٩) ابن سينا : (٣٧٠ - ٤٢٨ هـ) كان فيلسوفاً عظيماً من فلاسفة الإسلام كما كان له في الطب قدم راسخة وفهم دقيق وقد ألف فيه كتاب : القانون الذي كان يدرس في معاهد أوروبا عدة قرون . أما كتبه الفلسفية فكبيرة ومتداولة ومن أشهرها كتاب : الإشارات وكتاب الشفاء وكتاب النجاة . (٢٠) لعل من الإنصاف ، الذي يدعو إليه دائماً الإمام الغزالي ، أن نذكر رأي ابن رشد في المسائل الثلاث التي كثر بها الإمام الغزالي الفلاسفة .

نذكر رأي ابن رشد ، مختصراً عن كتابي : فصل المقال : والكشف عن مناهج الأدلة يقول ابن رشد :

والمعاد : مما اتفقت على وجوده الشرائع ، وقامت عليه البراهين عند العلماء وإنما اختلفت الشرائع في صفة وجوده ، ولم تختلف في الحقيقة في وجوده ، وإنما اختلفت في الشهادات التي مثلت بها للجمهور تلك الحال الغائبة : وذلك أن من الشرائع من جعله روحانياً ، أعني للنفوس ، ومنها من جعله للأجسام والنفوس معاً ، والاتفاق في هذه المسألة مبني على اتفاق الوحي في ذلك ، واتفاق قيام البراهين الضرورية عند الجميع في ذلك . أعني أنه قد اتفق الكل على أن للإنسان سعادتين ؟ أخروية ودينية ، وابتني ذلك عند الجميع على أصول يعترف بها عند الكل .

ثم أخذ ابن رشد في بيان هذه الأصول ، من العقل والنقل ، ثم قال : فالشرائع كلها كما قلنا : متفقة على أن للنفس من بعد الموت أحوالاً من السعادة أو الشقاء ولكنها مختلفة في تمثيل هذه الأحوال ، وتفهم وجودها للناس ويشبه أن يكون التمثيل الذي في شريعتنا هذه أم إلهاماً لأكثر الناس ، وأكثر تحريكاً لنفوسهم إلى ما هنالك . والأكثر هم المقصود الأول بالشرائع .

ولقد صدقوا في إثبات الروحانية ، فإنها كائنة أيضاً ، ولكن كذبوا في إنكار الجسمانية ، وكفروا بالشرعية فيما نطقوا به .

وأما التمثيل الروحاني فيشبه أن يكون أقل تحريكاً لنفوس الجمهور إلى ما هنالك والجمهور أقل رغبة فيه وخوفاً له ، منهم في التمثيل الجسماني . ولذلك يشبه أن يكون التمثيل الجسماني : أشد تحريكاً إلى ما هنالك من الروحاني ، والروحاني أشد قبولاً عند المتكلمين المجادلين من الناس ، وهم الأقل .

ولهذا المعنى : نجد أهل الإسلام - في فهم التمثيل الذي جاء في مثلنا في أحوال المعاد - ثلاث فرق : فرقة رأت أن ذلك الوجود هو بعينه هذا الوجود الذي ههنا من النعم واللذة . أعني أنهم رأوا أنه واحد بالجنس : وأنه إنما يختلف الوجودان بالدوام والانقطاع ، أعني أن ذلك دائم وهذا منقطع . وطائفة رأت أن الوجود متباين ، وهذه انقسمت قسمين : طائفة رأت أن الموجود المثل بهذه المحسات : هو روحاني ، وأنه إنما مثل به إرادة البيان ولغزلاء حجج كثيرة من الشريعة مشهورة فلا معنى لتعديدها .

وطائفة رأت أنه جسماني ، لكن اعتقدت أن تلك الجسمانية - الموجودة هنالك - مخالفة لهذه الجسمانية لكون هذه بالية وتلك باقية ولهذا أيضاً حجج من الشرع .

ويشبه أن ابن عباس يكون ممن يرى هذا الرأي لأنه روى عنه أنه قال :

ليس في الدنيا من الآخرة إلا أسماء . ويشبه أن يكون هذا الرأي هو أليق بالخواص وذلك أن إمكان هذا الرأي : ينشئ على أمور ليس فيها منازعة عند الجميع أحدها : أن النفس باقية . والثاني : أنه يلحق عن عودة النفس إلى أجسام آخر المحال الذي يلحق عن عودة تلك الأجسام بعينها .

وذلك : أنه يظهر أن مواد الأجسام التي ههنا توجد متعاقبة ، ومتقلة من جسم إلى جسم ، أعني : أن المادة الواحدة بعينها توجد لأشخاص كثيرة ، وفي أوقات مختلفة ، وأمثال هذه الأجسام ليس يمكن أن توجد كلها بالفعل ، لأن مادتها هي واحدة .

مثال ذلك أن إنساناً مات ، واستحال جسمه إلى التراب ، واستحال ذلك التراب إلى نبات ، فاغتنى إنسان آخر من ذلك النبات ، فكان منه متى حين تولد منه إنسان آخر .

وأما إذا فرضت أجسام آخر ، فليس تلحق هذه الحال .

والحق في هذه المسألة أن فرض كل إنسان فيها هو ما أدى إليه نظره فيها . بعد أن يكون نظراً لا بفضي إلى إبطال الأصل جملة ، وهو إنكار الوجود جملة فإن هذا النحو من الاعتقاد ، يوجب تكفير صاحبه لكون العلم بوجود هذه الحال للإنسان معلوماً للناس ، بالشرائع والعقول .

٢- ومن ذلك قولهم : إن الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات (٢١).

وهذا أيضاً كفر صريح ، بل الحق أنه : « لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ، ولا في الأرض » .

٣- ومن ذلك قولهم بقدم العالم وأزليته (٢٢) فلم يذهب أحد من المسلمين إلى شيء من هذه المسائل .

(٢١) يذكر ابن رشد عن الإمام الغزالي قوله : إن الفلاسفة : يرون أنه سبحانه ، لا يعلم الجزئيات ثم يقول : « ليس الأمر كما توهم عليهم ، بل يرون (الفلاسفة) أنه لا يعلم الجزئيات بالعلم المحدث الذي من شرطه الحدوث بمحدثها إذ كان (علم الله) علة لها ، لا معلولاً عنها ، كالحال في العلم المحدث .

وهذا هو غاية التنزيه الذي يجب أن يعترف به ، فإنه قد اضطرب البرهان إلى أنه عالم بالأمور ، لأن صدورها عنه إنما هو من جهة أنه عالم ، لا من جهة أنه موجود فقط أو موجود بصفة كذا ، بل من جهة أنه عالم ، كما قال تعالى : (ألا يعلم من خلق) وهو اللطيف الخبير) وقد اضطرب البرهان إلى أنه غير عالم بها يعلم هو على صفة العلم المحدث ، فواجب أن يكون هنالك للموجودات علم آخر ، لا كيف ، وهو علم القديم سبحانه ، وكيف يمكن أن يتصور أن المشائين من الحكماء ، يرون أن العلم القديم لا يحيط بالجزئيات وهم يرون أنه سبب الإنذارات في المنامات ، والوحي ، وغير ذلك من أنواع الإلهامات .

(٢٢) يقول ابن رشد : وأما مسألة قدم العالم . أو حدوثه فإن الاختلاف فيها عدى - بين المتكلمين من الأشعرية ، وبين الحكماء المتقدمين ، يكاد يكون راجعاً للاختلاف في التسمية ، وبخاصة عند بعض القدماء ، وذلك أنهم اتفقوا على أن ههنا ثلاثة أصناف من الموجودات ، طرفان ، وواسطة بين الطرفين فاتفقوا في تسمية الطرفين ، واختلفوا في الواسطة .

فأما الطرف الواحد ، فهو موجود وجد من شيء غيره وعن شيء ، أعني عن سبب فاعل ، ومن مادة ، والزمان متقدم عليه - أعني على وجوده - وهذه هي حال الأجسام التي يدرك تكوينها بالحوس ، مثل تكون : الماء ، والهواء ، والأرض والحيوان ، والنبات ، وغير ذلك . فهذا الصنف من الموجودات اتفق الجميع من القدماء ، والأشعرية ، على تسميتها محدثة .

وأما الطرف المقابل لهذا فهو موجود لم يكن من شيء ، ولا عن شيء ، ولا تقدمه زمان . وهذا أيضاً اتفق الجميع من الفرقين على تسميته قديماً . وهذا الموجود مدرك بالبرهان ، وهو الله تبارك وتعالى ، الذي هو فاعل الكل ، وموجده والحافظ له ، سبحانه وتعالى قدره .

وأما الصنف من الموجود ، الذي بين هذين الطرفين ، فهو موجود لم يكن من شيء ، ولا تقدمه

زمان ، ولكنه موجود عن شيء - أعني عن فاعل - وهذا هو العالم بأسره . والكل منهم متفق على وجود هذه الصفات الثلاث للعالم ، فإن المتكلمين يسمون أن الزمان غير متقدم عليه ، أو يلزمهم ذلك ، إذ الزمان عندهم شيء مقارن للحركات والأجسام ، وهم أيضاً متفقون مع القدماء على أن الزمان المستقبل غير متناه ، وكذلك الوجود المستقبل ، وإنما يختلفون في الزمان الماضي ، والوجود الماضي :

فالتكلمون يرون أنه متناه ، وهذا هو مذهب أفلاطون وشيعته . وأرسطو وفرقه يرون أنه : غير متناه ، كالحال في المستقبل . فهذا الموجود الآخر ، الأمر فيه بين أنه قد أخذ شيئاً من الوجود الكائن المحدث ، ومن الوجود القديم . فمن غلب عليه ما فيه من شبه القديم ، على ما فيه من شبه المحدث ، سماه قديماً ، ومن غلب عليه ما فيه من شبه المحدث ، سماه محدثاً . وهو في الحقيقة ليس محدثاً حقيقياً ، ولا قديماً حقيقياً ، فإن المحدث الحقيقي فاسد ضرورة القديم الحقيقي ليس له علة .

ومنهم من سماه محدثاً أزلياً ، وهو أفلاطون وشيعته ، لكون الزمان متناهياً عندهم من الماضي . فالمذاهب في العالم ليست تتباعد كل التباعد حتى يكفر بعضها أو لا يكفر ، فإن الآراء التي شأنها هذا ، يجب أن تكون في الغاية من التباعد ، أعني أن تكون متقابلة كما ظن المتكلمون في هذه المسألة ، أعني أن اسم القديم والمحدث في العالم بأسره هو من المتقابلة ، وقد تبين من قولنا : إن الأمر ليس كذلك . وهذا كله . مع أن هذه الآراء في العالم ليست على ظاهر الشرع ، فإن ظاهر الشرع إذا تصفح ظهر من الآيات الواردة ، في الإنشاء عن إيجاد العالم أن صورته محدثة بالحقيقة ، وأن نفس الوجود والزمان مستمر من الطرفين - أعني غير منقطع - وذلك أن قوله تعالى : (وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ، وكان عرشه على الماء) يقتضي بظاهره أن وجوداً قبل هذا الوجود - وهو العرش - والماء - وزماناً قبل هذا الزمان ، أعني المقترن بصورة هذا الوجود ، الذي هو عدد حركات الفلك وقوله تعالى : (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) يقتضي بظاهره أن وجوداً ثانياً بعد هذا الوجود ، وقوله تعالى : (ثم استوى إلى السماء وهي دخان) يقتضي بظاهره أن السموات والأرض خلقت من شيء .

والمتكلمون : ليسوا في قولهم أيضاً في العالم ، على ظاهر الشرع ، بل تناولوا فإنه ليس في الشرع أن الله كان موجوداً مع العدم المحض ، ولا يوجد هذا في نص أبداً ، فكيف يتصور في تأويل المتكلمين في هذه الآيات ، أن الإجماع انعقد عليه ؟ والظاهر الذي قلناه عن الشرع في وجود العالم ، قد قال به فرقة من الحكماء ويشبه أن يكون المختلفون في هذه المسائل العويصة إما مصيبين مأجورين . وإما معطلين معذورين فإن التصديق بالشئ من قبل الدليل القائم في النفس ، هو شيء اضطراري ، لا اختياري ، أعني أنه ليس لنا أن نصدق ، أو لا نصدق كما لنا أن نقوم أولاً نقوم ، وإذا كان من شرط التكليف الاختيار ،

٤ - وأما ما وراء ذلك من نفهم الصفات ، وقولهم : إنه عليم بالذات لا يعلم زائد على الذات ، وما يحرى مجراه ، فذهبيهم فيها : قريب من مذهب المعتزلة ، ولا يجب تكفير المعتزلة بمثل ذلك .

وقد ذكرنا في كتاب : « فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة » ما يتبين فيه فساد رأى من يسارع إلى التكفير في كل ما يخالف مذهبه .

٥ - وأما السياسات : فمجموع كلامهم فيها يرجع إلى الحكم المصلحية ، المتعلقة بالأمور الدنيوية ، والإيالة السلطانية . وإنما أخذوها من كتب الله المترلة على الأنبياء ، ومن الحكم الماثورة عن سلف الأنبياء .

٦ - وأما الخلقية فجميع كلامهم فيها يرجع إلى حصر صفات النفس وأخلاقها ، وذكر أجناسها ، وأنواعها ، وكيفية معالجتها . ومجاهدتها . وإنما أخذوها من كلام الصوفية ، وهم المتأهلون ، المثابرون على ذكر الله ، تعالى ، وعلى مخالفة الهوى ، وسلوك الطريق إلى الله تعالى ، بالإعراض عن ملاذ الدنيا . وقد انكشف لهم في مجاهدتهم من أخلاق النفس وعيوبها ، وآفات أعمالها ما صرحوا بها ، فأخذها الفلاسفة ، ومزجوها بكلامهم ، توسلاً بالتجمل بها إلى ترويج باطلهم .

ولقد كان في عصرهم ، بل في كل عصر ، جماعة من المتألهين ، لا يخلى

فالمصدق بالخطأ من قبل شبهة عرضت له ، إذا كان من أهل العلم معذور ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام :

« إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر » .

وأى حاكم أعظم من الذى يحكم على الوجود بأنه كذا ، أو ليس بكذا ؟ وهؤلاء الحكماء هم العلماء ، تخصهم الله بالتأويل .

الله ، سبحانه العالم عنهم ، فإنهم أوتاد الأرض ، ببركاتهم تنزل الرحمة إلى أهل الأرض ، كما ورد في الخبر حيث قال عليه السلام : « بهم تحطرون ، وبهم ترزقون ، ومنهم كان أصحاب الكهف » .

وكانوا في سالف الأزمنة ، على ما نطق به القرآن .

فتولد من مزجهم كلام النبوة وكلام الصوفية ، بكتبهم آفتان :

١ - آفة في حق القابل .

٢ - آفة في حق الراد .

٣ - أما الآفة التي في حق الراد فعظيمة ، إذ ظنت طائفة من الضعفاء أن ذلك الكلام إذا كان مدوناً في كتبهم ، وممزوجاً بباطلهم ينبغى أن يهجر ولا يذكر ، بل ينكر على كل من يذكره ، إذ لم يسمعهوا أولاً إلا منهم ، فسبق إلى عقولهم الضعيفة أنه باطل ، لأن قائله مبطل ، كالذى يسمع من النصراني قول : « لا إله إلا الله ، عيسى رسول الله » فينكره ويقول : « هذا كلام النصراني » ولا يتوقف ريثما يتأمل أن النصراني : كافر ، باعتبار هذا القول ، أو اعتبار إنكاره نبوة محمد - عليه السلام - فإن لم يكن كافراً إلا باعتبار إنكاره ، فلا ينبغى أن يخالف في غير ما هو به كافر ، مما هو حق في نفسه ، وإن كان أيضاً حقاً عنده . وهذه عادة ضعفاء العقول : يعرفون الحق بالرجال ، لا الرجال بالحق .

والعاقل يقتدى بقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، حيث قال « لا تعرف الحق بالرجال ، بل اعرف الحق ، تعرف أهله » .

والعاقل يعرف الحق ثم ينظر في نفس القول ، فإن كان حقاً قبله سواء كان قائله مبطلاً ، أو محقاً ، بل ربما يحرص على انتزاع الحق من أقاويل أهل

الضلال ، عالمًا بأن معدن الذهب : الرغام (٢٣) . ولا بأس على الصراف إن

من الزيف والبهرج ،
بروى ، دون الصيرفي
ق . ويصد عن مس

ذاقة والبراعة ، وكمال
، وجب حسم الباب
، إذ لا يسلمون من
في ذكرناها .

لنا ، في أسرار علوم
، ولم تفتح إلى أقصى

، مع أن بعضها من

كلام معقولا في نفسه

م ينبغي أن يهجر ، أو

فلو فتحنا هذا الباب ، وتطرقنا إلى أن نهجر كل حق سبق إليه خاطر مبطل
لزمنا أن نهجر كثيراً من الحق ، ولزمنا أن نهجر جملة آيات من القرآن ، وأخبار
الرسول ، وحكايات السلف ، وكلمات الحكماء ، والصوفية : لأن صاحب
كتاب « إخوان الصفا » أوردها في كتابه ، مستشهداً بها ومستندرجاً قلوب
الحق بواسطتها إلى باطله ، ويتداعى ذلك إلى أن يستخرج المبطلون الحق من
أيدينا ، بإيداعهم إياه في كتبهم .

وأقل درجات العالم : أن يتميز عن العامي الغمر (٢٥) ، فلا يعاف العسل
وإن وجده في محجمة الحجام ، ويتحقق أن المحجمة لا تغير ذات العسل ، فإن
نفرة الطبع منه ، مبنية على جهل عامي ، منشؤه أن المحجمة إنما صنعت للدم
المستقدر ، فيظن أن الدم مستقدر لكونه في المحجمة ، ولا يدرى أنه مستقدر
لصفة في ذاته ، فإذا عدمت هذه الصفة في العسل ، فكونه في ظرفه ، لا
يكسبه تلك الصفة ، فلا ينبغي أن يوجب له الاستقدار .

وهذا وهم باطل ، وهو غالب على أكثر الخلق ، ففها نسبت الكلام ،
وأسندته إلى قائل حسن فيه اعتقادهم ، قبلوه ، وإن كان باطلا . وإن أسندته
إلى من ساء فيه اعتقادهم ، ردوه ، وإن كان حقاً .

فأبدأ يعرفون الحق بالرجال ، ولا يعرفون الرجال بالحق ، وهو غاية
الضلال ! !

هذه آفة الرد .

٢ - آفة القبول : فإن من نظر في كتبهم : كإخوان الصفا ، وغيره ، فرأى
ما مزجوه بكلامهم ، من الحكم النبوية ، والكلمات الصوفية ، ربما

(٢٥) رجل غمر : لم يجرب الأمور .

أنكر أحمد بن حنبل على الحارث المحاسبي^(٢٦) ، رحمهما الله ، تصنيفه في الرد على المعتزلة ؛ فقال الحارث :
الرد على البدعة فرض .
فقال أحمد :

نعم ، ولكن حكيت شبهتهم أولاً ، ثم أجبت عنها ، فبم تأمن أن يطالع الشبهة من يعلق ذلك بفهمه ، ولا يلتفت إلى الجواب ، أو ينظر إلى الجواب ولا يفهم كنهه ؟

وما ذكره أحمد حق ، ولكن في شبهة لم تنتشر ولم تشتهر ، فأما إذا انتشرت فالجواب عنها واجب ، ولا يمكن الجواب عنها إلا بعد الحكاية .

نعم . . ينبغي ألا يتكلف لهم شبهة ، ولم أتكلف أنا ذلك ، بل كنت قد سمعت تلك الشبهة من واحد من أصحابي المختلفين إليّ ، بعد أن كان قد التحق بهم ، وانتحل مذهبهم ، وحكى أنهم يضحكون على تصانيف المصنفين ، في الرد عليهم ، فإنهم لم يفهموا بعد حجتهم . وذكر تلك الحجة ، وحكاها عنهم ، فلم أرض لنفسي أن يظن بي الغفلة عن أصل حجتهم ؛ فذلك أوردتها ولا أن يظن بي أني وإن سمعتها فلم أفهمها ، فلذلك قررتها .

(٢٦) يقول عنه القشيري : عديم النظير في زمانه : علماً ، وورعاً ومعاملة وحالاً ؛ بصرى الأصل . مات بـ « بغداد » سنة ثلاث وأربعين ومائتين . قال أبو عبد الله بن خفيف : اقتنوا بخمسة من شيوخنا والباقيون سلموا لهم حالهم : الحارث بن أسد المحاسبي والجليد بن محمد أبو محمد روم وأبو العباس بن عطاء وعمر بن عثمان المكي . لأنهم جمعوا بين العلم والحقائق .

ومما يروى عنه : قوله من صحح باطنه بالمراقبة والإخلاص ، زين الله ظاهره بالمجاهدة واتباع السنة . وقد ألف كتباً كثيرة ، يوجد بعضها مخطوطاً في دار الكتب المصرية وفي مكتبة الجامعة . وأنفس ما نعرف من كتبه : كتاب الرعاية لحقوق الله وقد طبعته الآتسة مرجريت سميث وطبعناه في القاهرة طبعة متقنة . وقد طبع له كتاب التوهم بالقاهرة .

والاقتصد أني قررت شبهتهم إلى أقصى الإمكان ، ثم أظهرت فسادها بغاية البرهان .

والحاصل : أنه لا حاصل عند هؤلاء ، ولا طائل لكلامهم .
ولولا سوء نصرة الصديق الجاهل ، لما انتهت البدعة - مع ضعفها - إلى هذه الدرجة .

ولكن شدة التعصب ، دعت الذابين عن الحق إلى تطويل التراع معهم في مقدمات كلامهم ، وإلى مجاحدتهم في كل ما نطقوا به فجاحدوهم في دعواهم « الحاجة إلى التعليم ، والمعلم » ودعواهم أنه : « لا يصلح كل معلم ، بل لا بد من معلم معصوم » . وظهرت حجتهم في إظهار الحاجة إلى التعليم والمعلم ، وضعف قول المنكرين في مقابله ، فاغتر بذلك جماعة ، وظنوا أن ذلك من قوة مذهبهم وضعف مذهب المخالفين لهم ولم يفهموا أن ذلك لضعف ناصر الحق ، وجهله بطريقه ؛ بل الصواب الاعتراف بالحاجة إلى المعلم ؛ وأنه لا بد أن يكون المعلم معصوماً ، ولكن معلمنا المعصوم هو : محمد ﷺ .

فإذا قالوا : هو ميت .

فنقول : فعلمكم غائب

فإذا قالوا : معلمنا علم الدعاة ، وبشهم في البلاد ، وهو ينتظر مراجعتهم إن اختلفوا ، أو أشكل عليهم مشكل .

فنقول : ومعلمنا قد علم الدعاة ، وبشهم في البلاد ، وأكمل التعليم ؛ إذ قال الله تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ﴾ وبعد كمال التعليم ، لا يضر موت المعلم ، كما لا تضر غيبته .

فبقي قولهم : كيف تحكمون فيما لم تسمعه ؟ أبالنص ؟ ولم تسمعه ؟ أم

بالاجتهاد والرأى ، وهو مظنة الخلاف ؟

فنقول : نفعل ما فعله معاذ ؛ إذ بعثه رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ، إلى اليمن ^(٢٧) . أى نحكم بالنص ، عند وجود النص ، وبالاجتهاد عند غدمه ، بل كما يفعله دعائهم إذا بعدوا عن الإمام إلى أقاصى البلاد ، إذ لا يمكنهم أن يحكموا بالنص . فإن النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع غير المتناهية ، ولا يمكنه الرجوع فى كل واقعة إلى بلدة الإمام ، وإلى أن يقطع المسافة ويرجع فيكون المستفتى قد مات ، وفات الانتفاع بالرجوع .

فمن أشكلت عليه القبلة ، ليس له طريق إلا أن يصلى بالاجتهاد ، إذ لو سافر إلى بلدة الإمام لمعرفة القبلة ، لفات وقت الصلاة ، إذن جازت الصلاة إلى غير القبلة بناء على الظن . ويقال : « إن المخطئ فى الاجتهاد له أجر واحد وللمصيب أجران » فكذلك فى جميع المجتهدين .

وكذلك أمر صرف الزكاة إلى الفقير . وربما يظنه فقيراً باجتهاده ، وهو غنى باطناً بإخفاء ماله . ولا يكون مؤاخذاً به وإن أخطأ لأنه لم يؤخذ إلا بموجب ظنه .

(٢٧) حينما أراد رسول الله ﷺ أن يبعث معاذاً قاضياً باليمن قال له :

بم تقضى يا معاذ ؟

فقال : بما فى كتاب الله .

قال : فإن لم تجد ؟

قال : بما فى سنة رسول الله

قال : فإن لم تجد ؟

قال : أجتهد رأى

فقال رسول الله : الحمد لله الذى وفق رسول الله لما يحب رسول الله . .

فإن قال : ظن مخالفه كظنه .

فنقول : هو مأمور باتباع ظن نفسه ، كالمجتهد فى القبلة ، يتبع ظن نفسه ، وإن خالفه غيره .

وإن قال : فالمقلد يتبع أبا حنيفة ، والشافعى - رحمهما الله - أم غيرهما ؟
فأقول : فالمقلد فى القبلة عند الاشتباه ، إذ اختلف عليه المجتهدون كيف يصنع ؟

فسيقول : له مع نفسه اجتهاد فى معرفة الأفضل الأعلم بدلائل القبلة ، فيتبع ذلك الاجتهاد ، فكذلك فى المذاهب .

فرد الخلق إلى الاجتهاد - ضرورة - الأنبياء والأئمة مع العلم أنهم قد يخطئون بل قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « أنا أحكم بالظاهر ، والله يتولى السرائر » أى ، أنا أحكم بغالب الظن الحاصل من قول الشهود ، وربما أخطأوا فيه ، ولا سبيل إلى الأمن من الخطأ للأنبياء فى مثل هذه المجتهدين فكيف نطمع فى ذلك ؟
ولهم ها هنا سؤالان .

أحدهما قولهم : هذا وإن صح فى المجتهدين ، فلا يصح فى قواعد العقائد ، إذ المخطئ غير معذور ، فكيف السبيل إليه ؟
فأقول : قواعد العقائد ، يشتمل عليها الكتاب والسنة ، وما وراء ذلك من التفصيل ، والمتنازع فيه يُعرف الحق فيه بالوزن بالقسطاس المستقيم وهى الموازين التى ذكرها الله تعالى فى كتابه ، وهى خمسة ، ذكرتها فى كتاب « القسطاس المستقيم » .

فإن قال : خصومك يخالفون فى ذلك الميزان .

فأقول : لا يتصور أن يفهم ذلك الميزان ثم يخالف فيه أهل التعليم ، لأنى استخرجته من القرآن وتعلمته منه .

ولا يخالف فيه أهل المنطق : لأنه موافق لما شرطوه فى المنطق ، غير مخالف له .

ولا يخالف فيه المتكلم : لأنه موافق لما يذكره فى أدلة النظريات ، وبه يعرف الحق فى الكلاميات .

فإن قال : فإن كان فى يدك مثل هذا الميزان فلم لا ترفع الخلاف بين الخلق ؟ فأقول : لو أصغوا إلى لرفعت الخلاف بينهم .

وذكرت طريق رفع الخلاف فى كتاب « القسطاس المستقيم » فتأمله ، لتعلم أنه حق ، وأنه يرفع الخلاف قطعاً لو أصغوا ، ولا يصغون بأجمعهم .

بل قد أصغى إلى طائفة ، فرفعت الخلاف بينهم ، وإمامك يريد رفع الخلاف بينهم مع عدم إصغائهم ، فلم لم يرفع إلى الآن ؟

ولم لم يرفع على رضى الله عنه ، وهو رأس الأئمة ؟ أو يدعى أنه يقدر على حمل كافتهم على الإصغاء قهراً ، فلم لم يحملهم إلى الآن ؟

ولأى يوم أجله ؟ وهل حصل بين الخلق ، بسبب دعوته إلا زيادة خلاف وزيادة مخالف ؟ نعم ! كان يخشى من الخلاف نوع من الضرر ولا ينتهى إلى سفك الدماء ، وتخريب البلاد ، وإيتام الأولاد ، وقطع الطرق ، والإغارة على الأموال ، وقد حدث فى العالم من بركات رفعكم الخلاف ما لم يكن بمثله عهد :

فإن قال : ادعيت أنك ترفع الخلاف بين الخلق ، ولكن المتحير بين المذاهب المتعارضة ، والاختلافات المتقابلة ، ولم يلزمه الإصغاء إليك دون

خصمك وأكثر الخصوم يخالفونك ، ولا فرق بينك وبينهم ؟ وهذا هو سؤالهم الثانى .

فأقول : هذا أولاً ينقلب عليك ، فإنك إذا دعوت هذا المتحير إلى نفسك فيقول المتحير : بم صرت أولى من مخالفيك ، وأكثر أهل العلم يخالفونك فليت شعرى ! بماذا تجيب ؟ أنجيب بأن تقول : إمامى منصوص عليه ، فمن يصدقك فى دعوى النص ، وهو لم يسمع النص من الرسول ؟ وإنما يسمع دعواك مع تطابق أهل العلم على اختراعك وتكذيبك .

ثم هب أنه سلم لك النص ، فإن كان متحيراً فى أصل النبوة ، فقال : هب أن إمامك يدلى بمعجزة عيسى فيقول : الدليل على صدق ، أنى أحجى أباك فأحياء ، فناطقنى بأنه محق ، فبماذا أعلم صدقه ؟ ولم يعرف كافة الخلق صدق عيسى بهذه المعجزة ، بل عليه من الأسئلة المشككة ما لا يدفع إلا بدقيق النظر العقلى ، والنظر العقلى لا يوثق به عندك ، ولا يعرف دلالة المعجزة على الصدق ما لم يعرف أن الله لا يضل عباده - وسؤال الإضلال وعسر تحرير الجواب عنه مشهور - فبماذا تدفع جميع ذلك ؟ ولم يكون إمامك أولى بالمتابعة من مخالفه ؟ فيرجع إلى الأدلة النظرية التى ينكرها ، وخصمه يدلى بمثل تلك الأدلة ، وأوضح منها ، وهذا السؤال قد انقلب عليهم انقلاباً عظيماً ، ولو اجتمع أولهم وآخرهم على أن يجيبوا جواباً ، لم يقدرُوا عليه .

وإنما نشأ الفساد من جماعة من الضعفة ، ناظروهم ، فلم يشتغلوا بالقلب بل بالجواب ، وذلك مما يطول فيه الكلام ، ولا يسبق سريعاً إلى الإفهام ، فلا يصلح للإفحام .

فإن قال قائل : فهذا هو القلب ، فهل عنه جواب ؟

فأقول : نعم ! جوابه أن المتحير لو قال أنا متحير ، ولم يعين المسألة التي هي متحير فيها ، يقال له : أنت كمريض يقول : أنا مريض ، ولا يذكر عين مرضه ، ويطلب علاجه . فيقال له ليس في الوجود علاج للمرض المطلق ، بل لمرض معين : من صداع ، أو إسهال ، أو غيرهما ، فكذا ذلك المتحير ينبغي أن يعين ما هو متحير فيه ، فإن عين المسألة عرفته الحق فيها بالوزن بالموازين الخمسة التي لا يفهمها أحد إلا ويعترف بأنه الميزان الحق ، الذي يوثق بكل ما يوزن به فيفهم الميزان ، ويفهم أيضاً صحة الوزن ، كما يفهم متعلم الحساب ، نفس الحساب وكون المحاسب المعلم عالماً بالحساب ، وصادقاً فيه .

وقد أوضحت ذلك في كتاب « القسطاس المستقيم » في ورقة ، فليتأمل .

وليس المقصود الآن بيان فساد مذهبهم فقد ذكرت « المستظهرى » أولاً .

وفي كتاب « حجة البيان » ثانياً ، وهو جواب كلام لهم عن وفي كتاب : « مفصل الخلاف » الذي هو اثنا عشر فص جواب كلام عرض على بهمدان .

وفي كتاب « الدرج » المرقوم « بالجداول » رابعاً ، وهو من الذي عرض على بطوس .

وفي كتاب « القسطاس المستقيم » خامساً ، وهو كتاب مقصوده : بيان ميزان العلوم ، وإظهار الاستغناء عن الإمام أحاط به .

بل المقصود : أن هؤلاء ليس معهم شيء من الشفاء المن

الآراء بل هم من عجزهم عن إقامة البرهان على تعين الإمام ، طالما جارياتهم فصدقناهم في الحاجة إلى التعليم ، وإلى المعلم المعصوم ، وأنه الذي عينه ، ثم سألناهم عن العلم الذي تعلموه من هذا المعصوم . وعرضنا عليهم إشكالات فلم يفهموها فضلاً عن القيام بحلها ! فلما عجزوا أحالوا عن الإمام الغائب ، وقالوا : إنه لا بد من السفر إليه .

والعجب أنهم ضيعوا عمرهم في طلب العلم ، وفي التبجح بالظفر به ولم يتعلموا منه شيئاً أصلاً ، كالمتمسك بالنجاسة ، يتعب في طلب الماء حتى إذا وجدته لم يستعمله ، ووجد متضمخاً بالخبائث .

فيكون حاصل ما ذكره شيئاً من ركيك

مذهبه أرك مذهب

لامه ، واسترذله وهو

حشو الفلسفة .

يقنع بمثل ذلك العلم

علوم !

، فرجع حاصلهم إلى

المعلم ، ومجادلتهم في

حتى إذا ساعدهم على

تعليمه ، وقف وقال :

فقط إذ علم أنه لو زاد

، بل عجز عن فهمه ،

والشيلي (٣٠) ، وأبي يزيد البسطامي (٣١) ، قدس الله أرواحهم وغير ذلك من كلام مشايخهم ؛ حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسامع ، فظهر لي أن أنخص خواصهم مالا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالنزق ، والحال وتبدل الصفات . وكمن من الفرق بين أن يعلم حد الصحة ، وحد الشيع ، وأسبابها وشروطها ، وبين أن يكون صحيحاً وشبان ، وبين أن يعرف حد السكر ، وأنه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أنغرة تصاعد من المدة على معادن الفكر ، وبين أن يكون سكان ، بل السكان لا يعرف حد السكر وعلمه وهو سكان ، وما معه بين علمه من شيء ، والصاحي يعرف حد السكر وأركانه ، وما معه من السكر شيء .

وقال : مذنبها هذا مفيد أصول الكتاب والسنة ، وعلما هذا مفيد بحديث رسول الله ﷺ (عن الرسالة الشعرية) .

(٣٠) ينادي المولد والنشأ وأصله من أسرته صاحب الجنب ومن في عصره ، وكان شيخ وقته حالاً وظرفاً وطناً ، مالكي للمذهب عاش سباً وثلاثين سنة ، ومات سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وقمره به (بهداد) .

وكان الشيلي إذا دخل رمضان جدد فوق جدد من عاصره ويقول هذا شهر عظمه ربي فانا أول من يعظمه .

(٣١) كان من كبار الزهادين العابدین ، قيل : إنه مات سنة إحدى وستين ومائتين ، وقيل أربع وثلاثين ومائتين .

ودعب مرة لزيارة رجل كان مقصوداً مشهوراً بالزهد ، فلما خرج الرجل من بيته ودخل المسجد رعى يصاحبه تجاه القبلة فانصرف أبو يزيد ولم يعلم عليه وقال : هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ فكيف يكون مأمونا على ما يدعيه ؟

ومن كلامه : لو نظرت إلى رجل أعظم من الكرامات حتى يرتقى في الهواء فلا تنفوا به حتى تنظروا كيف تجوده عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة (انظر الرسالة الشعرية) .

فهذه حقيقة حالهم ، فأخبرهم تقلبهم (٢٨) فلما أخبرناهم نفطنا اليد عنهم .

طرق الصوفية :

ثم إنني لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهتني على طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقتهم إنما تم بعلم وعمل .

وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس ، والنتزه عن أخلاقها المذمومة ، وصفاتها الجنية ؛ حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى ، وتخليته بذكر الله .

وكان العلم أسر على من العمل ، فابتدأت بتحصيل علمهم ، من مطالعة كتبهم ، مثل : « قوت القلوب » لأبي طالب المكي رحمه الله ، وكتب الحارث المحاسبي والمتفرقات الماثورة عن الجنب (٢٩) .

(٢٨) بتفصليهم .

(٢٩) سيد هذه الطائفة وإمامهم ، أصله من تاروند ، ومنشؤه وولده بالمراق وأبيه كان يتبع الزجاج ؛ فلذلك يقال له : الزوارقي . وكان فقيهاً على مذهب أبي ثور وكان يفتي في حلقته بعصره وهو ابن عشرين سنة ، مات سنة سبع وتسعين ومائتين ٢٩٧ .

قال الروذاري : سمعت الجنب يقول لرجل ذكر المروة وقال : أمل المروة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل فقال الجنب : إن هذا قول قوم تكلموا باستقاطد الأحوال وهو عندي عظيمة والذي يسرق ويرزق أحسن حالا من الذي يقول هذا فإن المارقين بالله تعالى أخذوا الأحوال عن الله تعالى وألوه رجعوا إليها ، ولو بقيت ألس عام لم أنقص من أحوال البر ذرة إلا أن يقال في دوها .

وقال الجنب : الطريق كلها مسدودة على المطلق إلا من اتقى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام . وقال : من لم يحفظ القرآن ، ولم يكب الحديث . لا يقبدي به في هذا الأمر ، لأن علما هذا مفيد بالكتاب والسنة .

والطبيب في حالة المرض ، يعرف حد الصحة ، وأسبابها ، وأدويتها وهو فاقده الصحة .

كذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها ، وأسبابها ، وبين أن يكون حالك الزهد ، وعزوف النفس عن الدنيا .

فعلمت يقيناً : أنهم أرباب الأحوال ، لأصحاب الأقوال . وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم ، فقد حصنته ، ولم يبق إلا مالا سبيل إليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك .

وكان قد حصل معي - من العلوم التي مارستها ، والمسالك التي سلكتها في التفتيش عن صنفي العلوم الشرعية ، والعقلية - إيمان يقيني بالله تعالى وبالنبوة ، وباليوم الآخر !

فهذه الأصول الثلاثة من الإيمان ، كانت قد رسخت في نفسي لا بدليل معين محرر ، بل بأسباب ، وقرائن ، وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها . وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمع في سعادة الآخرة إلا بالتقوى ، وكف النفس عن الهوى . وأن رأس ذلك كله : قطع علاقة القلب عن الدنيا ، بالتجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والإقبال بكنه المهمة على الله تعالى ، وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه ، والمال ، والهرب من الشواغل والعلاقات .

ثم لاحظت أحوالي ، فإذا أنا منغمس في العلاقات ، وقد أهدت بي من الجوانب .

ولاحظت أعمالي - وأحسنها التدريس والتعليم - فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ، ولانافعة في طريق الآخرة . ثم تفكرت في نيتي في التدريس ، فإذا

هي غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه ، وانتشار الصيت ، فتيقنت أني على شفا جرف هار ، وأنني أشفيت على النار ، إن لم أشتغل بتلافي الأحوال .

فلم أزل أفكر فيه مدة ، وأنا بعد على مقام الاختيار ، أصمم العزم على الخروج من بغداد ، ومفارقة تلك الأحوال يوماً ، وأحل العزم يوماً . وأقدم فيه رجلاً وأؤخر عنه أخرى لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة إلا وتحمل عليها جند الشهوة حملة ، فتفترها عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبني سلاسلها إلى المقام ، ومنادى الإيمان بنادي : الرحيل الرحيل ، فلم يبق من العمر إلا قليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل ، رياء ونخيل . فإن لم تستعد الآن للآخرة ، فمتى تستعد ؟ وإن لم تقطع الآن هذه العلاقات فمتى تقطع ؟ فعند ذلك تنبعث الداعية ، وينجزم العزم على الهرب والفرار ! !

ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حال عارضة ، إياك أن تطاوعها ، فإنها سريعة الزوال ، فإن أذعنت لها ، وتركت هذا الجاه العريض ، والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص ، والأمن المسلم الصافي من منازعة الخصوم ، ربما التفتت إليه نفسك ولا يتيسر لك المعاودة .

فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ، ودواعي الآخرة ، قريباً من ستة أشهر أولها : رجب ، سنة ثمان وثمانين وأربعمائة (٣٢) وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار : إذ أقفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطييباً للقلوب المختلفة إلى ، فكان

(٣٢) في نسخة أخرى : ست وثمانين وأربعمائة .

لا ينطق لساني بكلمة واحدة ، ولا أستطيعها البتة ، حتى أوريث . هذه العقلة في اللسان ، حزناً في القلب ، بطلت معه قوة الهضم ومراة الطعام والشراب ، فكان لا ينساع لي ثريد ، ولا تنهضم لي لقمة ، وتعدى إلى ضعف القوى حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج ، وقالوا :

هذا أمر نزل بالقلب ، ومنه سرى إلى المزاج ، فلا سبيل إليه بالعلاج إلا بأن يتروح السر عن الهم الملم !

ثم لما أحسست بعجزى ، وسقط بالكلية اختياري التجأت إلى الله تعالى ، التجاء المضطر ، الذي لا حيلة له . فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه ، والمال والأولاد والأصحاب .

وأظهرت عزم الخروج إلى مكة ، وأنا أدبر في نفسي سفر الشام ، حذراً أن يطلع الخليفة ، وجملة الأصحاب ، على عزمي في المقام بالشام ، فتلطفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد ، على عزم ألا أعاودها أبداً ، واستهدفت للأئمة أهل العراق كافة ، إذ لم يكن فيهم من يجوز أن يكون الإعراض عما كنت فيه سبباً دينياً ، إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى في الدين . وكان ذلك مبلغهم من العلم .

ثم ارتبك الناس في الاستنباطات ، وظن من بعد عن العراق ، أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاية ، وأما من قرب من الولاية ، وكان يشاهد إلحاحهم في التعلق بي ، والانكباب على ، وإعراضهم عنهم . وعن الالتفات إلى قولهم ، فيقولون : هذا أمر سماوى . وليس له سبب ، إلا عين أصابت أهل الإسلام ، وزمرة العلم .

ففارقت بغداد ، وفرقت ما كان معي من المال ، ولم أدخر إلا قدر الكفاف

وقوت الأطفال ، ترخصاً بأن مال العراق مرصد للمصالح ، لكونه وفقاً على المسلمين ، فلم أر في العالم مالا يأخذه العالم لعباله ، أصلح منه .

ثم دخلت الشام ، وأقمت به قريباً من سنتين ، لاشغل لي إلا العزلة ، والخلوة والرياضة ، والمجاهدة : اشتغالا بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، كما كنت حصلته من علم الصوفية . فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق ، أصدع منارة المسجد طول النهار ، وأغلق بابها على نفسي .

ثم رحلت منها إلى بيت المقدس ، أدخل كل يوم الصخرة ، وأغلق بابها على نفسي .

ثم تحركت في داعية فريضة الحج ، والاستمداد من بركات مكة ، والمدينة وزيارة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بعد الفراغ من زيارة الخليل ، صلوات الله عليه ، فسرت إلى الحجاز .

ثم جذبتني الهمم ، ودعوات الأطفال إلى الوطن ، فعاودته ، بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه .

فآثرت العزلة به أيضاً ، حرصاً على الخلوة ، وتصفية القلب للذكر . وكانت حوادث الزمان ، ومهمات العيال وضرورات المعاش ، تغير في وجه المراد ، وتشوش صفوة الخلوة ، وكان لا يصفو لي الحال إلا في أوقات متفرقة ، لكنني مع ذلك لا أقطع طمعى منها ، فتدفعني عنها العوائق ، وأعود إليها . ودمت على ذلك مقدار عشر سنين .

وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها والقدر الذي أذكره ليتنفع به : أتى علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون قضية التصوف المنفذ من الضلال

لطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق . بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئاً من سيرهم . وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا إليه سبيلاً ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم ، في ظاهريهم وباطنيهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به .

وبالجملة : فإذا يقول القائلون في طريقة طهارتها - وهي أول شروطها - تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى .

ومفتاحها - الجارى منها مجرى التحريم من الصلاة - استغراق القلب بالكلية بذكر الله .

وآخرها الفناء بالكلية في الله .

وهذا آخرها ، بالإضافة إلى ما يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب : من أوائلها ، وهي ، على التحقيق : أول الطريقة ، ومقابل ذلك : كالدلهيز للسالك إليه .

ومن أول الطريقة تبدئ المكاشفات والمشاهدات ، حتى إنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة ، وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتاً ، ويقتبسون منهم فوائد .

ثم يترقى الحال من مشاهد الصور والأمثال ، إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق ، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها ، إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه .

وعلى الجملة : ينتهى الأمر إلى قرب يكاد أن يتخيل منه طائفة الحلول ،

وطائفة الاتحاد ،

وطائفة الوصول

وكل ذلك خطأ .

وقد بينا وجه الخطأ فيه في كتاب : « المقصد الأسنى » بل الذى لا يسته الحالة لا ينبغي أن يزيد : على أن يقول :

وكان ما كان مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر وبالجملة ، فمن لم يرزق منه شيء بالذوق ، فليس يدرك من حقيقة النبوة إلا الاسم ، وكرامات الأولياء - على التحقيق - هي بدايات الأنبياء . وكان ذلك أحوال رسول الله - عليه الصلاة والسلام - حيث نبئ ، حين أقبل إلى جبل « حراء » حيث كان يخلو فيه بربه ، ويتعبد ، حتى قالت العرب : إن محمداً عشق ربه .

وهذه حالة يتحققها من سلك سبيلها . .

فمن لم يرزق الذوق فيتيقنها بالتجربة والتسامع إن أكثر معهم الصحة حتى يفهم ذلك بقرائن الأحوال يقيناً ، ومن جالسهم استفاد منهم هذا الإيمان ، فهم القوم لا يشقى جليسهم .

ومن لم يرزق صحبتهم ، فليعلم إمكان ذلك يقيناً بشواهد البرهان ، على ما ذكرناه في « كتاب » عجائب القلب » من كتب إحياء علوم الدين .

والتحقيق بالبرهان علم ، وملابسة عين تلك الحالة ذوق . والقبول من التسامع ، والتجربة ، بحسن الظن ، إيمان . فهذه ثلاث

درجات !

﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾

ووراء هؤلاء قوم جهال : هم المنكرون لأصل ذلك ، المتعجبون من هذا الكلام يستمعون ، ويسخرون ، ويقولون العجب إنهم كيف يهذون ! وفيهم قال الله تعالى .

﴿ ومنهم من يستمع إليك ، حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم : ماذا قال آنفاً ؟ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم ، واتبعوا أهواءهم ﴾ (٣٣) ﴿ فأصمهم ، وأعمى أبصارهم ﴾ (٣٤) .

ومما بان لي ، بالضرورة من ممارسة طريقتهم : حقيقة النبوة ، وخاصيتها ولا بد من التنبيه على أصلها ، لشدة مسيس الحاجة إليها .

حقيقة النبوة

واضطرار كافة الخلق إليها

اعلم أن جوهر الإنسان - في أصل الفطرة : خلق خالياً ، ساذجاً ، لا خبر معه من عوالم الله تعالى ، والعوالم كثيرة ، لا يحصيها إلا الله تعالى ، كما قال : ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ .

وإنما خبره في العالم بواسطة الإدراك ، وكل إدراك من الإدراكات : خلق ليضطلع الإنسان به على عالم من الموجودات ، ونعني بالعوالم ، أجناس الموجودات ، فأول ما يخلق في الإنسان حاسة اللمس ، فيدرك بها أجناساً من الموجودات : كالحرارة ، والبرودة ، والرطوبة ، واليبوسة ، واللين ، والخشونة وغيرها . واللمس قاصر على الألوان والأصوات قطعاً ، بل هي كالعدم في حق اللمس .

ثم تخلق له حاسة البصر ، فيدرك بها الألوان ، والأشكال ، وهو أوسع عوالم المحسّات .

ثم ينفخ فيه السمع ، فيسمع الأصوات والنفثات . ثم يخلق له الذوق .

وكذلك ، إلى أن يجاوز عالم المحسّات ، فيخلق فيه التمييز وهو قريب من سبع سنين ، وهو طور آخر من أطوار وجوده ، فيدرك فيه أموراً زائدة على المحسّات لا يوجد منها شيء في عالم الحس .

ثم يترقى إلى طور آخر ، فيخلق له العقل : فيدرك الراجبات ، والجاثرات ،

والمستحيلات ، وأموراً لا توجد في الأطوار التي قبله .

ووراء العقل طور آخر تنفتح فيه عين أخرى ، يبصر بها الغيب ، وما سيكون في المستقبل ، وأموراً أخرى ، العقل معزول عنها ، كعزل قوة التمييز عن إدراك المعقولات ، وكعزل قوة الحس عن مدركات التمييز .

وكما أن المميز : لو عرضت عليه مدركات العقل لأبأها ، واستبعدوها ، فكذلك بعض العقلاء : أبوا مدركات النبوة ، واستبعدوها ، وذلك عين الجهل : إذ لا مستند لهم إلا أنه طور لم يبلغه ، ولم يوجد في حقه فيظن أنه غير موجود في نفسه . والأكمه لو لم يعلم بالتواتر والتسامع الألوان ، والأشكال ، وحكى له ذلك ابتداء ، لم يفهمها ، ولم يقربها .

وقد قرب الله تعالى ، ذلك على خلقه ، بأن أعطاهم أنموذجاً من خاصية النبوة ، وهو النوم ، إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب ، إما صريحاً ، وإما في كسوة مثال يكشف عنه التعبير : وهذا لو لم يجربه الإنسان من نفسه - وقيل له : من الناس من يسقط مغشياً عليه كالميت ، ويزول عنه إحساسه ، وسمعه ، وبصره ، فيدرك الغيب - لأنكره ، وأقام البرهان على استحالته ، وقال : القوى الحساسة أسباب الإدراك فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها وحضورها ، فبأن لا يدركها مع ركودها ، أولى وأحق ،

وهذا نوع قياس يكذبه الوجود والمشاهدة ، فكما أن العقل طور من أطوار الآدمي يحصل فيه عين يبصر بها أنواعاً من المعقولات ، والحواس معزولة عنها ، فالنبوة أيضاً عبارة عن طور يحصل فيه عين لها نور ، يظهر في نورها الغيب ، وأمور لا يدركها العقل .

والشك في النبوة إما أن يقع :

في إمكانها ، أوفى وجودها ووقوها .

أوفى حصولها لشخص معين . ودليل إمكانها وجودها .

ودليل وجودها وجود معارف في العالم لا يتصور أن تنال بالعقل : كعلم الطب ، والنجوم^(٣٥) فإن من بحث عنها ، علم - بالضرورة - أنها لا تدرك إلا بإلهام إلهي ، وتوفيق من جهة الله تعالى ، ولا سبيل إليه بالتجربة ، فن الأحكام النجومية ، مالا يقع إلا في كل ألف سنة مرة ، فكيف ينال ذلك بالتجربة ، وكذلك خواص الأدوية .

فتبين بهذا البرهان . أن في الإمكان : وجود طريق لإدراك هذه الأمور ، التي لا يدركها العقل ، وهو المراد بالنبوة ، لا أن النبوة عبارة عنها فقط ، بل إدراك هذا الجنس الخارج عن مدركات العقل : إحدى خواص النبوة ، ولها خواص كثيرة سواها وما ذكرنا فقطرة من بحرها . إنما ذكرناها لأن معك أنموذجاً منها : وهو مدركاتك في النوم ، ومعك علوم من جنسها في الطب ، والنجوم ، وهي معجزات الأنبياء ، ولا سبيل إليها للعقلاء ببضاعة العقل أصلاً .

وأما ما عدا هذا من خواص النبوة : إنما يدرك بالدوق ، من سلوك طريق التصوف ، لأن هذا فهمته بأنموذج رزقته وهو النوم ولولاه لما صدقت به . فإن كان للنبي خاصة ليس لك منها أنموذج ، ولا تفهمها أصلاً ، فكيف تصدق بها ؟ وإنما التصديق بعد الفهم .

وذلك الأنموذج يحصل في أوائل طريق التصوف ، فيحصل به نوع من الذوق بالقدر الحاصل ، ونوع من التصديق بما لم يحصل بالقياس إليه .

(٣٥) لعل الإمام رحمه الله يريد أن يقول : الإنسان في ابتداء وجوده وخلقته أغمه الله الأمس التي بينى عليها تجاربه في عالم الطب وملاحظته في علم الفلك .

فهذه الخاصية الواحدة ، تكفيك للإيمان بأصل النبوة .
فإن وقع لك الشك في شخص معين أنه نبي أم لا ؟ فلا يحصل اليقين إلا بمعرفة أحواله : إما بالمشاهدة ، أو بالتواتر والتسامع . فإنك إذا عرفت الطب ، والفقه ، يمكنك أن تعرف الفقهاء ، والأطباء ، بمشاهدة أحوالهم ، وسماع أقوالهم ، وإن لم تشاهدهم .

ولا تعجز أيضاً عن معرفة كون الشافعي - رحمه الله - فقيهاً ، وكون جالينوس طبيباً ، معرفة بالحقيقة لا بالتقليد عن الغير ، بل بأن تتعلم شيئاً من الفقه والطب وتطالع كتبهما ، وتصانيفهما : فيحصل لك علم ضروري بحالهما . فكذاك إذا فهمت معنى النبوة ، فأكثرث النظر في القرآن ، والأخبار يحصل لك العلم الضروري بكونه ، ﷺ ، على أعلى درجات النبوة . وأعضد ذلك بتجربة ما قاله في العبادات وتأثيرها في تصفية القلوب ، وكيف صدق في قوله : « من عمل بما علم ، ورثه الله علم ما لم يعلم » .

وكيف صدق في قوله : « من أعان ظالماً ، سلطه الله عليه » .
وكيف صدق في قوله : « من أصبح وهمومه هم واحد (هو التقوى) ^(٣٦) »
كفاه الله تعالى هموم الدنيا والآخرة ^(٣٧) .

فإذا جربت ذلك في ألف ، وألفين ، وآلاف ، حصل لك علم ضروري لا تتأري فيه .

فمن هذا الطريق : اطلب اليقين بالنبوة لامن قلب العصا ثعباناً ، وشق

القمر ، فإن ذلك إذا نظرت إليه وحده لم تنضم إليه القرائن الكثيرة الخارجة عن الحصر ، ربما ظننت أنه سحر ، وتخيل ، وأنه من الله إضلال ، فإنه ﷻ يفضل من يشاء ويهدي من يشاء .

وترد عليك أمثلة المعجزات : فإن كان مستنداً إيمانك إلى كلام منظوم في وجه دلالة المعجزة ، فينجزم إيمانك بكلام مرتب في وجه الإشكال والشبهة عليها .

فليكن مثل هذه الخوارق إحدى الدلائل والقرائن في جملة نظرك ، حتى يحصل لك علم ضروري ، لا يمكنك ذكر مستنده على التعيين ، كالذي يخبره جماعة بنجر متواتر ، لا يمكنه أن يذكر أن اليقين مستفاد من قول واحد معين ، بل من حيث لا يدري ، ولا يخرج عن جملة ذلك ، ولا بتعيين الآحاد ، فهذا هو الإيمان القوى العلمي .

وأما الذوق فهو كالمشاهدة ، والأخذ باليد ، ولا يوجد إلا في طريق الصوفية فهذا القدر من حقيقة النبوة كاف في الغرض الذي أقصده الآن ، وسأذكر وجه الحاجة إليه .

(٣٦) ما بين القوسين زيادة عن الجامع الصغير وضعناها لبيان المعنى .

(٣٧) وفي سنن ابن ماجه عن رسول الله ﷺ : « ومن جعل الهموم همّاً واحداً ، هم المعاد ، كفاه الله هم دنياه . ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديته هلك » .

سبب نشر العلم بعد الإعراض عنه

ثم إنى واظبت على العزلة والخلوة ، قريباً من عشرين سنين ، وبأن لى فى أثناء ذلك على الضرورة ، من أسباب لا أحصيها : مرة بالذوق ، ومرة بالعلم البرهانى ، ومرة بالقبول الإيمانى أن الإنسان خلق من بدن وقلب ، وأعنى بالقلب حقيقة روحه ، التى هى محل معرفة الله ، دون اللحم والدم الذى يشارك فيه الميت والبهيمة ، وأن البدن له صحة بها سعادته ومرض فيه هلاكه ، وأن القلب كذلك ، له صحة وسلامة ، ولا ينجو **﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾** وله مرض فيه هلاكه الأبدى الأخرى ، كما قال تعالى : **﴿ فى قلوبهم مرض ﴾** وأن الجهل بالله سم مهلك ، وأن معصية الله ، بمتابعة الهوى دأؤه الممرض ، وأن معرفة الله تعالى تزيقه المحيى ، وطاعته بمخالفة الهوى دأؤه الشافى ، وأنه لاسبيل إلى معالجته بإزالة مرضه وكسب صحته إلا بأدوية كما لاسبيل إلى معالجة البدن ، إلا بذلك ، وكما أن أدوية البدن تؤثر فى كسب الصحة ، بخاصية فيها ، لا يدركها العقلاء ببضاعة العقل ، بل يجب فيها تقليد الأطباء ، الذين أخذوها من الأنبياء ، الذين اطلعوا بخاصية النبوة على خواص الأشياء ، فكذلك بأن لى - على الضرورة - أن أدوية العبادات - بمحدودها ، ومقاديرها المحدودة ، المقدرة من جهة الأنبياء - لا يدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء ، بل يجب فيها تقليد الأنبياء الذين أدركوا تلك الخواص ، بنور النبوة لا ببضاعة العقل .

وكما أن الأدوية تركب من أخلاط مختلفة النوع والمقدار ، وبعضها ضعف البعض فى الوزن والمقدار ، فلا يخلو اختلاف مقاديرها عن سر ، هو من قبيل الخواص ، فكذلك العبادات التى هى أدوية داء القلوب : مركبة من أفعال مختلفة النوع والمقدار ، حتى إن السجود ضعف الركوع ، وصلاة الصبح نصف صلاة العصر فى المقدار ، ولا يخلو عن سر من الأسرار ، هو من قبيل الخواص التى لا يطلع عليها إلا بنور النبوة .

ولقد نحامق وتجاهل جداً من أراد أن يستنبط - بطريق العقل - لها حكمة ، أو ظن أنها ذكرت على الاتفاق ، لاعن سر إلهى فيها يقتضيه بطريق الخاصية . وكما أن فى الأدوية أصولاً هى أركانها ، وزوائد هى متماتها ، لكل واحد منها خصوص تأثير فى أعمال أصولها ، كذلك النوافل والسنن : متمات لتكميل آثار أركان العبادات .

وعلى الجملة : الأنبياء أطباء أمراض القلوب ، وإنما فائدة العقل وتصرفه أن عرفنا ذلك ، ويشهد للنبوة بالتصديق ، ولنفسه بلعجز عن درك ما يدرك بعين النبوة ، وأخذ بأيدينا ، وسلمنا إليها تسليم العميان إلى القائدين ، وتسليم المرضى المتحيرين إلى الأطباء المشفقين . وإلى هنا هنا مجرى العقل ومخطاه ، وهو معزول عما بعد ذلك ، إلا عن تفهم ما يلقيه الطبيب إليه .

فهذه أمور عرفناها بالضرورة الجارية مجرى المشاهدة ، فى مدة الخلوة والعزلة ثم رأينا فتور الاعتقادات فى أصل النبوة .

ثم فى حقيقة النبوة ، ثم فى العمل بما شرحته النبوة . وتحققنا شيوع ذلك بين الخلق ، فنظرت إلى أسباب فتور الخلق ، وضعف إيمانهم ، فإذا هى أربعة :

١ - سبب من الخائضين في سلم الفلسفة .

٢ - وسبب من الخائضين في طريق التصوف .

٣ - وسبب من المتسبين إلى دعوى التعليم .

٤ - وسبب من معاملة الموسومين بالعلم فيما بين الناس .

فإنني تتبعته ، مدة آحاد الخلق ، أسأل من يقصر منهم في متابعة الشرع ؛ وأسأله عن شبهته ، وأبحث عن عقيدته وسره ، وقلت له ؛ مالك تقصر فيها ؟ فإن كنت تؤمن بالآخرة ، ولست تستعد لها وتبيعها بالدنيا ، فهذه حماقة ! فإنك لا تبيع الاثنين بواحد ، فكيف تبيع ما لا نهاية له بأيام معدودة ؟ وإن كنت لا تؤمن ، فأنت كافر . فدبر نفسك في طلب الإيمان ، وانظر ما سبب كفرك الحق ، الذى هو مذهبك باطناً ، وهو سبب جرأتك ظاهراً ، وإن كنت لا تصرح به ، تجمل بالإيمان وتشرفاً بذكر الشرع !

فقايل يقول : هذا أمر لو وجبت المحافظة عليه ، لكان العلماء أجدر بذلك ، وفلان من المشاهير ، بين الفضلاء ، لا يصلى ، وفلان يشرب الخمر ، وفلان يأكل أموال الأوقاف ، وأموال اليتامى ، وفلان يأكل إدرار السلطان ولا يحترز عن الحرام ، وفلان يأخذ الرشوة على القضاء والشهادة ، وهلم جراً ، إلى أمثاله ..

وقايل ثان يدعى علم التصوف ، ويزعم أنه قد بلغ مبلغاً ترقى عن الحاجة إلى العبادة ،

وقال ثالث يتعلل بشبهة أخرى من شبهات أهل الإباحة !

وهؤلاء هم الذين ضلوا عن التصوف .

وقايل رابع لقي أهل التعليم فيقول : الحق مشكل ، والطريق إليه متعسر ،

والاختلاف فيه كثير ، وليس بعض المذاهب أولى من بعض ، وأدلة العقول متعارضة ، فلا ثقة برأى أهل الرأى ، والداعى إلى التعليم متحكم لا حجة له ؛ فكيف أدع اليقين بالشك ؟ .

وقايل خامس يقول : لست أفعل هذا تقليداً ولكنى قرأت علم الفلسفة ، وأدركت حقيقة النبوة ، وأن حاصلها يرجع إلى الحكمة والمصلحة ؛ وأن المقصود من تعبداتها : ضبط عوام الخلق ، وتقييدهم عن التقاتل ، والتنازع ، والاسترسال ، فى الشهوات ، فما أنا من العوام الجهال ، حتى أدخل فى حجر التكليف ، وإنما أنا من الحكماء ، أتبع الحكمة وأنا بصير بها ، مستغن فيها عن التقليد .

هذا منتهى إيمان من قرأ مذهب لفلسفة الإلهيين منهم ، وتعلم ذلك من كتب ابن سينا وأبى نصر الفارابى .

وهؤلاء المتجملون بالإسلام .

وربما ترى الواحد منهم يقرأ القرآن ويحضر الجاعات والصلوات ، ويعظم الشريعة بلسانه ، ولكنه ، مع ذلك لا يترك شرب الخمر ، وأنواعاً من الفسق والفجور !

وإذا قيل له :

إن كانت النبوة غير صحيحة فلم تصلى ؟ فربما يقول :

لرياضة الجسد ، ولعادة أهل البلد ، وحفظ المال والولد ! وربما قال :

الشريعة صحيحة والنبوة حق . فإذا قيل له :

فلم تشرب الخمر ؟ فيقول :

إنما نهى عن الخمر لأنها تورث العداوة والبغضاء ، وأنا بحمكتى محترز عن

ذلك ، وإني أقصد به تشجيع خاطرى .
حتى إن ابن سينا في وصية له كتب فيها أنه عاهد الله ، تعالى ، على كذا وكذا ، وأن يعظم الأوضاع الشرعية ولا يقصر في العبادات الدينية ، ولا يشرب تلهياً ، بل تداوياً وتشافياً ، فكان منتهى حالته في صفاء الإيمان ، وال التزام العبادات : أن استثنى شرب الخمر لغرض التشافي .

فهذا إيمان من يدعى الإيمان منهم وقد اتخذ بهم جماعة ، وزادهم ضعف اعتراض المعارضين عليهم ، إذ اعترضوا بمخالفة علم الهندسة والمنطق ، وغير ذلك ، مما هو ضروري لهم ، على ما بينا علته من قبل .

فلما رأيت أصناف الخلق من ضعف إيمانهم إلى هذا الحد ، بهذه الأسباب ، ورأيت نفسى ملية (٣٨) بكشف هذه الشبهة ، حتى كان فصح هؤلاء : أيسر عندي من شربة ماء ، لكثرة خوضي في علومهم ، وطرقهم ، أعنى طرق الصوفية والفلاسفة والتعليمية والتوسمين من العلماء ، انقلح في نفسى أن ذلك متعين ، في هذا الوقت ، محتوم .

فما تغنيك الخلوة والعزلة ، وقد عم الداء ، ومرض الأطباء ، وأشرف الخلق على الهلاك ؟

عن إظهار الحق بالحجة ، فنشر الله تعالى : أن حرك داعية سلطان الوقت من نفسه لا بتحريك من خارج ، فأمر الزام بالتهوؤ إلى نيسابور لتدارك هذه الفترة ، وبلغ الإلزام حداً كاد ينتهي - لو أصررت على الخلاف - إلى حد الوحشة .

فخطر لي أن سبب الرخصة فقد ضعف ، فلا ينبغي أن يكون باعثك على ملازمة العزلة الكسل والاستراحة ، وطلب عز النفس وصونها عن أذى الخلق ولم تُرخص نفسك بعسر معاناة الخلق ؟ والله تعالى يقول :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم : ألم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ (٣٩) .

ويقول عز وجل ، لرسوله وهو أعز خلقه :

﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا ، على ما كذبوا ، وأوذوا ، حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾ (٤٠) .

ويقول ، عز وجل :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم : يس . والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على

إننا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون .
وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون .
وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون .
إنما تنذر من اتبع الذكر ﴿٤١﴾ .

فشاورت في ذلك جماعة من أرباب القلوب ، والمشاهدات . فاتفقوا على الإشارة بترك العزلة والخروج من الزاوية .

وانضاف إلى ذلك منامات من الصالحين كثيرة ، متواترة تشهد بأن هذه الحركة : مبدأ خير ، ورشد ، قدرها الله ، سبحانه ، على رأس هذه المائة ﴿٤٢﴾ .

وقد وعد الله ، سبحانه ، بإحياء دينه ، على رأس كل مائة .
فاستحكم الرجاء ، وغلب حسن الظن بسبب هذه الشهادات ، ويسر الله تعالى ، الحركة إلى نيسابور للقيام بهذا المهم في ذى القعدة ، سنة تسع وتسعين وأربعمائة ، وكان الخروج من بغداد في ذى القعدة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وبلغت مدة العزلة إحدى عشرة سنة .

وهذه حركة قدرها الله تعالى ، وهي من عجائب تقديراته التي لم يكن لها انقذاح في القلب في هذه العزلة ، كما لم يكن الخروج من بغداد والتزوع عن تلك الأحوال ، مما خطر إمكانه أصلاً بالبال ، والله تعالى ، مقلب القلوب والأحوال و « قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن » .

(٤١) سورة يس : آيات ١ - ١١

(٤٢) روى أبو داود ، والحاكم ، والبيهقي : « إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجد لها دينها .

وأنا أعلم : أني وإن رجعت إلى نشر العلم ، فما رجعت ! فإن الرجوع عود إلى ما كان ، وكنت في الزمان أنشر العلم الذي به يكسب الجاه ، وأدعو إليه بقولي وعملي ، وكان ذلك قصدي ، ونيتي . وأما الآن فأدعو إلى العلم الذي به يترك الجاه . ويعرف به سقوط رتبة الجاه .

هذا هو الآن نيتي وقصدي . وأمنيتي : يعلم الله ذلك مني .
وأنا أبغى أن أصلح نفسي ، وغيري ، ولست أدري أصل إلى مرادى ، أم أخترم دون غرضي ؟ ولكن أومن بإيمان يقين ومشاهدة ، أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وأنى لم أنحرك لكنه حركنى . وأنى لم أعمل ، لكنه استعملنى . فأسأله : أن يصلحني أولاً . ثم يصلح لي ، ويهديني . ثم يهدي لي ، وأن يريني الحق حقاً ، ويرزقني اتباعه ، ويريني الباطل باطلاً ، ويرزقني اجتنابه .

* * *

ونعود الآن إلى ما ذكرناه . من أسباب ضعف الإيمان فيمن ذكر بذكر طريق إرشادهم ، وإنقاذهم من مهالكهم .

أما الذين ادعوا الحيرة بما سمعوه من أهل التعليم ، فعلاجه ما ذكرناه في كتاب : « القسطاس المستقيم » ولا نطول بذكره في هذه الرسالة .
وأما ما توهمه أهل الإباحة ، فقد خصرنا شبههم في سبعة أنواع ، وكشفناها في كتاب « كيمياء السعادة » .

وأما من فسد إيمانه بطريق الفلسفة حتى أنكر أصل النبوة : فقد ذكرنا حقيقة النبوة ووجودها بالضرورة ، بدليل وجود علم خواص الأدوية والنجوم وغيرهما . وإنما قدمنا هذه المقدمة لأجل ذلك .

وإنما أوردنا الدليل من خواص الطب والنجوم ، لأنه من نفس علمهم ، ونحن نبين لكل عالم بفن من العلوم : كالنجوم ، والطب ، والطبيعة ، والسحر ، والطلسمات ، مثلاً من نفس علمه برهان النبوة .

وأما من أثبت النبوة بلسانه ، سوى أوضاع الشرع على الحكمة ، فهو على التحقيق : كافر بالنبوة ، وإنما هو مؤمن بحكيم له طالع مخصوص يقتضى طالعاً أن يكون متبوعاً .

وليس هذا من النبوة في شيء .

بل الإيمان بالنبوة أن يقر بإثبات طور وراء العقل ، تفتح فيه عين يدرك بها مدركات خاصة ، والعقل معزول عنها ، كعزل السمع عن إدراك الألوان . والبصر عن إدراك الأصوات ، وجميع الحواس عن إدراك المعقولات . فإن لم يجوز هذا ، فقد أقننا البرهان على إمكانه ، بل على وجوده . وإن جوز هذا فقد أثبت أن هاهنا أموراً تسمى خواص لا يدور تصرف العقل حوالياً أصلاً ، بل يكاد العقل يكذبها . ويقضى باستحالتها فإن وزن دائق^(٤٣) من الأفيون سم قاتل ؛ لأنه يحمّد الدم في العروق ، لفرط برودته والذي يدعى علم الطبيعة ، يزعم أن ما يبرد من المركبات ، إنما يبرد بعنصرى الماء والتراب ، فهما العنصران الباردان ومعلوم أن أرطالا من الماء والتراب لا يبلغ تبريدهم في الباطن إلى هذا الحد : فلو أخبر طبعى بهذا ، ولم يحجره ، لقال : هذا محال ، والدليل على استحالة أن فيه نارية ، وهوائية ، والهوائية والنارية لا تزيد بها برودة ، فنقدر الكل ماء وتراباً ، فلا يوجد هذا الإفراط بالتبريد ، فنضم إليه حاران قبلاً يوجب أولى . ويقدر هذا برهاناً !

(٤٣) الدائق بفتح النون وكسرهما : سدس الدرهم ،

وأكثر براهين الفلاسفة في الطبيعيات والإلهيات : مبنى على هذا الجنس ، فإنهم تصوروا الأمور على قدر ما وجدوه وعقلوه ، وما لم يألوه قدروا استحالاته .

ولو لم تكن الرؤيا الصادقة مألوفاً ، وادعى مدع : أنه عند ركود الحواس ، يعلم الغيب لأنكره المنصفون بمثل هذه العقول .

ولو قيل لواحد : هل يجوز أن يكون في الدنيا شيء هو بمقدار حبة ، يوضع في بلدة ، ليأكل تلك البلدة بحملتها ، ثم يأكل نفسه ، فلا يبقى شيئاً من البلدة وما فيها ، ولا يبقى هو في نفسه ؟ لقال : هذا محال ، وهو من جملة الخرافات ، وهذه حالة النار : ينكرها من لم ير النار . إذا سمعها .

وأكثر إنكار عجائب الآخرة هو من هذا القبيل .

فنقول للطبعى : قد اضطرت إلى أن تقول : في الأفيون خاصية في التبريد ليس على قياس المعقول بالطبيعة ، فلم لا يجوز أن يكون في الأوضاع الشرعية من الخواص ، في مداواة القلوب ، وتصفيها ما لا يدرك بالحكمة العقلية ، بل لا يبصر ذلك إلا بعين النبوة ؟ بل قد اعترفوا بخواص هي أعجب من هذا ، فيما أوردوه في كتبهم ، وهى من الخواص العجيبة ، المجربة في معالجة الحامل ، التى عسر عليها الطلق بهذا الشكل :

٤	٩	٢
٣	٥	٧
٨	١	٦

د	ط	ب
ج	هـ	ز
ح	ا	و

يكتب على خرقتين ، لم يصبها ماء ، وتنظر إليها الحامل بعينها ، وتضعها تحت قدميها ، فيسرع الولد في الحال إلى الخروج ، وقد أقروا بإمكان ذلك : وأوردوه في كتاب « عجائب الخواص » ، وهو شكل فيه تسعة بيوت ، يرقم فيها رقوم مخصوصة ، يكون مجموع ما في جدول واحد : خمسة عشر ، قرأته في طول الشكل ، أوفى عرضه أو على التأريب .

فليت شعري ! من يصدق بذلك ، ثم لا يتسع عقله للتصديق ، بأن تقدير صلاة الصبح بركعتين ، والظهر بأربع ، والمغرب بثلاث هي : لخواص غير معلومة بنظر الحكمة ؟ وسببها : اختلاف هذه الأوقات ، وإنما تدرك هذه الخواص بنور النبوة .

والعجب أنا لو غيرنا العبارة إلى عبارة المنجمين ، لعقلوا اختلاف هذه الأوقات فنقول : أليس يختلف الحكم في الطالع : بأن تكون الشمس في وسط السماء ، أو في الطالع ، أو في الغارب ، حتى يبنوا على هذا في تسييراتهم اختلاف العلاج ، وتفاوت الأعمار والآجال ، ولا فرق بين الزوال وبين كون الشمس في وسط السماء ، ولا بين المغرب وبين كون الشمس في الغارب ، فهل لتصديقه سبيل ؟ إلا أن ذلك يسمعه بعبارة منجم ، جرب كذبه مائة مرة ، ولا يزال يعاود تصديقه ، حتى لو قال المنجم له : إذا كانت الشمس في وسط السماء ، ونظر إليها الكوكب الفلاني ، والطالع هو البرج الفلاني ، فلبست ثوباً جديداً في ذلك الوقت قتلت في ذلك الثوب ! فإنه لا يلبس الثوب في ذلك الوقت ، وربما يقاسى فيه البرد الشديد ، وربما سمعه من منجم ، وقد عرف كذبه مرات .

فليت شعري ! من يتسع عقله لقبول هذه البدائع ويضطر إلى الاعتراف

بأنها خواص معرفتها معجزة لبعض الأنبياء - كيف ينكر مثل ذلك فيما يسمعه من قول نبي صادق مؤيد بالمعجزات ، لم يعرف قط بالكذب ؟ فإن أنكر فلسفي إمكان هذه الخواص في أعداد الركعات ، ورمى الجمار وعدد أركان الحج ، وسائر تعبدات الشرع ، لم يجد بينها وبين خواص الأدوية والنجوم فرقاً أصلاً . فإن قال : قد جربت شيئاً من النجوم وشيئاً من الطب ، فوجدت بعضه صادقاً ، فأنفدح في نفسى تصديقه ، وسقط من قلبي استبعاده ، ونفرتي ، وهذا لم أجربه فم أعلم وجوده وتحقيقه ؟

وإن أقررت بإمكانه فأقول :

إنك لا تقتصر على تصديق ما جربته ، بل سمعت أخبار المجربين وقلدتهم ، فاسمع أقوال الأنبياء ، فقد جربوا ، وشاهدوا الحق في جميع ما ورد به الشرع واسلك سبيلهم ، تدرك بالمشاهد بعض ذلك .

على أني أقول : وإن لم تجربه فيقضى عقلك بوجوب التصديق والاتباع قطعاً فإننا لو فرضنا رجلاً بلغ ، وعقل ، ولم يجرب المرض ، فرض ، وله والد مشفق حاذق بالطب يسمع دعواه في معرفة الطب منذ عقل ، فمعجن له والده دواء ، فقال : هذا يصلح لمرضك ويشفيك من سقمك . فإذا يقتضيه عقله ، وإن كان الدواء مرّاً كربه المذاق ؟ أبتناوله ؟ أو يكذب ويقول : أنا لا أعقل مناسبة هذا الدواء ، لتحصيل الشفاء ولم أجربه ؟ فلا شك أنك : تستحقه إن فعل ذلك ! وكذلك يستحقك أهل البصائر في توقفك !

فإن قلت : فم أعرف شفقة النبي عليه الصلاة والسلام ، ومعرفته بهذا الطب ؟ فأقول :

وهم عرفوا شفقة أبيك ، وليس ذلك أمراً محساً ؟ بل عرفتها بقرائن

أجواله ، وشواهد أعماله في مصادره ، وموارده علماً ضروريا لا تتأري فيه .
ومن نظر في أقوال رسول الله عليه الصلاة والسلام . وما ورد من الأخبار في
اهتمامه بإرشاد الخلق وتلطفه في جر الناس بأنواع الرفق ، واللفظ إلى تحسين
الأخلاق وإصلاح ذات البين ، وبالجملة إلى ما يصلح إلا به دينهم ، ودنياهم
حصل له على علم ضروري ، بأن شفقتة على أمته أعظم من شفقة الوالد على
ولده .

وإذا نظر إلى عجائب ما ظهر عليه من الأفعال وإلى عجائب الغيب الذي
أخبر عنه في القرآن على لسانه ، وفي الأخبار وإلى ما ذكره في
فظهر ذلك كما ذكره علم - علماً ضرورياً - أنه بلغ الطور الذي
وانفتحت له العين التي ينكشف منها الغيب الذي لا يدركه
والأمور التي لا يدركها العقل .

فهذا هو منها تحصيل العلم الضروري بتصديق النبي عليه الص
فجرب وتأمل القرآن وطالع الأخبار تعرف ذلك بالعيان .
وهذا القدر : يكتفي في تنبيه المتفلسفة . ذكرناه لشدة الحاح
الزمان .

وأما السبب الرابع - وهو ضعف الإيمان بسبب سوء
فيداوى هذا المرض بثلاثة أمور :

أحدها : أن تقول : إن العالم الذي تزعم أنه يأكل الحرام
ذلك الحرام ، كمعرفتك بتحريم الخمر ولحم الخنزير ، والربا ،
والكذب والنميمة ، وأنت تعرف ذلك وتفعله لا لعدم إيمانك بأ
لشهوته الغالبة عليك ، فشهوته كشهوته ، وقد غلبته كما غلبت

وراء هذا يتميز به عنك ، لا يناسب زيادة زجر عن هذا المحذور المعين ، وكم
من مؤمن بالطب لا يصبر عن الفاكهة وعن الماء البارد ، وإن زجره الطبيب
عنه ! ولا يدل ذلك على أنه غير ضار ، أو على أن الإيمان بالطب غير صحيح
فهذا محمل هفوات العلماء .

الثاني أن يقال للعامي : ينبغي أن تعتقد أن العالم اتخذ علمه ذخراً لنفسه في
الآخرة ، ويظن أن علمه ينجي ، ويكون له شفيعاً ، حتى يتساهل معه في
أعماله لفضيلة علمه وإن جاز أن يكون زيادة حجة عليه ، فهو يجوز أن يكون
دليلاً بالعلم . أما أنت أيها
العلم عاطل فتهلك بسوء

ف معصية إلا على سبيل
العلم الحقيقي ما يعرف أن
عرف ذلك لا يبيع الخير بما

بها أكثر الناس : فلذلك
تعالى .

ورجاء ، وذلك يحول بينه
العثرات ، وذلك لا يدل
هو بعيد عن الإصرار ،

خاطرة^(٤٤) حول «المنقذ من الضلال»

أنى المذكور عبد الحلیم محمود ، يعرف - فيما بين إخوة المشيرة - بكنية أبو العارفين وهي تعبير عن الصورة التي يعرفه عليها هذا المحيط الروحي ، في مجال القبلين على الله ، من طلاب الحقائق ، والباحثين عن مشارق الأنوار ، وأسرار الغيوب .

والذكر عبد الحلیم يُعرف أيضاً فيما بيننا - نحن الحمدين - بأنه و غزالي مصر^{٤٥} في هذا العصر...

والواقع ، أن المذكور عبد الحلیم في ذاته ، ظاهرة صوفية ، غير مكررة ، بما يفيض به من القيم ، وما يفاض عليه من المراهب ، وما يفسح له الله تعالى من الوقت ، واللدد ، فيترقق إنتاجه سلسلاً عذباً ، مندمجاً في رقة ، رايياً متلاحقاً في قوة ، بين منطوق ، ومكتوب ، يتلاحق فيذكرنا بأعلام السلف الصالح ، ويطمئنا على مستقبل الرابانية المقدسة ، ويعطى الناس مثلاً جياً في كرامات الأولياء !

قارئ المذكور عبد الحلیم أو سامعه ، لا يحس الصنعة فيما يقرأ له ، أو يسمع منه ، ولكنه يحس القلب والماطفة ، والمقل والإيمان ، ويصير الأدب والفنل . والنواضع والثقة بلا حدود ، كل ذلك يتقدح في ومضات ،

(٤٤) حتماً صدرت الطبعة الخامسة من هذا الكتاب ، تفصل بكتابة هذه الخاطرة الكاتب الكبير صاحب السرك الصوفى الشير ، وصاحب القلم الصوفى الملم ، فقبيلة الشيخ محمد زكى إبراهيم الرالله المورق للمبيرة المحمدية جزاء الله خير الجراء ، وشكر الله له جميل صنيمه .

هذا ما أردت أن أذكره في ذم الفلسفة والتعلم وأقانتها وأقانت من أنكر عليها ، لا بطريقه .

ونسأل الله العظيم أن يجعلنا من أثره واجتباؤه ، وأرشدنا إلى الحق وهده ، وألمه ذكره حتى لا ينساه ، وعصمه عن شرفه حتى لا يؤثر عليه سواه ، واستغفره لنفسه حتى لا يعبد إلا إياه .

ولغات ، ولفئات ، وملاحظ وقواعد ، وأصول تهتز بالحياة ، وتنفع بالعلم ، والأصالة والمعرفة ، والصلة بالله ، والغيرة على محارمه ، ومحس المرء منها ابتغاء رضوان الله .

أما أنا فأقرأ له وأسمعه كأنما أقرأ ما كتبته ، أو أسمع ما أتحدث به .

إن إخالى الدكتور عبد الحلیم من نوع فريد ، فقد نلتقى بعد غياب جسدى طويل ، فلا يحدث أحدنا الآخر ، بأكثر مما يحدث به زميله الذى لا يفارق ظله ، وفى إيجاز قد يصل إلى الاقتضاب ، ثم يقنعنا هذا ، ويكفينا ، ونحصل منه على معان شتى ، وأغراض أكثر ، يضيق عنها النطق ، وتعبها بها العبارة ، وتظل قلوبنا تتناجى فى حرارة ، وتتواصى فى لهفة ، كما كانت قبل هذا اللقاء الجسمانى ، ثم بما تحصله هذه القلوب نكتفى ونشتفى ، إلى أن تجمعنا الصدفة ، أو القصد مرة أخرى ، وعندها أعود فأحس كأننا لم نفترق ! !

أقول ذلك بمناسبة صدور الطبعة « الخامسة » الجديدة من كتاب « المنقذ من الضلال » للغزالي بتقديم وتعليق وتحليل ، ودراسة الأخ الدكتور عبد الحلیم محمود فقد صدرت هذه الطبعة فى رجب هذا العام ، واستغرقت ٣٥٠ صحيفة من القطع الكبير ، وأضاف إليها الأستاذ كعادته فى كل طبعة سابقة لهذا الكتاب أبواباً جديدة ، وألواناً مستحدثة دقيقة ، بعيدة العمق عريضة الهدف فى أهم وأخطر المباحث الموصولة بالتصوف الإسلامى ، على المستوى الفكرى الشرق والغرب معاً ، حتى أصبح هذا الكتاب الذى كان يباع فى طبعته الأولى بخمسة قروش ، يباع فى هذه الطبعة الأخيرة بخمسين قرشاً تمنحك زبداً نقياً ودسماً من العلم ، والمعرفة ، والتاريخ ، والتحقيق ، والاستدلال ، والإيمان ،

والإشراق ، وتعطيك التصوف الإسلامى فى مثل ضوء الشمس بهاء ونقاء ، وسمواً وخلوداً .

رضى الله عن الأخ الدكتور عبد الحلیم محمود ، وزاده مما يحب ويرضى ونفعنى بحبه وإخائه فيه تعالى .

فهرس

الصفحة

مقدمة : التصوف والحياة ٢٦ - ٧

الفصل الأول : التصوف

(لفظاً ، وتعريفاً ، وطريقاً ، ومصادر ، ونشأة ، ولحمة

عامة) ١٢٠ - ٢٧

الفصل الثاني : التصوف والشريعة

(التصوف والدين ، التصوف والتحلل من الشريعة ، وحدة

الوجود ، السجود للأوامر الإلهية كمظهر للتدين السلم

والتصوف الصحيح) ١٧٤ - ١٢١

الفصل الثالث : التصوف والمعرفة

(البحث العقلي فيما وراء الطبيعة عبث ، في وسيلة المعرفة ،

التصوف والشك ، الشك ومدارج السالكين ، الإمام الغزالي

يرسم طريق المعرفة ، مشكلة المعرفة الصوفية) ٢٣٤ - ١٧٥

AL-MOSTAFA.COM

المفحة

الفصل الرابع : قضية التصوف

(إنكار التصوف، تحديد موطن النزاع، المشاكل التي يراود حلها، الحس ومشاكل ما وراء الطبيعة، العقل ومشاكل ما وراء الطبيعة، البصيرة ومشاكل ما وراء الطبيعة، الطريق إلى المعرفة، طريق البصيرة طريق الصواب، التصوف أريستوقراطية، تفاوت الناس في فهم الدين، التصوف قوة، التصوف ليس دخيلاً على الإسلام، التصوف في

العصر الحديث) ٢٣٥ - ٢٦٦

الفصل الخامس : الإمام الغزالي

(حياته، نبذة عنه بقلم أحد معاصريه، كتبه، تحليل

كتاب «الإحياء»، نصوص تبين منهجه) ٢٦٧ - ٣٢٤

الفصل السادس : المنقذ من الضلال

(توطئة، مدخل السفسطة، أصناف الطالبين، حقيقة

النبوة، سبب نشر العلم) ٣٢٥ - ٤٠٠

خاطرة ٤٠١ - ٤٠٣